

سيلفيان تيسون

في  
غابات سيبيريا

DANS LES FORÊTS DE SIBÉRIE

ترجمة لينا بدر



سويدي

# في غابات سيپيريا

سيلفيان تيسون

ترجمة: لينا بدر



الكتاب: في غابات سيبيريا

المؤلف: سيلفيان تيسون

ترجمة: لينا بدر

التصنيف: رحلات

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: مارس (آذار) 2021

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 1 - 726 - 429 - 614 - 978 ISBN:

Copyright © Éditions Gallimard, 2011

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.



Madarek مدارك  
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية  
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia  
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com

read@mdrek.com

DarMadarek



"مزون" ... خلد ارتفاع مواد مترجمة تقدمها مدارك  
مجهود الزملاء، مساهمات الضامير، الذي اختار أن يكون  
الدعم والجهد، هدية لأمة، منزلة جمر بالله، حيث كانت ترحل  
كالسحابة، وتغيب كالطير، وتجب العلم بشيخف.

ترقي الدهيل

٢٠١٨/٩/٢٥



## في غابات سيبيريا

---

ولد الكاتب الفرنسي سيلفان تيسون في باريس عام ١٩٧٢م. هو رحالة ومغامر جريء، اشتهر بأسفاره التي بدأها يافعاً متخذاً وسائل نقل غير تقليدية -سيراً على الأقدام، فوق صهوة الجواد، على دراجة هوائية أو دراجة مزدوجة...- عبر سهوب آسيا الوسطى وجبال الهملايا وغابات سيبيريا. يكتب مذكراته المشبعة بالتأملات والفلسفة وقصص الشعوب، ويلهم الكثيرين من محبي الطبيعة والمغامرة. يترأس منظمة غيلد ريد (منظمة غير ربحية للترحال والتضامن العالمي). يلاقي تيسون تشجيعاً منقطع النظير من قرائه والأكاديميات الأدبية. نالت مجموعته القصصية «حياة للنوم في العراء» جائزة غونكور للقصص القصيرة عام ٢٠٠٩م. وتوّج كتابه هذا «في غابات سيبيريا» بجائزة ميديسي للمقالات عام ٢٠١١م، ونالت رواية «بيريزينا» جائزة أوسار عام ٢٠١٥م. وفي العام ٢٠١٩ استحق كتابه «فهد الثلوج» جائزة رونودو.

## مقدمة المترجمة

لا شك أن محبي الاستكشاف والجغرافيا يستهويهم أدب الرحلات والمغامرة، ربما إرضاء لفضولهم بالتعرف إلى بقاع جديدة يصعب عليهم بلوغها في عالمنا المتنوع، عبر أسفار يقوم بها بالنيابة عنهم مغامرون لا يتوقفون عن تلبية نداء الرحيل. ولكن أن تقرأ يوميات رحالة أمضى الجزء الأكبر من حياته يطوف في أرجاء الأرض مدفوعاً بشغف الحركة وبحثاً عن زمنه المفقود، بعد أن قرر البقاء لستة أشهر في كوخ سيبييري على ضفة بحيرة البايكال في روسيا، فهذه مغامرة من نوع آخر. إنها تجربة المكوث والثبات بعد السفر والتجوال.

يدون سيلفان تيسون الكاتب الفرنسي الحائز على العديد من الجوائز الأدبية يومياته بأسلوب شفيف. وعلى الرغم من توثيقه لكل لحظات نهاره الهامة، فهو لا يتوانى عن البوح بانفعالاته وانطباعاته حيال ما يعيشه، ولا يتوقف عن استدرج مخزونه الثقافي الكبير، سواء من خلال الاقتباسات، أو المعلومات الهائلة التي يحفظها ويوظفها بسلاسة وانسجام مع سرديته الخاصة. واللافت أكثر في نصوصه هو إيصال أفكاره السياسية والاجتماعية والبيئية بأسلوب فلسفي مهور باسمه الذي صار أيقونة في دائرة المدافعين عن البيئة والأرض.

من خلال رؤية هذا الكاتب الإنساني لا تعود الجغرافيا مجرد أمكنة للاستكشاف، هناك حس المغامرة المتقدم في داخله، وهو في مسعاه الخاص هذا يدعو إلى الانفتاح الذهني والعاطفي على الآخرين. إذ يتوق إلى الالتقاء بالناس للتعرف إلى أساليب عيشهم، وبالأخص تلك التي لا تزال بدائية ومكتفية بذاتها دون اللجوء إلى منتجات العصر الحديث. في سهوب آسيا الوسطى، في هضبة التبت، في صحراء أيسلنده، في سيبييريا وفي غابات التايغا، في جزر المحيط الهادي والهندي... كل ذلك متخذاً من السير على الأقدام الطريقة الأمثل لمعظم أسفاره.

«في غابات سيبييريا»، كتاب يوميات دونه الكاتب «حتى لا يمضي النهار ويضمحل في العدم دون أثر»، كما يقول. كتبه يوماً بيوم دون أن يفوت التفاصيل في وصف الأمكنة التي يرتادها أو النشاطات اليومية الروتينية، لذلك نرى في بعض الفقرات عبارات وجملاً وجيزة متتالية كأنها كتبت على عجل في المكان نفسه حيث يقف، لكنها كانت وافية للإحاطة بالمشهد الذي نقله إلى قرائه دون إهمال. ولا ننسى أن تجربة الصمت والزهد هذه اختارها طوعاً، فهو كان يبحث عن الحرية والسلام الداخلي بمزيد من التأمل والعيش البسيط. وفعلت العزلة فعلها وشحذت حواسه وأحاسيسه لتجعله يتلقى كل اختلاجات محيطه بحساسية عالية. هو العارف بالفطرة أفضال الطبيعة الأم، أراد أن يختبر في لجوئه إلى الغابة وحيداً مزايا التخلي عن الحياة في المدينة بعيداً عن تطور التكنولوجيا الذي جعلنا نتعamy عن جمال العالم وعظمته.

أحببت أن أنقل هذا الكتاب إلى القارئ العربي، ذلك لأنني وجدت فيه نوعاً من الأدب النادر في العصر الحديث ولأسباب لن أتى على ذكرها هنا، لكن يمكنني القول إن حس المغامرة والاستكشاف والتأمل صارت من الأشياء غير المألوفة، إن لم تكن معدومة. لهذا بعد قراءتي العديد من أعمال سيلفان تيسون، هذا الإنسان الاستثنائي المليء بالحياة والحيوية والجدير بأن يكون مثلاً وقدوة،

رأيت أن أدعو القراء والشباب منهم إلى التطلع نحو آفاق جديدة، وطموحات يقتدى بها بعد أن تعلقت أنظارهم على شاشات هواتفهم كالمسرّنين.

«في غابات سيبيريا» كتاب يجمع بين المغامرة والفلسفة والمعرفة والكثير من المراجع الجديرة بالقراءة. إنه كتاب للمتعة والتأمل وفتح الأذهان على العالم وعلى الآخر، لن يخرج منه القارئ دون أن يعاود التفكير في الكثير من علاقاته بالأماكن والبشر. الأرض كوكب لا يكفّ عن إغداق عطاياه وروائعه إلينا ونحن نمعن في تخريبه، فهل نتدارك الكارثة قبل فوات الأوان؟ سيلفان تيسون لا يدقّ ناقوس الخطر كما يفعل أنصار البيئة، إنما ينقل لنا مشاهداته المهيبة دون تكلف ومزاودة، لا بل بشاعرية وحب لكل عناصر الطبيعة المدهشة في تحولاتها الأبدية. أرجو أن أكون قد وفقت في نقله بكل أمانة، لأن الكتاب في نهاية المطاف رسالة.

المتريجة

## خطوة خارج السرب

كنت قد عقدت العزم على العيش كناسك في قلب الغابات قبل أن أبلغ الأربعين.

أقمت لمدة ستة أشهر في كوخ سيبيريّ على ضفاف بحيرة البايكال عند أطراف رأس الأرز الشمالي، حيث تبعد أقرب قرية مائة وعشرين كيلومتراً. ما من جيران ولا طرقات للوصول إليّ. أحياناً كان يأتيني زائر. في الشتاء، تنخفض درجات الحرارة هناك إلى أقل من ثلاثين درجة مئوية، وفي الصيف، تجيء دبية إلى الضفاف. باختصار، إنه الفردوس.

أخذت معي الكتب والسيكار والفودكا، أما الباقي: المدى والصمت والعزلة، فقد كانوا هناك.

في ذلك الخلاء، خلقت لنفسي عيشة متروية وهانئة، عيشة تقتصر على أبسط الحركات. شاهدت الأيام تمضي قبالة البحيرة وفي الغابة. قطعت الخشب، اصطدت عشائي، وقرأت كثيراً. مشيت في الجبال، وشربت الفودكا على النافذة. كان الكوخ مرصد مراقبة مثاليّاً لالتقاط اختلاجات الطبيعة.

عرفت الشتاء والربيع، السعادة واليأس، وأخيراً السلام.

داخل غابات التايغا، تحوّلت. حمل لي الركون ما لم يمنحني إياه السفر. وساعدتني روح المكان على ترويض الزمن. وأضحى معتزلي مختبراً لتلك التحولات.

أودعت أفكارني في دفتر كل يوم.

دفتر مذكرات العزلة هذا، تحملونه بين أيديكم.

سيلفان تيسون

سيندرو بايگالسه



راسه  
انگطال

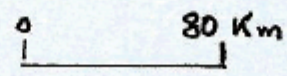
جزيره  
آوتكون  
ابوكو بينكوي

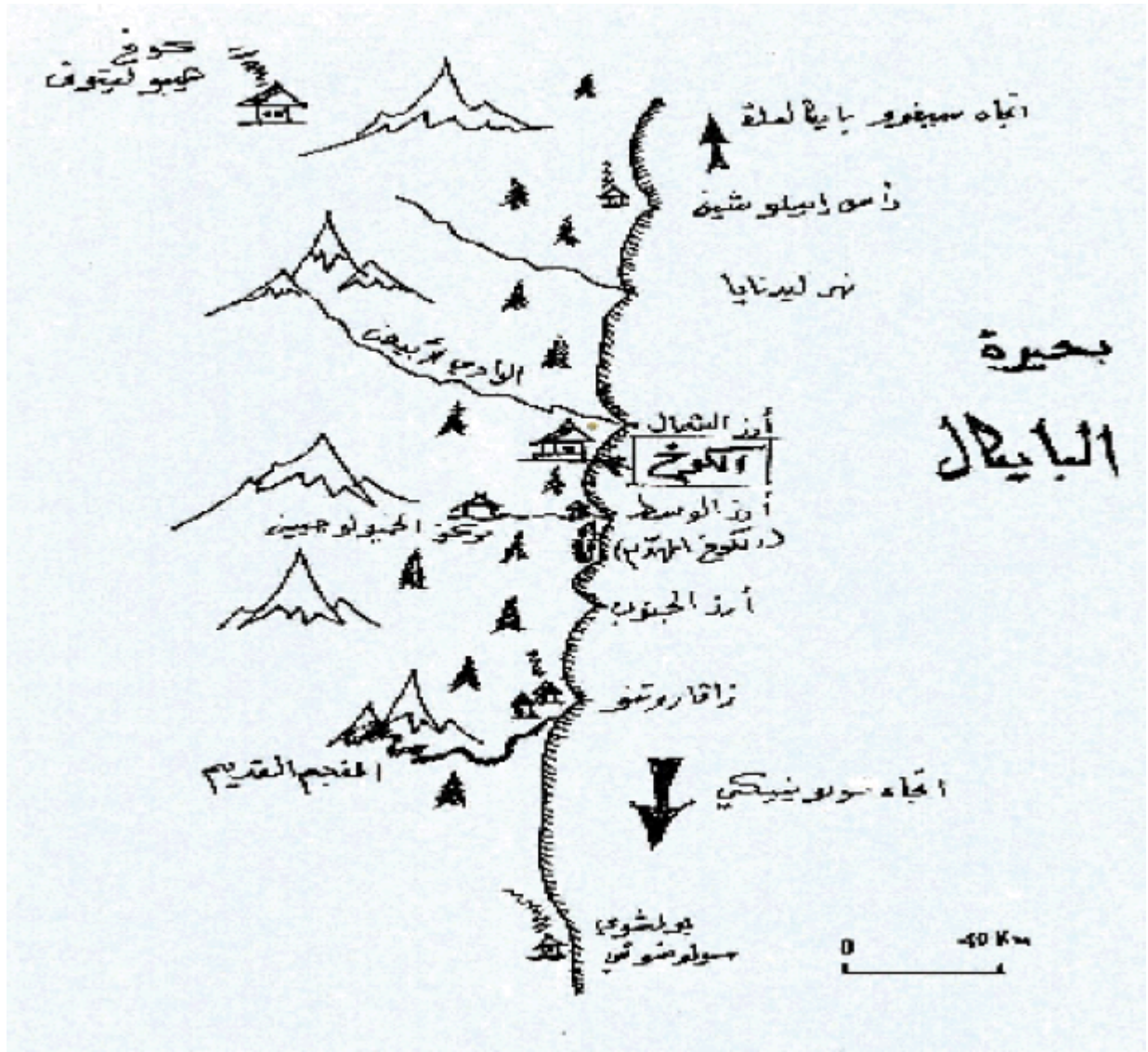
جزيره  
انگطال

بحيره البايگال



بیرکوتسکا





«وأنا أنتمي إلى الغابات والعزلة»

كنوت هامسون (1)

«الحرية موجودة دائماً. يكفي أن ندفع ثمنها»

هنري دومونتير لان (2)

مفكرة ١٩٧٥

## إلى أرنو هومان

فبراير

الغابة

تطرح ماركة Heinz التجارية خمسة عشر نوعاً من الصلصات. المخزن التجاري في إيركوتسك<sup>(3)</sup> يعرضها كلها ولا أعرف أية واحدة أختار. سبق وملأت ستّ عربات بالمعكرونة وصلصة التاباسكو. الشاحنة الزرقاء بانتظاري. لم يطفئ ميشا السائق المحرك، ففي الخارج الحرارة -٣١°. غداً سنغادر إيركوتسك ونتجه نحو الكوخ على الضفة الغربية للبحيرة خلال ثلاثة أيام. يجب أن أنهي مشترياتي اليوم. اخترت «الصلصة الحارة جداً» من ماركة Heinz. أخذت منها ثماني عشرة زجاجة: ثلاث في الشهر.

هناك خمسة عشر نوعاً من الكاتشاب. لأسباب كهذه، كان لدي الرغبة في مغادرة هذا العالم.

٩ فبراير

أنا مستلقٍ في سريري في بيت نينا في شارع العمال الكادحين. أحب أسماء الشوارع في روسيا. نجد في القرى «شارع العمل»، «شارع ثورة أكتوبر»، «شارع المناصرين»، «شارع الحماسة»، تسير فيها عجائز سلافيات شعورهن بيضاء كالثلج.

نينا أفضل من يؤجر غرفاً للمبيت في إيركوتسك. هي عازفة بيانو سابقة، كانت تعزف في قاعات احتفال الاتحاد السوفييتي. حالياً تدير بيت ضيافة. قالت لي البارحة: «من كان ليصدق أنني سأتحول إلى مصنع فطائر الكريب ذات يوم؟» هرّ نينا يخرخر فوق بطني. لو كنت هرّاً لعرفت البطن الذي يدفّني.

أنا على عتبة حلم عمره سبعة أعوام. في العام ٢٠٠٣م أقيمت للمرة الأولى على ضفة بحيرة البايكال. بينما كنت أسير على الضفاف، اكتشفت أكواخاً متباعدة عن بعضها البعض بانتظام، يسكنها نساك سعادة على نحو غريب. فكرة الهروب إلى عمق الغابة وحيداً في الصمت أخذت طريقها إلى داخلي حينذاك. بعد سبعة أعوام، هأنذا هنا.

يجب أن أجد القوة لدفع الهرّ عني. إن النهوض من الفراش يتطلب طاقة هائلة، خصوصاً حين تنهض لتغيّر حياتك. إنها تلك الرغبة بالالتفات إلى الخلف حين تكون على حافة الإمساك بما ترغب. بعض الرجال يدورون على أعقابهم في اللحظة الحاسمة. أنا أخاف الانتماء إلى هذه الفئة.

شاحنة ميشا ممتلئة حتى آخرها. للوصول إلى البحيرة، أمامنا خمس ساعات من السفر عبر السهوب الجليدية، ملاحه بين طلوع ونزول في بحر متحجر. عند سفوح الهضاب قرى ينبعث منها الدخان، وأبخرة تجنح إلى الصخور فوق المياه. أمام تلك الرؤى، كتب ماليفيتش: «كل من عبر سيبيريا لن يستطيع بعدها أن يصبو إلى السعادة أبداً». عند أعلى رابية مستديرة ظهرت البحيرة

فتوقفنا لنشرب. بعد أربع جرعات من الفودكا مرّ في خاطري هذا السؤال: بأي معجزة ينسجم خط الساحل مع حواف المياه بهذا الشكل الرائع؟

دعونا ننتهي من الإحصائيات أولاً. طول بحيرة البايكال سبعمائة كيلومتر، وعرضها ثمانون، وعمقها كيلومتر ونصف. عمرها خمسة وعشرون مليون سنة. في الشتاء تتجمد طبقة بثخانة متر وعشرة سنتيمترات. تسخر الشمس بهذه المعطيات، فهي تنشر حبها فوق السطح الأبيض وتتسرب أشعتها من بين السحب كقطع من صفائح النور لينزلق فوق الثلج ويشرق وجه الجثمان البارد.

دخلت الشاحنة منطقة الجليد. تحت العجلات، يبلغ العمق كيلومتراً. إذا وقعنا في أحد الصدوع، فسوف تغوص السيارة في الظلام وتجنح أجسادنا بصمت، غرقى يتساقطون ببطء كالثلج. البحيرة مدفن حلم جميل لمن يخشون التفسخ. جيمس دين (4) كان يريد الموت تاركاً «جثثاً جميلة». سوف تقوم قشريات بحيرة البايكال الصغيرة بتنظيف الأجساد في أربعة وعشرين ساعة، ولن تترك سوى عاج العظام في المياه العميقة.

١٠ فبراير

قضينا الليل في قرية كوجير على جزيرة أولكون (تلفظ أولكرون على طريقة أهل الشمال)، وتابعنا طريقنا نحو الشمال. ميشا لا ينبس ببنت شفة. يعجبني الناس الصموتون، أحاول تخيل أفكارهم.

أنا في طريقي إلى مكان أحلامي. الجوّ كئيب. أرخى البرد شعره للريح، خيطان من الثلج الأبيض تفرّ أمام العجلات. اقتحمت العاصفة الفسحة المتروكة ما بين الجليد والسماء. أنظر إلى الضفة، وأحاول عدم التفكير بأنني سأعيش ستة شهور في هذه الغابات الجنازية. يوجد هنا كل المكوّنات لتخيل صورة عن الاعتقال السيبيري: الاتساع اللا محدود، النور الشاحب، وروائح الكفن المنبعثة من الجليد. أبرياء أُلقيَ بهم في هذا الكابوس لخمسة وعشرين عاماً، وأنا ذاهب للإقامة فيه بملء إرادتي. لماذا أشتكي؟

ميشا: «هذا حزين».

ثم ران الصمت حتى اليوم التالي.

يقع كوشي في شمال محمية «البايكال-لينا». وهو ملجأ قديم لأحد علماء الجيولوجيا، تم بناؤه في سنوات الثمانينات، ويختبئ داخل فسحة بين أشجار الأرز. على الخريطة، أعطت الأشجار اسمها للمكان: «رأس أرز الشمال». أرز الشمال، يا له من اسم يرّ كأنه بيت للمسنين! على كل حال، إن ما أفعله هو التقاعد حقاً.

المسير فوق البحيرة نوع من الانتهاك. وحدها الآلهة والعناكب تسير على المياه. ثلاث مرات شعرت أنني كسرت المحرمات. أول مرة حين تأملت قعر بحر الأرال الذي أفرغه البشر. في المرة الثانية حين قرأت يوميات حميمة لامرأة. وثالث مرة حين سرت فوق مياه البايكال. في كل مرة ينتابني الإحساس بتمزيق حجاب، كأني أتلصص بعيني من خلال ثقب القفل.

شرحت ذلك لميشا. لم يقل شيئاً.

هذا المساء سنتوقف في محطة بوكوينيكي العلمية في قلب المحمية.

سيرجيه وناتاشا حارسا المحمية زوجان جميلان مثل آلهة إغريقية إنما أكثر حشمة. يعيشان هنا منذ عشرين عاماً، يطاردان المهربين. يبعد كوشي عنهما مسافة خمسين كيلومتراً إلى الشمال. يسعدني أن أحسبهما من الجيران. سيكون التفكير بهما ممتعاً. حبهما مثل جزيرة في الشتاء السيبيري.

قضينا السهرة مع اثنين من أصدقائهما، ساشا ويورا، وهما صيادان سيبيريان يجسدان شخصيتين من شخصيات دوستويفسكي. ساشا مفرد التوتر، وردي الوجه، مفعم بالحيوية، تسكن في أعماق عينيه المنغوليتين نظرة قاسية. يورا كئيب، راسبوتيني، ترعرع وهو يتغذى بأسمك الأعماق الموحلة، بشرته داكنة مثل بشرة سكان الموردور التولكيني(5). الأول مختص بالمآثر الباهرة، والثاني بالمؤامرات. لم يذهب يورا إلى المدينة منذ خمسة عشر عاماً.

١١ فبراير

في الصباح عدنا إلى الجليد. تمر الغابة أمام ناظري. عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، ذهبتا إلى فيردان لزيارة متحف الحرب العالمية الأولى. أذكر قاعة «درب السيدات»، على اسم إحدى المعارك الكبرى. داخل الخندق، كان يغطي الجنود البواسل سيل من الوحل. الغابة هذا الصباح جيش مغمور لا يظهر منه سوى حراب البنادق.

الجليد يتصدع. تتصّف صفائحه بفعل ضغط حركة المعطف الجليدي. السهل الزئبقي يتشظى ويصق أكواماً من البلور المتناثر. دم أزرق يسيل من الجرح الزجاجي.

«هذا جميل»، قال ميشا.

ولا شيء آخر حتى المساء.

في الساعة السابعة، ظهر رأس، رأس أرز الشمال. ثم كوشي. كانت معطيات نظام تحديد المواقع N٥٤ : GPS ٤٥.١٢٠٢٦° / ١٠٨°E ٤٠.٣٢٠٣٢°.

لاحت فوق رمل الشاطئ خيالات قاتمة لأشخاص قصار القامة وبرفقتهم كلاب، كانت تقترب لاستقبالنا. هكذا رسم بروجيل(6). أهل الريف. الشتاء يحوّل كل شيء إلى لوحة هولندية، ناصعة ولامعة.

تساقط الثلج، ثم أرخى الليل سدوله وأصبح كل ذلك البياض أسود مخيفاً.

١٢ فبراير

فولوديا ت. مفتش غابات عمره خمسون عاماً، يعيش مع زوجته لودميلا منذ خمسة عشر عاماً في كوخ أرز الشمال، له وجه محبب ونظارة زجاجها قاتم. بعض الروس يشبهون الحيوانات البرية،

وهو يشبه دبوباً صغيراً. كان فولوديا ولودميلا يريدان العودة إلى إيركوتسك لأن لودميلا مريضة تعاني من التهاب وريدي ويجب أن تعالج. بشرتها مثل بشرة كل النساء الروسيات، بيضاء كبطون الضفادع يشوبها لون وردي. تحت لونها اللؤلؤي ترسم شرايينها شعيرات دقيقة. كانا بانتظاري كي يرحلا.

كان الدخان ينبعث من الكوخ وسط أيقة الأرز، والثلج قد أضى على السقف شكل حلوى الميرانغ، وبدت الدعائم الخشبية بلون خبز الزنجبيل، فشعرت فجأة بالجوع.

يرتكز المسكن على سفح منحدرات يبلغ ارتفاعها ٢٠٠٠ متر. ترتفع غابة التايغا (Z) نحو القمة وتنتهي عند الألف متر. بعد ذلك يسود الحجر والجليد والسماء. يشتد ميل المنحدر وراء الكوخ. أما البحيرة التي ترتاح على ارتفاع ٤٥٠ متراً، فكنت أرى ضفافها من نوافذي.

تتباعد أكواخ مراكز المحمية عن بعضها البعض مسافة ثلاثين كيلومتراً، وتؤوي مفتشين يعملون تحت أمرة سيرجيه. إلى الشمال، عند رأس إيبيلوشين، جاري يدعى فولوديا. في الجنوب، في قرية زافاروتتو الصغيرة، جاري اسمه فولوديا أيضاً. فيما بعد، حين سأشعر بالحزن أو بالحاجة إلى قرع كأس مع نديم، يكفي أن أسير يوماً نحو الجنوب، أو خمس ساعات باتجاه الشمال.

جاء معنا من بوكوينيكي سيرجيه رئيس الحرس. لدى نزولنا من الشاحنة، نظرنا إلى ذلك المنظر المهيب بصمت، ثم قال لي وهو يلمس صدغه: «هنا مكان رائع للانتحار». كان في الشاحنة صديقي أرنو الذي رافقني من إيركوتسك، وهو يعيش فيها منذ خمسة عشر عاماً. كان قد تزوج من أجمل امرأة في المدينة، وكانت تحلم بجادة مونتيني وبمدينة كان. ولكن حين أدركت أن أرنو لم يكن يفكر سوى بالتطواف عبر غابات التايغا هجرته.

خلال الأيام القادمة سنهيء المكان معاً لإقامتي. فيما بعد، سوف يعود أصدقائي أدرجهم ويتركونني وحيداً. أما الآن فلنفرغ اللوازم:

اللوازم الضرورية للحياة في الغابات ستة أشهر:

فأس وبلطة

غطاء

كيس من خيوط القنب

معول وشبكة صيد للجليد

حذاء تزلج على الجليد

نعل شبكي للسير على الثلج

قارب كاياك ومجذاف

قصب صيد، خيوط، رصاص، طعم للصيد وملاعق

بطارية للمطبخ

إبريق شاي

مثقاب يدوي للجليد

حبل  
خنجر ومديّة سويسرية  
حجر اللسنّ  
قنديل زيت  
كيروسين  
شموع  
جهاز تحديد المكان، خارطة  
لوحة شمسية، كابلات وبطاريات قابلة للشحن  
أعواد ثقاب وولاعات  
حقيبة ظهر مخصصة للجبال  
حقيبة بحرية  
بساط من اللباد  
كيس للنوم  
معدات للجبال العالية  
واقية حشرات للوجه  
قفازات  
جزمة من اللباد  
عكاز بمنكاش  
كلّابات  
أدوية (عشر علب حبوب باراسيتامول لمقاومة مفعول الفودكا)  
منشار  
مطرقة، مسامير، براغي، مبرد  
علم فرنسا للعيد الوطني في ١٤ يوليو  
سهام نارية ضد الدببة من النوع الذي يشعل في اليد  
مسدّس للسهام  
معطف مطري  
شبكة للشواء  
منشار قابل للطّي  
خيمة  
بساط للأرض  
مصباح يعلّق على الجبين  
كيس للنوم في حرارة -٤٠°  
سترة رجال الشرطة الكندية  
زلاجة بلاستيكية

## خطافات

حذاء عالٍ وراقٍ للساق

فودكا وكؤوس للكحول

كحول بدرجة ٩٠٪ لتدارك النقص في المادة السابقة

مكتبتي الشخصية

سيكار، سيكار صغير، ورق أرمينيا(8) وعلبة بلاستيكية للترطيب

أيقونات (القديس سيرافيم ساروف، القديس نيقولا، عائلة رومانوف الإمبراطورية، القيصر نيقولا،

والعذراء السوداء)

صندوق خشبي

منظار مقرّب ثنائي

أجهزة إلكترونية

دفاتر وأقلام

مؤن (مكرونة، أرز، صلصة التاباسكو، خبز الجنود، علب فاكهة، فلفل حارّ، بهار، ملح، قهوة،

عسل وشاي لستة أشهر)

كم هذا مضحك! قررت العيش في كوخ، وتخيلت نفسي أأخذن السيجار قبالة السماء، نائهاً في

تأملاتي، وهأنذا أشطب لوائح المؤن في دفتر إداري. أيتها الحياة، أنت حكاية بقالية فحسب!

دفعت باب الكوخ. في روسيا، الفورميكا هي السائدة. سبعون عاماً في مذهب المادية التاريخي مَحَقَّ كلَّ حسنِّ جمالي لدى الروس. من أين يأتي الذوق القبيح؟ لماذا يفضلون أراضيات المشمّع بدلاً من لا شيء؟ كيف غزت ذائقة الابتذال العالم؟ للاقتناع بهذا الكلام، يكفي أن تسير في مدينة صينية وتراقب معايير التزيين الجديدة ما بعد الفرنسية، أو أن ترى ملابس السيّاح. الذوق القبيح هو القاسم المشترك للبشرية.

خلال يومين، وبمساعدة أرنو، نزعت مشمع الأرضية والأقمشة المشمّعة وأغطية البولستر والورق البلاستيكي الذي كان يغطي الجدران. خلعنا بالعتلة البطانات الكرتونية. أظهرت عملية التعرية هذه الجذوع المدوّرة المتألّئة بالراتنج وأرضية خشبية صفراء باهتة مثل لون غرفة فان غوغ في مدينة آرل. كان فولوديا ينظر إلينا ذاهلاً. لا يرى سوى الخشب العاري العنبري اللون وأكثر بهجة للنظر من القماش المشمّع. أصغى إليّ أشرح له، أنا البورجوازي المدافع عن أفضلية الأرض الخشبية على المشمّع. إن حب الجمال ميل ارتكاسيّ.

أحضرنا معنا من إيركوتسك نافذة من خشب الصنوبر بزجاج مزدوج لتحلّ محل زجاج النافذة التي تنتشر في الكوخ نوراً كنور مخفر للشرطة. لتثبيت الإطار الخشبي للنافذة، قصّ سيرجيه بالمنشار الجنزيري فتحة في الجذوع. كان يعمل بعصبية، دون استراحة، ودون أن يحسب الزوايا، يصلح الأخطاء بقدر ما يستدعيه تهوّه. الروس يبنون دائماً الأشياء على عجل، وكأن الجنود الفاشيين على وشك الوصول بين لحظة وأخرى.

في القرى التي تنتشر في المنطقة، يشعر الروس بهشاشة وضعهم. لم يكن خنزير الحكاية

الصغير أكثر اطمئناناً منهم في بيته القشبيّ. إن العيش بين أربعة جدران من الخشب وسط مستنقع جليديّ يجعل المرء متواضعاً. لم تُبنِ القرى الصغيرة كي تخذل لأجيال قادمة، فهي تتألف من تجمّع من البيوت البسيطة التي تتداعى من رياح الشمال. الرومانيّ يشيد لألف عام، أما الروسيّ فهو يبني لقضاء الشتاء.

مقارنة بقوة العواصف، الكوخ علبة ثقاب. إنه ابن الغابة، وقدره الاهتراء. جذوع الخشب الدائرية لجدرانه هي من الفسحة بين الأشجار. سوف تعود إلى الدبال حين يغادرها صاحبها. والكوخ يؤمن على بساطته حماية كاملة من البرد الموسميّ. كما أنه لا يجلب القباحة لأرض الغابة التي تؤويه. الكوخ ومسكن اليورت(9) والبيت الثلجي، يقفون في مقدمة أجمل الردود الإنسانية على محنة البيئة.

١٣ فبراير

عشر ساعات أخرى كرستها لتفريغ الفسحة من القمامة المتراكمة. نظفت المكان كي تعود إليه روح الغابات. يمحو الروس ماضيهم وكأنه لم يكن، إلا فضلاتهم، الموت ولا التخلص من الفضلات، يقولون. تتناثر فوق أرض الاتحاد السوفييتي السابق حثالات المخططات الخماسية: مصانع مهذّمة، آلات ومعدّات، هياكل طائرات. الكثير من الروس يعيشون في أماكن تشبه الورش وكسّارات السيارات إلى حد ما. إنهم لا يرون الفضلات، أذهانهم تتجاهل المنظر المترامي أمامهم. الفعل (astractirovaouit)، أي «غضّ النظر عن» هي الكلمة المسيطرة حين تسكن في مكب للنفايات.

١٤ فبراير

الصندوق الأخير هو صندوق الكتب. لو سئلت لماذا أتيت للانعزال هنا، لأجبت إنني متأخر عن القراءة. ثبتّ بالمسامير لوحاً من جذع الصنوبر فوق سريري الخشبيّ، ورتبت عليه كتيبي. معي ستون كتاباً. في باريس، أوليت عناية كبيرة لتشكيل لائحة مثالية. حين نرتاب في فقر حياتنا الداخلية، يجدر بنا جلب كتب جيدة. بوسعنا دوماً ملء فراغنا الداخليّ. ويكمن الخطأ حين تختار القراءات الصعبة حصراً لأنك تظن أن الحياة في الغابة تجعلك على درجة عالية من الحرارة الروحية. الوقت طويل جداً حين لا يكون لديك سوى هيغل(10). لأوقات بعد الظهر المثلجة.

قبل الرحيل نصحني أحد الأصدقاء بأخذ كتاب «الذكريات» للكاردينال دورينز، و«فوكيه» لبول موراند. كنت أعرف مسبقاً أنه لا يجوز السفر مطلقاً مع كتب تذكر وجهتك. في فينيسيا، قرأ ليرمونتوف(11)، ولكن في البايكال قرأ بايرون(12).

أفرغت الصندوق. لدي ميشيل تورنيه من أجل أحلام اليقظة، ميشيل ديون للاكتئاب، د.إتش لورنس لإيقاظ الحواس الشهوانية، ميشيما لأيام البرد القارس. معي مجموعة صغيرة من الكتب عن الحياة في الغابات: غراي أوول للراديكالية، دانييل ديفو للأسطورة، ألدو ليوبولد للأخلاق، تورّو للفلسفة، لكن كلامه المكرر كمسؤول بروتستانتني يصيبني بالملل قليلاً. أما ويتمان فإنه يسحرني، تفوح النعمة من كتابه «أوراق العشب». كان يونجر(13) قد ابتكر تعبير «اللجوء إلى الطبيعة». معي أربعة أو خمسة من كتبه. قليل من الشعر والفلسفة أيضاً: نيتشه(14)، شوبنهاور(15)،

والرواقيون(16). الماركيز دوساد وكازانوفا لإثارتني. روايات بوليسية من سلسلة «الروايات السوداء». يجب أن أخذ استراحة قليلاً. بعض كتب الإرشاد للطبيعة من مجموعات دولاشو ونستلة عن الطيور والنباتات والحشرات. أقل شيء يمكن أن تقوم به حين تدعو نفسك إلى الغابات هو أن تعرف أسماء مضييفيك. الإهانة سنكون في اللامبالاة. لو أن أناساً وصلوا إلى شقتي للاستقرار فيها عنوة، لوددت أن ينادوني باسمي أقله. الحواف الجانبية لمجموعتي من الكتب تلمع على نور الشموع. الكتب أيقونات. لأول مرة في حياتي سوف أقرأ رواية دفعة واحدة.

لائحة المطالعة المثالية التي شككتها في باريس بعناية كبرى تحسباً لإقامة مدتها ستة أشهر في الغابة السيبيرية

رصيف الأهوال، إنغريد أستيه  
عشيق الليدي شاترلي، دي، إتش لورنس  
رسالة اليأس، كيركيغارد  
خطوات فوق الثلج، إريك لوم  
المسرح الجوال، فيليب فينويك  
حكايات أغالفا، فاسيلس بيسكوف  
كريك الهندي، بيتر فروم  
رجال سكارى بالله، جاك لاكاربير  
الجمعة، ميشيل تورنيه  
التاكسي البنفسجي، ميشيل ديون  
الفلسفة في مخدع السيدة، ماركيز دوساد  
جيل، دريو لاروشيل  
روبنسون كروزو، دانييل ديفو  
دم بارد، ترومان كابوت  
سنة في كوخ، أولاف كاندو  
العرس، ألبير كامو  
السقوط، ألبير كامو  
روبنسون بحار الجنوب، توم نيل  
أحلام يقظة جوال منفرد، روسو  
قصة حياتي، كازانوفا  
نشيد العالم، جان جيونو  
فوكيه، بول موراند  
دفاتر صغيرة، مونتيير لان

سبعون تمضي، الجزء الأول، يونغر  
رسالة الثورة، يونغر  
العقدة المستعصية، يونغر  
مقاربات، مخدرات وثمانية، يونغر  
ألعاب أفريقية، يونغر  
أزهار الشر، بودلير  
ساعي البريد يدق مرتين دائماً، جايمس م. كاين  
الشاعر، مايكل كونلي  
القمر المضرج، جايمس إيلروي  
إيفا، جايمس هادلي تشيس  
مجموعة الرواقيين  
الحصاد الأحمر، داشيل هاميت  
عن الطبيعة، لوكريس  
أسطورة العودة الخالدة، ميرسيا إلياد  
العالم...، شوبنهاور  
تيفون، كونراد  
قصائد، سيغالين  
حياة رانسيه، شاتوبريان  
تاو تو كينغ، لاو تسو  
مرثية ماريانباد، غوتيه  
الحكايات الكاملة، همنغواي  
هذا الإنسان، نيتشه  
هكذا تكلم زرادشت، نيتشه  
غسق الأوثان، نيتشه  
خمسة وعشرون عاماً من العزلة، جون هاينس  
الحدود الأخيرة، غراي أول  
رسالة الكوخ الوحيد، أنطوان مارسيل  
في قلب العالم، ساندرارس  
أوراق العشب، ويتمان  
تقويم مقاطعة الرمال، ألدو ليوبولد

العمل بالأسود، يورسونار  
ألف ليلة وليلة  
حلم ليلة صيف، شكسبير  
ثرثرة ويندسور المرححة، شكسبير  
ليلة الملوك، شكسبير  
روايات الطاولة المستديرة، كريتيان دو تروي  
الصندوق الأسود الأميركي، موريس، جي، دانتيك  
المريض النفسي، الأميركية بي. إي. إيليس  
والدن، تورّو  
خفة الكائن التي لا تحتمل، كونديرا  
المقصورة الذهبية، ميشيما  
وعد الفجر، رومان غاري  
المزرعة الأفريقية، كارين بليكسن  
المغامرون، جوزيه جيوفاني

في اليوم السادس بعد رحيلي من إيركوتسك، رحلت شاحنة أصدقائي إلى وراء الأفق. بالنسبة لغريق مرمي على الشاطئ، لا شيء أفسى من مشهد شراع سفينة يتوارى. فولوديا ولودميلا يرحلان إلى إيركوتسك وإلى حياتهما الجديدة. انتظرت اللحظة التي يلتفتان فيها لإلقاء نظرة أخيرة على الكوخ، لكنهما لم يفعلوا.

لم تعد الشاحنة سوى نقطة. أنا وحدي. تراءت لي الجبال أكثر قسوة، وبدا المنظر كثيفاً. توضحت البلاد أمامي. غريب كم يستأثر الإنسان على انتباه الإنسان. إن وجود الآخرين يجعل العالم باهتاً. العزلة هي ذلك الاجتياح الذي يعيد إليك متعة الأشياء.

درجة الحرارة -٣٣°. تلاشت الشاحنة في الضباب وانهاك السكون من السماء شذرات بيضاء صغيرة. أن تكون وحيداً معناه أن تسمع الصمت. هبّت رياح. كان رذاذ الجليد يشوّش الرؤية. أطلقت صيحة، باعدت ذراعي، مددت وجهي في الخواء الجليدي، ثم عدت إلى الدفاء.

لقد بلغت شاطئ حياتي.

أخيراً سوف أعرف إذا كان عندي حياة داخلية.

١٥ فبراير

هذه أولى أمسياتي وحيداً. في البدء، لم أجرؤ على التحرك كثيراً. كنت أشعر بالخدر من فكرة انتظار الأيام. في العاشرة مساءً، سمعت انفجارات مرقّت الصمت. ثم صار الهواء دافئاً لتندثر السماء بالتلج. ربما تدكّ المدفعية الروسية البحيرة، لكن الكوخ لن يهتزّ. الحرارة لا تتجاوز -١٢°،

خرجت إلى الطقس الدافئ الذي حلّ بعد البرد كي أصغي إلى دوي الهدّ. كانت التيارات تتلاعب بطافية الجليد.

المياه سجيّنة تتوسّل كي تتحرّر. كان الجليد يفصل الكائنات (أسماك، أزهار، أعشاب بحرية، ثديّات بحرية، مفصليات أرجل، كائنات دقيقة) عن السماء، مشكلاً حاجزاً يحول بين الحياة والنجوم.

الكوخ عبارة عن مربع طول ضلعه ثلاثة أمتار، فيه مدفأة من الحديد الصبّ تؤمّن التدفئة. سوف تصبح صديقتي. أتقبّل شخير رفيقة كهذه. المدفأة محور العالم، من حولها ينتظم كل شيء. إنها آلهة صغيرة لها حياتها الخاصة. حين أقدم لها التقدّمات من جذوع الأشجار، أكرّم الإنسان المنتصب (17). الذي اكتشف النار. يتخيّل باشلار (18) في كتابه «التحليل النفسي للنار» أن فكرة فرك عودين لإشعال الفتيل كانت من وحي الاحتكاك أثناء ممارسة الجنس. بينما كان الإنسان يضاجع، أتته فكرة النار بالحدس. من المفيد معرفة ذلك. كي أروي ظمئي الجنسي، سأفكر بمشاهدة الجمر.

لديّ نافذتان. الأولى مفتوحة على الجنوب، والأخرى على الشرق. يُرى في وسط الثانية قمم بورياتيا (19) المكلفة بالتلوج على مسافة مئة كيلومتر. ومن خلال الأولى، وراء أغصان الصنوبر المتدلّية، أتابع بنظري انحناء الخليج المنعطف باتجاه الجنوب.

تشغل طاولتي الملصقة بنافاذة الشرق كل العرض، على الطراز الروسيّ. بوسع السلافيين أن يظلوا جالسين لساعات يتأملون قطرات المطر فوق زجاج نوافذهم. أحياناً، ينهضون ويذهبون لاجتياح بلد ما، أو للقيام بثورة، ثم يعودون ليحلموا أمام النافذة في غرف شديدة التدفئة. في الشتاء، يحنّون الشاي إلى ما لا نهاية ولا يستعجلون الخروج.

١٦ فبراير

منتصف النهار. أنا في الخارج.

ذرت السماء فوق التايغا ثلجاً ألبس أشجار الأرز الخضراء البرونزية حلّة مخملية. غابة شتوية، فراء فضيّ ملقى على أكتاف المرتفعات. أمواج الغطاء النباتي تغطي المنحدرات. إنها مشيئة الأشجار باجتياح كل الأمكنة. الغابة تموج ببطء. عند كل طيّة مرتفع، يدكن بياض قمم الأشجار بسحابات سوداء.

لماذا يعشق الناس أو هام الفن التجريدي أكثر من جمال بلورات الثلج؟

١٧ فبراير

هذا الصباح جثمت الشمس فوق قمم البورياتيا عند الساعة ١٧:٨. اخترق النافذة شعاع وأصاب دعائم الكوخ الأسطوانية. كنت داخل كيس نومي. خيّل إلي أن الخشب ينزف.

تنطفئ آخر السنة لهب المدفأة نحو الرابعة صباحاً. عند الفجر، يصبح الجو داخل الغرفة جليدياً. يجدر بي حينها النهوض وإشعال النار. حركتان تحتفيان بالعبور من إنسان الغاب إلى الإنسان المنتصب. أبدأ نهاري بالنفخ على الجمر، ثم أعاود الاستلقاء الوقت الكافي كي يستعيد الكوخ حرارة

بيضة.

هذا الصباح، قمت بتشحيم السلاح الذي تركه سيرجيه، مسدس يطلق الشهب من النوع الذي يستخدمه البحارة حين يواجهون الخطر. تقذف السبطانة حشوتها من الفوسفور الساطع كي تخفف من هيجان الدبّ أو أي متطفل آخر.

ليس معي أي سلاح، ولن أصطاد. أولاً لأن نظام المحمية الطبيعية يمنعني، ثانياً لأنني أرى أنه من المثير للاشمئزاز أن ألحق الأذى بكائنات الغابة وأنا في ضيافتهم. هل تحب أن يتعدّى عليك غريب؟ لا يزعجني البتة أن تأتي كائنات صالحة أكثر نبلاً، افترقت عن أقرانها بشكل يختلف عني لتجول بحرية في الأيكات العالية.

هنا لسنا في مدينة شانتي (20) حيث يلتقي الصيادون المخالفون بحراس الغابة، تجري التبريرات وبنادق الصيد في أيديهم. لا يقوم سيرجيه بدورياته دون بندقيته. في محيط البحيرة قبور تحمل أسماء مفتشين. نصب تذكارية بسيطة من الإسمنت تزينها أزهار بلاستيكية، وأحياناً صورة للمتوفى داخل ميدالية معدنية. أما الصيادون المخالفون فليس لهم أضرحة.

أفكر بمصير حيوانات القيزون. تولد في الغابة، تعيش في الشتاءات القاسية، ثم تقع في فخ وينتهي بها المطاف فوق ظهر سيدة سخيفة متعجرفة أمها في البقاء على قيد الحياة تحت أشجار هذه الغابة لا يتعدى ثلاث دقائق... ويا ليت كان لتلك السيدات اللواتي يغطيهن الفراء لطف السموريات التي نسلخها من أجلهن. منذ خمسة أيام روى لي سيرجيه قصة. كان قد انطلق حاكم إيركوتسك إلى الجبال التي تطل على بحيرة الباكال لصيد دبّ من مروحيته. فقدت طائرة الميل مي (21) توازنها على أثر رشق الرصاص وتحطمت. كانت الحصيلة ثمانية قتلى. قال سيرجيه: «لا شك أن الدببة رقصت رقصة البولكا حول الحطام المشتعل».

سلاحي الآخر خنجر صنع في الشيشان، سكين جميل قبضته خشبية. لا يفارقتي طول النهار. في المساء أغرزه في الخشب فوق سريري عميقاً ما يكفي كي لا يفلق بطني إذا ما وقع وأنا وسط أحلامي.

١٨ فبراير

كنت أرغب في تسوية قضية نزاع قديمة مع الزمن. وجدت في السير على قدمي طريقة لإبطائه، إذ إن كيميائية السفر تكثّف الثواني. تلك الثواني التي نقضيها على الطريق تمضي أقل سرعة من الثواني الأخرى. انتابني السعار فجأة، كنت بحاجة لأفاق جديدة. كنت مولعاً بالمطارات لأن كل ما فيها يدعو للخروج والرحيل، وأحلم بأن ينتهي بي المطاف في الصالة الأخيرة لانتظار الطائرة. لكن أسفاري كانت تبدأ مثل الهروب وتنتهي بسباق مع الساعات.

منذ سنتين وبالمصادفة سنحت لي الفرصة بالإقامة ثلاثة أيام في كوخ خشبي على ضفاف بحيرة الباكال. استقبلني حارس صيد اسمه أنطون في بيته الخشبي الصغير القائم على الضفة الشرقية للبحيرة. كان يلبس نظارة لمدّ البصر وتمنحه عيناه المتضخمتان عبر العدستين مظهر ضفدع مرح.

في المساء، كنا نلعب الشطرنج، ونهاراً كنت أساعده في رفع شباك الصيد. قلما كنا نتحدّث، وكنا نقرأ كثيراً، أنا أقرأ هويسمان(22)، وهو يقرأ همغواي ويلفظه همغفاي. كان يتجرّع ليترات من الشاي وأنا أذهب للتنزه في الغابات. كان نور الشمس يغمر الغرفة وطيور الإوز تفر هاربة من الخريف. كنت أفكر في أهلي ونحن نستمتع إلى المذيع بينما تعلن المذيعة درجات الحرارة في سوتشي(23). كان أنطون يقول لي: «لا شك أن البحر الأسود جميل». بين الحين والآخر كان يرمي بقطعة حطب في المدفأة، وعلى امتداد النهار نلعب الشطرنج ونحن نحتمي كؤوساً صغيرة من فودكا كراسنويارسك ونحرك البيادق. كنت ألعب دائماً بالبيادق البيض، وأخسر في أغلب الأحيان. مضت تلك الأيام الطويلة بسرعة. أثناء وداعي لصديقي كنت أفكر: «هذه هي الحياة التي أحتاجها». كان يكفي أن أطلب من الركوب ما لم يقدمه لي الترحال: السلام.

أقسمت في سرّي على أن أعيش بضعة أشهر في كوخ، وحيداً، قبل أن أبلغ الأربعين. البرد والصمت والعزلة، أشياء ستشتري في الغد بأعلى من الذهب. في هذا الكوكب الصاخب المزدحم بالسكان والذي ازدادت حرارته، كوخ في الغابة هو الفردوس. على مسافة ألف ومئة كيلومتر نحو الجنوب، الصين تغلي. مليار ونصف نسمة على مشارف افتقاد المياه والخشب والمساحات. العيش في غابات على ضفة أكبر تجمع للمياه الحلوة في العالم ترف. ذات يوم، رجال النفط السعوديون وحديثو النعمة الهنود ورجال الأعمال الروس الذين يجررون وراءهم مشاغلهم إلى صالات استقبال القصور الرخامية، سوف يدركون ذلك. سيحين زمان يتجهون فيه صعوداً نحو الشمال، بعيداً عن خط الاستواء لبلوغ التوندرا. وسوف يكون موقع السعادة فوق خط العرض ٦٠ شمالاً.

أن تسكن هانناً في فسحات برية خير لك من أن تسقم في المدينة. في المجلد السادس من «الإنسان والأرض» لعالم الجغرافيا إيليزيه ريكلو(24). سيّد اللاسلطوية وصاحب القلم الرفيع، يعرض فكرة رائعة. سوف يكون مستقبل البشرية في «الاتحاد التام ما بين المتمدن والبربري». لن يتحتم علينا الاختيار ما بين جوينا للتقدم التقني وعطشنا للأماكن العذراء. الحياة في الغابات تقدّم أرض أحلام لإعادة الوفاق ما بين الرجعي والتقدمي. تحت أيكات الغابة تنبسط حياة خالدة أقرب ما تكون إلى الدبال، نجدد فيها الصلات مع حقيقة ضوء القمر ونرضخ لعقيدة الغابات دون التخلي عن حسنات الحداثة. يؤوي كوشي تزاوج التطور بالقديم. قبل الرحيل، وفي المخزن الكبير، جلبت بعض منتجات الحضارة التي لا بد منها للسعادة: كتب، سيجار، فودكا، كي أستمتع بها في قسوة الغابة. اعتمدت على حدس استباقي بحيث جهّزت كوشي بالخلايا الشمسية التي ستغذي حاسوبي الصغير. سيليسيوم شرائحي الإلكترونيّة تُشحن بالفوتونات. أستمع إلى موسيقا شوبير وأنا أنظر إلى الثلج، أقرأ مارك أوريل بعد عناء تقطيع الحطب، أدخّن سيكاراً من هافانا للاحتفال بصيد المساء. لا شك أن إيليزيه سيكون راضياً عني.

في كتاب «ماذا أفعل هنا؟ يقتبس بروس ساتوين(25). من يونغر الذي يذكر ستاندال: «يقوم فن الحضارة على الجمع ما بين المسرات الأكثر ترفاً بوجود الخطر الدائم». هنا أرى صدى لتوصيات ريكلو. من المهم أن أعيش حياتي وأنا أدير دفتها، أعبر خط الذرى بين عالمين متناقضين. أتأرجح بين المتعة والخطر، بين برد شتاء روسيا ودفء الموقد. لا أستقرّ، أنوس دوماً من أقصى أو هام

الأحاسيس إلى أقصاها.

تتيح لنا الحياة في الغابة الفرصة لتسديد ديوننا. نحن نتنفس، نأكل الفاكهة، نقطف الأزهار، نستحم بمياه النهر، ثم ذات يوم، نموت دون أن ندفع الفاتورة للكوكب. العيش نصب واحتيال. سيكون الأمر مثالياً لو عبرنا الحياة كعفريت الترول(26) الذي يجول في الأراضي البور دون أن يترك أثراً فوق عشب البرية. يجب أن تجعل من نصيحة بادن بويل(27) قدوة لك: «حين تترك مكان المخيم، احرص على أن تترك هناك أمرين، أولاً: لا شيء. ثانياً: جزييل الشكر». المهم هو ألا تتقل كثيراً على سطح الكوكب. المعتزل القاطن في مكعب من جنوع الأشجار لا يلوث الأرض. عند عتبة بيته الريفي يتطلع إلى الفصول ترقص رقصة عودتها الخالدة بإيقاعها السريع. هو المحروم من الآلة، يعتني بجسده، المنقطع عن أي نوع من الاتصالات، يفك رموز لغة الأشجار، المنعقد من التلغاز، يكتشف أن النافذة أكثر شفافية من الشاشة. كوخه يضيء البهجة على الضفة ويوفر له الراحة. سوف يأتي يوم نسأم فيه من الحديث عن «التقهقر» وعن حب الطبيعة، ولسوف تجتاحنا رغبة في تنسيق أفكارنا. أن الأوان لمغادرة المدينة وإسدال ستارة الغابات على الخطابات.

الكوخ مملكة البساطة. تحت غطاء أشجار الصنوبر تقتصر الحياة على حركات حيوية. الوقت المستقطع من الأعمال اليومية نشغله بالراحة والتأمل وبمسرات صغيرة. جدول الأشياء التي يجدر القيام بها محدود جداً، بحيث تصبح القراءة وسحب المياه وتقطيع الأخشاب والكتابة وصبّ الشاي طقوساً دينية. في المدينة، كل عمل ينجز على حساب ألف عمل آخر. الغابة تكثف ما تبدده المدينة.

١٩ فبراير

إنه المساء، الساعة التاسعة، وأنا أمام النافذة. قمر خجول يبحث عن شقيق له، لكن السماء خالية. أنا الذي كنت أتعلق بكل ثانية كي تعيد لي ما سرقته مني وأستخلص منها عصارته، هأنذا أتعلم التأمل. أفضل وسيلة للتحوّل إلى سكينة حياة الرهبان هي أن تضع نفسك فيها مكرهاً. أجلس أمام النافذة وكأس الشاي في يدي، أترك الساعات تنتقع، أعطي للمنظر فرصة تداعي ظلاله، لا أعود أفكر بشيء. فجأة ألتقط الفكرة العابرة وألقيها في مفكرتي الصغيرة. استخدام النافذة: دعوة الجمال للدخول وترك الوحي يخرج.

أمضيت ساعتين في وضعية الدكتور غاشيه الذي رسمه فان غوغ، خدي مسند إلى يدي، شاردي النظرة.

فجأة علا هدير في الصمت واخترقت الظلام سهام إشارة. عبرت سيارات فوق الجليد نحو الشمال. استطعت عبر المنظار أن أحصي عشر سيارات كانت تتجه نحو ضفتي. بعد مضي عشرين دقيقة، اصطفت عند الساحل ثماني سيارات رباعية الدفع مزينة بملصقات إعلانية. إنهم أعيان من مدينة إيركوتسك، أعضاء من حزب بوتين «بيدينايا روسيا»(28). يقومون بجولة على البحيرة لمدة ثمانية أيام. سوف يقضون الليلة هنا، تحت الخيمة. علمت بعد بضعة أشهر أن من بينهم عضواً في جهاز الأمن الفدرالي لروسيا الاتحادية وبعض أقرباء الحاكم ومدير إحدى المحميات الطبيعية. كانت عجالاتهم قد حرثت منحدر الثلج المؤدي إلى رمل الضفة. يبدو أن الشباب لا يباليون بالثلج المتساقط.

السير على الثلج يعني عدم تحمّل عذرية العالم. يبدأون اختراق المنحدرات البيضاء، ثم يبقرون بطون البولونيين.

المحركات دائرة، وأجهزة المذياع تطلق صوت ناديا نجمة غناء الشباب المتعلمين التي يعشقها أولاد الروس المنحرفون. انهرت.

أقفلت على نفسي داخل الكوخ محاولاً تهدئة أعصابي بربع ليتر من فودكا كيدروفويا. كنت أسمع الرجال يغنون بصوت زاعق هناك فوق الجليد. فتحوا بركة في الجليد، وعلى حزمة ضوء مصباح كاميرا راحوا يغوصون في المياه الباردة كل بدوره وهم يصيحون. تصرفاتهم أشبه ما تكون باختبارات لطلاب الصف الأول في ثكنة شيشانية.

ما هربت منه انقضت على جزيرتي: الضجيج، القباحة، التجمعات الذكورية. وأنا المغفل المسكين هنا، مع خطاباتي عن العزلة في معقل ونسختي من كتاب «أحلام اليقظة» لجان جاك روسو على الطاولة! تذكرت الرهبان البندكتيين المعتزلين والمكرهين على إرشاد الزيارات السياحية. هم الذين غادروا الناس ليعيشوا إيمانهم حبيسي الأديرة، يجدون أنفسهم مكرهين على شرح قواعد القديس بونوا أمام جموع لا مبالية.

في القرن الرابع أصبح الآباء الرهبان المقيمون في الصحراء مولعين بالعزلة وما عادوا يحتملون أي دخيل. كانوا يتوغلون في عمق الصحراء، وينزرون داخل المغاور. مخزون الحب لديهم منذور لعالم يخلو من أبناء جنسهم. في ضواحي المدينة يقوم أحياناً أحدهم بإطلاق رشقة من الرصاص على مجموعة من الشبيبة، عند أسفل أحد الأبراج. ينتهي به المطاف في مقالة قصيرة في صحيفة «الباريسي»، ثم وراء القضبان.

كي أهدئ أعصابي، خرجت إلى البحيرة فيما كان الروس منشغلين بالتزلج المقرون بسياراتهم الجرارة. مشيت مسافة كيلومترين باتجاه بورياتيا، ثم استلقيت فوق الجليد. أنا مستلق فوق أحفور سائل عمره خمسة وعشرون مليون سنة، وفي السماء تتبدى نجوم أكبر عمراً بمئة مرة. أما أنا فلي من العمر سبعة وثلاثون، وأعود إلى كوشي لأن الحرارة تبلغ -٣٤°.

٢٠ فبراير

رحل البشر وجاءت الحيوانات.

ما الذي يجعلني سعيداً جداً هذا الصباح؟ رحيل فرقة السعادين البؤساء في الثامنة صباحاً، أم زيارة طائر قرقف أسود الرأس على نافذتي قبل دقائق؟

استيقظت كالسكران الطافي على وجه المياه، فلقد شربت البارحة كي أنسى. أطعمت العصفور، ثم أوقدت المدفأة. الكوخ يدفأ بسرعة. ثبتت الخلايا الشمسية على حوامل الخشب التي صنعتها البارحة. تلك اللوائح الشمسية لا تعيش حياة مزعجة، إنها مستلقية هناك من الصباح حتى المساء، تعب الفوتونات أمام الجمال.

أفكار كثيرة تلد من بخار الشاي. أمام الفنجان، أفكر بأختي الصغرى. هل ولد ابنها؟ يستحيل أن أحصل على أي خبر. الحاسوب انفجر من الداخل أول أمس، لم يحتمل الفوارق الحرارية الفادحة. أما هاتفي الخاص بالأقمار الصناعية، فإنه لا يلتقط شيئاً. كنت قد ضيّعت ساعات ثمينة في باريس قبل رحيلي للتزوّد بالتجهيزات التكنولوجية. كان يجدر بي أن أتشرب من فلسفة ديرسو أوزاللا(29)، «في الغابة، الأشياء الوحيدة التي يجدر أن تثق بها هي البلطة والمدفأة والخنجر». باعتباري محروم من الحاسوب، ليس أمامي سوى الفكر. الذكرى محرّض كهربائي مثل غيرها.

٢١ فبراير

الحرارة ٣٢° تحت الصفر. سماء كريستالية. الشتاء السيبيري شبيه بسقف قصر المرايا في قصة فيزاس(30)، عقيمة ونقية.

ثيران أول أمس قلبوا كل شيء رأساً على عقب. خربوا ركام الثلوج الذي كونته الريح، تركوا في كل مكان آثار مرورهم. وحدها عاصفة ثلجية ستعيد الهدوء إلى نفسي عندما تعيد صقل الضفة.

على مسافة خمسين متراً جنوب الكوخ ينتصب كوخ آخر، يطلق عليه بالروسية اسم «بانيا» على شكل مربع طول ضلعه خمسة أمتار، ويدفئه موقد. كان فولوديا قد شاده العام الماضي. يجدر تدفئته لأربع ساعات لرفع الحرارة إلى ٨٠°، «بانيا» وهي النسخة السلافية للساونا، صورة عن ازدياد الروس الاعتدال. ينتقل الجسم بلا تمهيد من النار إلى الجليد. بعد عشرين دقيقة فوق النار، خرجت. في الخارج، الثلاثون درجة تحت الصفر تبدد الحرارة المتراكمة. الصقيع يضغط على جمجمتي ويجب أن أعود. البانيا تجسّد حيواننا التي تنقضي في مطاردة أبدية وراء وضع أفضل. ندفع الباب ونحن نظن أننا سنلامس السعادة، لكننا سرعان ما نقفل راجعين لنجد من جديد ما لن يتأخر عن أن يتقل علينا.

في روسيا، يلتجئون إلى البانيا مرة أو مرتين في الشهر للتخلص من نفايات الجسم. الحرارة تعصر الجسم مثل ليمونة وتذيب معها كل السموم: الشحوم الضارة، الوسخ، الكحول، ترشح كلها إلى الخارج.

في السادسة مساء هبّت العاصفة. عدت عارياً إلى الكوخ إلا من جزمتي اللباد متمسكاً بمصباح الكاز بيدي. ما زلت أذكر قصة المعتقلين في سجن غولاغ(31) الذين خرجوا ليتبولوا ذات ليلة عاصفة ثلجية، تاهوا ولم يتمكنوا من العودة إلى ملجئهم، عُثر عليهم في الصباح أمواتاً على بعد خمسين متراً من المهاجع. شربت ليترًا كاملاً من الشاي الساخن. البانيا ترف كامل. أنا إنسان جديد. أعطوني معولاً ووشاحاً أحمر ولسوف أوّسس الاشتراكية.

في المساء، قصعة من الأرز بصلصة التاباسكو، نصف قطعة نقانق، نصف ليتر من الفودكا. وللتحلية، القمر فوق القمم يركل أحزانه. خرجت ألقى التحية على القمر، الأم الكبيرة التي تسهر على نوم الوحيديين وقلبي مليء بالشفقة على الحيوانات التي لا تملك كوخاً ولا حمام بانيا، أو حتى جحراً.

الحياة في الغابات، هل هي هروب؟ الهروب اسم يطلقه الناس الغارقون في رمال عاداتهم على اندفاع الحياة. هل هي لعبة؟ بالتأكيد! وإلا ماذا نسّمى إقامة معتزل بملء إرادته على ضفة غابة مع صندوق كتب ونعال شبكية؟ بحث عن شيء ما؟ إنها لكلمة كبيرة. هل هي تجربة؟ بالمعنى العلمي، هي كذلك. الكوخ مختبر، فراش من قش تتهاوى عليه رغبتك بالحرية والصمت والعزلة، حقل تجربة تختبر فيه حياة متباطئة.

المدافعون عن البيئة يوصون بتخفيض الاستهلاك. ولأننا لن نستطيع الاستمرار بالسعي نحو نموّ لا نهاية له في عالم موارده أصبحت نادرة، سيتوجب علينا أن نبطئ من إيقاعنا لجعل حياتنا أبسط، وأن نعيد النظر في تخفيض متطلباتنا. بوسعنا أن نقبل تلك التغييرات برضانا الكامل، بما أن الأزمات الاقتصادية سوف تفرضها علينا غداً.

التخفيض لن يكون خياراً سياسياً أبداً. ولتطبيقه، سوف نحتاج إلى مستبد متنوّر. أي حاكم لديه الشجاعة لفرض علاج كهذا لشعبه؟ كيف له أن يحوّل جموع الجماهير إلى فضيلة الزهد؟ كيف يقنع مليارات الصينيين والهنود والأوروبيين بأنه من الأفضل لهم أن يقرأوا سينيكاً (32) من أن يلتهموا البرغر بالجبن؟ الحلم بالتخفيض ملاذ شاعريّ للأشخاص الراغبين بالتكيف وفقاً لمبادئ الحماية.

الكوخ مكان مثالي لتأسيس حياة تقوم على قواعد التقشف المترف. يكمن تقشف الناسك في عدم إرباك نفسه بالكثير من الأشياء والبشر، أي في الإقلاع عن حاجاته القديمة.

ترف الناسك هو الجمال. أينما يقع نظره يكتشف روائع لا مثيل لها. لا شيء البتة يقطع مجرى الساعات، (باستثناء حادثة أول أمس). التكنولوجيا لا تسجنه داخل دائرة حمى الحاجات التي تخلقها.

لا يمكن أن تُعزف معزوفة اللجوء إلى الغابات إلا بعدد محدود من العازفين. العزلة نخبوية. ألدو ليوبولد (33) لا يقول غير ذلك في كتابه «فهرس مقاطعة الرمال» الذي بدأت قراءته هذا الصباح فور إشعال المدفأة. «كل حماية للحياة البرية مصيرها الفشل، ذلك لأننا حين نحب، نرى المحبوب ونلاطفه، وحين سيأتي إلى البرية الكثير من الناس ليروها ويلاطفوها، لن يبقى هناك شيء لنحبه». حين تصل الجموع إلى الغابة، ذلك كي تقطعها بالفؤوس. الحياة في الغابة ليست حلاً للمشاكل البيئية. تشمل الظاهرة مبادئها المعاكس. تصل الجموع إلى الغابات حاملة معها الشرور التي تدعي الهروب منها حين غادرت المدينة ولا تتخلص منها أبداً.

نهار مثلج. شاحنة صياد في البعيد. حديث طويل مع نافذتي. في نهاية فترة الصباح، رميت في الثلج نصف دزينة من زجاجات فودكا «كيدرولفايا». سوف أعثر عليها بعد ثلاثة أشهر في موسم الذوبان عندما تشرئب أعناقها من تحت طبقة الثلج معلنة قدوم الطقس الجميل، أجمل من أزهار الجليد الجرسية. هدية الشتاء بعودة الربيع الخالدة.

أمضيت بعد الظهر في الترتيب والتصلّيح. أحكمت سدّ إفريز باب الكوخ بتسمير لوائح خشبية، وانتهيت من فرز صندوق المؤن. ولكن ماذا بعد؟ حين لن يعود هناك لوائح أثبتها أو صناديق أرتبها.

توارت الشمس في الساعة الخامسة وراء رؤوس الجبال. حلّ الظلام في الفسحة وأعتم الكوخ. وجدت للقلق علاجاً فوري المفعول، بضع خطوات فوق الجليد. نظرة بسيطة إلى الأفق أقتعتني بصواب خيارى: هذا الكوخ، هذه الحياة. لا أدري إذا كان الجمال سينقذ العالم، لكنه أنقذ مسائى.

٢٣ فبراير

«الدوار» عنوان قصة إفجيني غينزبورغ عن سنواته التي قضاها في معتقل غولاغ. قرأت منها بضع صفحات في فراشى الدافئ. عند الاستيقاظ، تتأهب أيامى، عذارى، شغوفات، مهداة إليّ كأوراق بيض. لدي العشرات منها كاحتياطي في مخزنى. كل ثانية فيها ملكى. أنا حرّ في التصرف بها كما أشاء. أصنع منها مقاطع من نور أو من نوم أو من حزن. لا أحد يستطيع أن يفسد عليّ مجرى حياة كهذه. أيامى هذه كائنات من طين أشكلها على هواي. أنا سيّد مجموعة من الحيوانات الخطيرة الوهمية.

أعرف دوار المرتفعات الذي يشعر به المتسلق المعلق فوق الجرف، رؤية الهاوية تخيفه. وأذكر دوار المدى للرحالة عبر السهوب، الحدود غير الواضحة تدوّخه. وكنت أعرف دوار المخمور الذي يظن أن لديه فكرة عبقرية، لكن دماغه يرفض أن يصيغها بشكل صحيح بينما يشعر بها تكبر في داخله. هأنذا أكتشف دوار المعتزل، إنه الخوف من الفراغ الزمنى. انقباض القلب نفسه الذي يصيبني فوق الجرف، لا مما يوجد في الأسفل إنما مما ستحمّله الأيام القادمة.

أنا حرّ في أن أفعل أي شيء في عالم لا شيء فيه لتفعله. أنظر إلى أيقونة القديس سيرافيم. كان لديه الله.

الله الذي لا يشبع البتة من صلاة البشر، هو ملهاة مقدّسة. أما أنا فلديّ الكتابة.

قمت بنزهة على البحيرة بعد شاي الصباح. لم يعد الجليد يطقطق لأن الحرارة حافظت على انخفاضها. البرد يشدّ على جسدي كله. أتقدم في المسير نحو عرض البحيرة. كتبتُ فوق الثلج بعضاى قصيدة من سلسلة قصائد «هايكو الثلوج»:

رَقَطْتُ فوق الثلج خطاي، أخط القماش الأبيض في مسيرى.

ميزة القصيدة المكتوبة على الثلج أنها لا تدوم. الرياح تحمل معها الأبيات.

على بعد كيلومترين من الضفة، يشقّ الجليد خط منكسر ينساب بموازاتها. تعتلي الصدع كتل شبه شفافة. أسمع غرغرة عبر الثغرة. بحيرة البايكال تتألم. أمشي بمحاذاة الجرح محافظاً على مسافة أمان، فقد أنزلق إلى المياه بسرعة.

تدفقت في ذهني خيالات أقاربي وقفزت إلى الذاكرة وجوههم. إنها الآلية الغامضة للروح. العزلة وطن تسكنه ذكرى الآخرين والتفكير فيهم يخفف من ألم الغياب. أهلي هنا، في إحدى ثنايا الذاكرة، أنا أراهم. يؤمن الأورثوذكسيون بوجود الكائن الأعلى النازل إلى الأيقونة. ينساب جوهر الله في مادة الأيقونات، ويتجسّد في الرسم وانعكاسات الزيت. الصورة تتحوّل إلى شيء مقدّس.

لدى عودتي قررت أن أقيم كنيستي. نشرت لوحاً خشبياً بطول ثلاثين سنتيمتراً و عرض عشرة، علقته بمسماز إلى جانب طاولة عملي ووضعت في داخله ثلاث صور تمثل القديس سيرافيم ساروف كنت قد اشتريتها من إيركوتسك. أمضى سيرافيم خمسة عشر سنة في غابة من غابات روسيا الغربية. في نهاية خلوته كان يطعم الدببة ويتحدث لغة الوعول. إلى جانبه وضعت أيقونة القديس نيقولا، وأخرى لمريم العذراء السوداء. القيصر نيقولا الثاني الذي أعلنه البطريرك أليكسي قديساً مرسوم بجلته الإمبراطورية. أشعلت شمعة وسيكار بارتاغاس ورحت أنظر إلى اللهب يضفي لوناً عسلياً لتذهيبات الأطر من خلال دخان سيجاري الهافاني. السيكار بخور ينتهك المقدس.

انتهيت من أعمال الترتيب في كوشي وأفرغت آخر صندوق. أذخ مستقياً على سريري وأنا أفكر أنني لم أنس سوى شيء واحد، كتاب جميل عن تاريخ الرسم كي أتأمل بين الحين والآخر وجهاً ما.

كي أتذكر وجهي، ليس لدي سوى مرآتي.

٢٤ فبراير

يبشر هذا الصباح بيوم مثلج. البحيرة «البحر» كما يسميها الروس تلاشت في السماء. ميزان الحرارة يشير إلى -٢٢°. أشعلت المدفأة وفتحت كتاب «حياة كازانوف». من روما إلى نابولي ثم إلى فلورنسا، قرأت عن تيريتا في مخدعه وهنرييت في سقيفته، عربات بريد مستعجلة، هروب من زنازين البندقية، رسائل يمتزج فيها الحبر بالدموع، عهود يُحنث بها فور إطلاقها، وحب أبدي أقسم به مرتين في الليلة ذاتها لحبيبتين مختلفتين، الرقة والخفة والأناقة. حفظت عن ظهر قلب العبارة التي يصف فيها جياكومو المتعة: «التي لم تتوقف إلا حين وصلت إلى مكان يستحيل عليها أن تصبح فيه أكبر». أغلقت الكتاب ولبست حذاء اللباد وذهبت لأسحب دلوين من المياه من فتحة في الجليد وأنا أفكر في تيريز بيلينو الرومانية وليونيلدا(34) الساليرنية.

يا له من كتاب، عاشق غندور لحياة فلاح روسي!

النهار يطول. في باريس لم يسبق لي أن التفت كثيراً إلى دواخلي. لم أكن أرى الحياة مصوغة لإدراك إشارات اهتزاز الروح. هنا، في الصمت المطبق، لدي الوقت لأشعر بخلاجاتي التكتونية. ثمة سؤال يطرح نفسه على المعتزل: هل تستطيع أن تحتل نفسك؟

العرض الذي يجري أمام النافذة أخذ. كيف يمكن للمرء أن يفكر بالاحتفاظ بتلفاز في بيته؟

عاد طائر القرقف. في كتابي «دليل علم الطيور» بحثت عن صفحة للتعرف على أسلوب عيشه. حسب المؤلف السويدي لارس سفنسون المولود في العام ١٩٤١م وهو مؤلف للعديد من المؤلفات مثل كتابه الشهير «جرائم أوروبا»، يُعرف قرقف الشمال الأوروبي بزقزقته: «زي زي تيه تيه تيه». عصفوري لا ينطق بكلمة. في الصفحة التالية قرأت عن نوع يطلق عليه اسم «القرقف الحزين».

زيارة العصفور الصغير تفرحني وتبهج ساعات العصر. خلال بضعة أيام، نجحت بالاكتفاء

بمنظر كهذا. كم هو مدهش كيف نتخلى بسرعة عن الاعتياد على فوضى حياة المدينة! حين أفكر في كل الطاقة التي كان علي أن أبذلها، وكل اللقاءات والقراءات والزيارات لبلوغ نهاية نهار باريس. وهناك باقى مثل عجوز خرف أمام العصفور. لعلّ في حياة الكوخ نكوصاً. ولكن ماذا لو كان هناك تقدّم في هذا النكوص؟

٢٥ فبراير

رحلت عند الظهر في مهب الريح لزيارة جاري فولوديا حارس الصيد المقيم عند طرف رأس إيلوشين، على مسافة خمسة عشر كيلومتراً شمال كوشي. يسكن فولوديا مع زوجته إيرينا منزلاً خشبياً يُعتبر نقطة علامة لحدود محمية البايكال-لينا الشمالية. كنت قد التقيته منذ خمس سنوات أثناء جولة لي على الجليد أقود دراجة سوفيتية لها عربة جانبية. أحببت رأسه المسطح الذي يغطيه شعر قاسٍ، وكنت سعيداً برويته مجدداً. أذكر يديه الضخمتين، يدا حدّاد: مخطبان يسحقان يدك.

وراء الرأس الذي يحمي كوشي، كانت هبات الريح تتجه نحو الشمال، وأشجار الأرز تحرك رؤوسها، تومئ بإشارات مثل الغرقى. من عساه يأتي لنجدة الأشجار؟

لم أتوقع أن تشتد الرياح هكذا. قطعت الطريق عبر البحيرة محافظاً على مسافة كيلومتر أو اثنين من الضفة، متخفياً داخل سترتي الكندية المبطنّة بريش الإوز المخصصة لدرجة حرارة -٤٠°. حميت وجهي بقناع تسلق الجبال المطاطي، ويديّ بقفازات دون أصابع للرحلات القطبية. استغرق ارتداء كل ذلك عشرين دقيقة. من المستحسن ألا أعرض أصغر سنتيمتر من جلدي للهواء الطلق.

اليوم بحيرة البايكال مصابة بداء التصلب. الثلج ينسلخ، تقتلعه الرياح بضراوة تاركة هنا وهناك فوق الزجاج البركاني الأسود حبوباً بيضاء كالبقع فوق جلد حيتان الأركة القاتلة. السطح يزداد سواداً كلما انكشف الجليد.

كانت المسامير الحافرة في حذائي تغرز في طبقة الجليد البراقة، لولاها لحملتني الرياح إلى عرض البحيرة. تأتي هبات العواصف من الجبال وتنفض الثلج عن التايغا. أخبرني فولوديا فيما بعد أن سرعة الريح بلغت مئة وعشرين كيلومتراً في الساعة. كانت الرياح ترغمني على السير محنياً. وأحياناً توقفتني العاصفة كلياً.

ثبتت قطعة المرآة التي تحيط بقبعتي المصنوعة من فراء القيوط(35). كانت خيوط الثلج تتعرج فوق المرآة برشاقة مثل أفاعي غورغونا(36). على امتداد التشققات التي التحمت بفعل الجليد، كان الثلج لازوردياً بلون البحيرات الشاطئية المالحة. وبعد هذه الفسحة الاستوائية وصلت إلى مستنقع زجاجي طويل مغشى. كانت الشمس تنشر داخل الصدوع سيولاً من الأشعة البيضاء الزلالية. وداخل الطبقة الجليدية احتبست فقاعات الهواء. ترددت في وطء تلك القناديل البحرية اللؤلؤية. كانت الرؤى المائية تتماوج من خلال قناعي وتظلّ مطبوعة في شبكيتي حتى حين أغمض عيني.

عند الساعة الثالثة فجراً، جازفت والتفتت إلى وجه الريح باتجاه الجبال الغربية. كانت الأشجار تحرسها حتى ارتفاع ٩٠٠ متر فقط، وكأنها لا تريدها أكثر. تتعرج بين طيات السفوح شعاب ضيقة.

بعد أربعة أشهر سوف تستقبل مياه الثلوج الذائبة وتصبها في الحوض. حين وصلت بمحاذاتها، تضاعفت شدة الريح بسبب شكلها القمعي الذي يجعل الرياح تعصف في داخلها. فكرت كم من الكتاب حاولوا وصف جمال أماكن كهذه!

كنت قد التهمت كل كتب جاك لندن وغراي أول وألدو ليوبولد وفيمينور كوبر وكما لا بأس به من القصص المدرسية عن كتب الطبيعة الأميركية، لكنني لم أشعر قط عند قراءة واحدة من تلك الصفحات بجزء يسير من الانفعال الذي أحسست به أمام تلك الضفاف. مع ذلك سوف أتابع القراءة والكتابة.

مرتين أو ثلاث مرات في الساعة، كانت تحدث ضربة تهزّ أفكارني. البحيرة تتصدّع. تصادم الجليد لا يمنع من النوم، مثل انحسار الأمواج وهدير الشلالات وغناء الطيور. بينما صوت محرك، أو شخير أحد أبناء جنسك، أو تسرب قطرة مياه من السطح، أشياء لا تحتل.

يستحيل ألا تفكر بالأموال. آلاف الروس غرقوا في البحيرة. هل نجحت أرواح الغرقى في بلوغ السطح؟ هل يمنعها الجليد؟ هل عثرت على الفتحة التي توصلها إلى السماء؟ هذا موضوع جدل أعرضه على المسيحيين الأصوليين.

احتجت إلى خمس ساعات للوصول إلى إيبيلوشين. أخذني فولوديا بين ذراعيه وهو يقول: «مرحبا بك يا جاري». كنا سبعة أو ثمانية أشخاص: صيادون عابرون، هو وإيرينا، وأنا حول المائدة نغمس البسكويت في الشاي. تحدثنا عن حيواتنا وكنت منهكاً جداً. كان الصيادون يتشاجرون وكأن الاختلاط يفسد أمزجتهم. وراء كل عبارة تراهم يتراجعون عن أقوالهم ويزجرون بعضهم البعض بقرف واشمزاز كبيرين. الأكواخ سجون. لا يبقى شيء من الصداقة، ولا حتى بالعيش معاً.

من الجانب الآخر للنافذة كانت الرياح مستمرة في عرض مآثرها. سحب ثلجية تعبر بتواتر مثل قطارات شبحية. فكرت بطائر القرقف، وبدأت أحنّ إليه منذ الآن. شيء جنوني كيف نتعلّق بالكائنات بسرعة. غمرني شعور بالشفقة تجاه تلك الحيوانات المناضلة. تبقى طيور القرقف في الغابة أثناء الصقيع. ليس لديها غطرسة السنونو الذي يمضي الشتاء في مصر.

بعد عشرين دقيقة صمتنا، بينما كان نظر فولوديا معلقاً في الخارج. كان يظنّ ساهماً أمام نافذته هكذا لساعات، وجهه بين النور والظلمة، نصفه مغمور بنور البحيرة، والنصف الآخر قابع في الظلام. كان النور يُبرز ملامح بطولية لجندي في فرقة مشاة. للزمن فوق الجلد فعل المياه فوق الأرض، إنه يحفر وهو يجري.

في المساء أثناء العشاء، جرى حديث شيق مع أحد الصيادين الذي وصل إلى نتيجة أن اليهود يقودون العالم (ولكن في فرنسا العرب هم من يفعلون ذلك)، وأن ستالين كان زعيماً حقيقياً، والروس لا يُقهرون (هذا القزم هتلر انهزم شرّ هزيمة)، والشيوعية نظام مثالي، وزلزال التسونامي الذي ضرب هايتي كان نتيجة الموجة الصادمة للقنبلة الأميركية، وأن نوستراداموس على حق، وضربة الحادي عشر من سبتمبر كانت من فعل اليانكي الأميركيين، وأن مؤرخي الغولاغ خونة لوطنهم، والفرنسيين شاذون جنسياً.

أظن أنني سوف أباعد بين زياراتي.

٢٦ فبراير

فولوديا وإيرينا يعيشان مثل بهلوانين يسيران فوق الجبال. لا صلات لهما مع سكان الضفة المقابلة، لا أحد يجتاز البحيرة. الساحل المقابل بالنسبة إليهما عالم آخر، العالم الذي تشرق منه الشمس. يتلقيان بين الحين والحين زيارة الصيادين أو المفترسين المقيمين في جنوب مركزهما أو شماله. نادراً ما يغامران في السير عبر الجبال المحيطة بمسكنهما. كانا قد عُينا في هذه النقطة من الساحل، ويقيمان على الخط الساحلي بتوازن بين البحيرة والغابة.

هذا الصباح شرفنتي إيرينا بزيارة مكتبتها. بالإضافة إلى منشورات الاتحاد السوفييتي القديم، تملك إيرينا مؤلفات لستاندال ووالتر سكوت وبالزك وبوشكين. والكتاب الأحدث «شيفرة دافنشي». انخفاض حضاري خفيف.

وأخيراً عدت إلى بيتي سيراً على المياه.

٢٧ فبراير

العيش وحيداً في هذا العالم ترف، لكن وجود الجيران فيه مشكلة كبرى. حين كنت في إيركوتسك، علمت أن كاتبة فرنسية نشرت رواية طويلة عنوانها «معاً، هذا كل ما في الأمر». هذا مبالغ به، لا بل هذا هو التحدي الأساس، وأظن أننا لا نوضح الأمر كما يجب. الأجسام البيولوجية، الحيوانية والنباتية، تتقارب بتوازن، تدمر بعضها البعض، تقتتل وتتكاثر بانسجام. السيمفونية مضبوطة على نحو ممتاز. على عكس البشر الذين لا يفلمون في التعايش بسلام. نحن البشر نعزف معزوفتنا بنشاز.

السماء تتلج. أقرأ كتاب «رجال سكارى بالله»، مقالة لجاك لاكاربيير عن التنسك في القرن الرابع في صحارى مصر. أنبياء منقوشو الشعور مبهورون بالشمس، غادروا عائلاتهم واتجهوا صوب الصحراء. كانوا يقضون حياتهم في كهوف مدينة طيبة، حيث لم يأت الإله لزيارتهم قط، لأنه كأى شخص تكوّن بشكل طبيعي، يفضل أبهة القباب البيزنطية. أراد أولئك النسك الهروب من إغراءات عصرهم. البعض منهم ارتكب الذنوب من باب العجرفة بمزيح من الريبة تجاه عصره والاحتقار لبني جنسه. لم يعد أي واحد منهم إلى العالم بعد أن ذاق ثمار حياة العزلة السامة.

المجتمعات لا تحب النسك، فهي لا تغفر لهم هروبهم. تستهجن وقاحة المعتزل الذي يقول للأخريين وهو راحل: «استمروا من دوني». الانسحاب يعني الاستئذان من أشباهنا بالانصراف. الناسك ينكر دور الحضارة التي تشكل مادة دسمة لنقده، كما يحطّ من قدر العقد الاجتماعي. كيف نقبل هذا الإنسان الذي يتجاوز الحدود ويتعلّق بأول كلام فارغ عابر؟

في الساعة الرابعة، زيارة غير مرتقبة ليورا خبير الأرصاد الجوية في محطة إوكسوريه على جزيرة أولكون.

تصدّع الجليد في منطقة الاحتكاك عند الضفة. تلم بعرض متر وعشرين سننيمتراً يمنع أي سيارة من الوصول إلى المنحدر. كانت قد أثلجت واستعادت ضفتي نفاءها. ركن يورا سيارته عند الحافة. كان منشغلاً بأخذ سائحة أسترالية في جولة حول البحيرة.

وضعت كؤوس الفودكا على الطاولة وبدأنا نشرب على مهل في رحم الكوخ الدافئ. لم تستوعب الأسترالية الكثير مما تراه حولها.

- هل لديك سيارة؟

- لا.

- تلفاز؟

- لا.

- ماذا لو واجهتك مشكلة ما؟

- أمشي.

- هل تذهب إلى القرية لإحضار الطعام؟

- لا توجد أية قرية.

- هل تنتظر سيارة نقل على الطريق؟

- لا يوجد طريق.

- هل هذه الكتب لك؟

- نعم.

- هل كتبتها كلها؟

أفضّل الطبيعة البشرية الشبيهة بالبحيرات المتجمدة على تلك الشبيهة بالمستنقعات. الأولى قاسية وباردة على السطح لكنها عميقة هائجة وحيّة في الأسفل. الثانية ظاهراً ناعم وإسفنجي لكن أعماقها جامدة وكتيمة.

لم تجرؤ الأسترالية على الجلوس فوق جذوع الأشجار التي كانت بمثابة مقاعد. كانت تنتظر إليّ بغرابة. لا شك أن الفوضى دعمت أفكارها عن تخلف الشعب الفرنسي. حين رحل يورا، كنت ثملاً مثل سائق ترامواي مولدافي، وكان قد حان موعد التزلج على الجليد.

كانت الرياح قد صقلت الحلبة. رحت أتزلج فوق الطبقة اللامعة كقفمة رشيقة. من كثرة التصدعات، بدت طبقات الجليد التركوازية الشفافة كأكداس من ورق. عبرت فوق كسور ملتحمة بلون العاج، وحافظت على توازني فوق النسيج. كانت الجبال المنعكسة شبيهة براقصات خجولات تشد عليهن فساتينهن البيض، مترددات في النزول إلى حلبة الرقص.

قبل أن أعرز سكينى في أحد شقوق الكوخ وأنهال فوق الأرضية الخشبية، تذكرت أولئك الرياضيين الذين تضيق عليهم ستراتهم القصيرة البراقة، كيف يطرون فوق الجليد وهم يراقصون فتيات تشيكيات يافعات تزيّن رؤوسهن وردة، أمام لجنة تحكيم مؤلفة من سيدات عجائز يبدون هاربات من أحد كازينوهات مدينة نيس، وينشغلن برفع لافتات صغيرة كتبت عليها أرقام تجعل محصلتها الشاب المتزلج مستحقاً لقبلة من الفتاة أو لدموعها الجليدية.

عدت بمشقة مرضوض الكاحلين.

في المساء تنفست السماء وانخفضت درجة الحرارة. أمضيت ساعة رائعة مدثراً بأغطيتي فوق مقعدي الخشبي، عارضة من خشب الصنوبر ثبّتها بالمسامير فوق قطعتين من الجذوع. جلست عند أطراف الغابة تحت شجرة نبتت أمام نافذتي الجنوبية. كانت أغصانها التي انحنى منهكة نحو البحيرة بفعل الريح الغربية تشكّل محارة. وأنا من داخل ملجئى الإبري الذي يوهم بالدفء كنت أنظر إلى بئر البحيرة الأسود. بدت لي كتلة الجليد مثل بوتقة مخيفة. أحسست بقوة ما يحدث تحت هذا الغطاء. داخل هذا القبو، ثمة عالم يعجّ بالحيوانات التي تهرس وتلتهم وتقطع. في الأعماق إسفنجيات تميل بأغصانها ببطء، وأصداف تلف لوالبها بزمن قياسي وتخلق مجوهرات لؤلؤية على شكل كوكبة من النجوم. أسماك متوحشة تجول في المياه الموحلة، وأخرى لاحمة تتجه نحو السطح لوليمة الليل ومذابح القشريات. أسراب من سمك الأومبل ترسم رقصتها في الأعماق، بكتيريا تخضّ النفايات، تهضمها وتنقي المياه. هذا الحراك الكئيب يحدث بهدوء تحت مرآة، حتى النجوم لا تقوى على أن تعكس ضياءها عليها.

٢٨ فبراير

قوة الرياح هذا الصباح ٨. هبات الريح العاصفة تحمل الثلج سحباً هائجة وتضرب الجدار الأخضر البرونزي لأشجار الأرز عند أطراف الغابة. ساعتان من الترتيب. الحياة في الكوخ تزيد الحركات المهووسة نفسها مثل العيش على متن قارب صغير. أمل ألا ينتهي بي المطاف مثل أولئك البحارة الذين تصبح الصيانة بالنسبة إليهم غاية بحد ذاتها، حتى بعد أن يرسوا على البرّ نهائياً، يمضون أيامهم في إعادة النظام إلى حياتهم الهامدة.

الإقامة في حيّز الكوخ السيبيري الصغير هي كسب لمعركة الانطمار تحت أكوام أغراضنا. الحياة في الغابات تدفعنا إلى إزالة كل ما هو ضارّ. نتخفف من كل ما يعيق الحركة، نخفف عن المنطاد من وجودنا. منذ ألقى عام عرف البدو الرحل الهنود الساماراتيون (37) كيف يجمعون كل ممتلكاتهم في صندوق خشبي صغير. هناك علاقة نسبية بين ندرة الأشياء التي نملكها وتعلقنا بتلك الأشياء. بالنسبة لمن يجوبون غابات سيبيريا، السكين والبنديقية عزيزان على قلوبهم مثل رفيق من لحم ودم. الغرض الذي يرافقنا خلال تحولات حياتنا فيه شيء من الروح وينبعث منه إشعاع خاص. يلامسه الزمن وتلبسه السنوات درعاً. يجدر بنا أن نقارب ميراثنا البائس من الأغراض لوقت طويل كي نتعلم كيف نحب كل غرض منها. عمّا قليل، نظرتي العطوفة التي سألقياها على السكين وإبريق الشاي والقنديل، سوف تنتقل إلى المادة والعناصر، إلى خشب الملعقة وشمع القنديل والشعلة. تتجلى

طبيعة الأشياء، ويلوح لي أنني ألمح جوهرها الغامض. أحبك أيتها الفنانة، أحبك أيها السكين الصغير، وأنت يا قلم الرصاص الخشبي ويا فنجاني، وأنت يا إبريقي الشاي الذي يطلق الدخان كسفينة جريحة. في الخارج برد وريح هائجة، إذا لم أملاً هذا الكوخ بالحب فهناك مخاطرة في أن يتخلع.

علمت بواسطة الهاتف الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية أن طفلي أختي قد ولد. هذا المساء سأشرب نخب صحته وأريق كأساً من الفودكا على الأرض التي تستقبل كائناً زيادة دون أن يسأله أحد الإذن.

قصيدة فوق الثلج

مملكتي خليج صغير

قصري كوخ من خشب

رعاياي الذكريات

وطائر قرقف أتيتم بحبه

أمضيت فترة الصباح أقطع جذوع الأشجار. صار عندي الآن جدار من الحطب يرتفع تحت مظلة الشرفة. عشرة أيام دافئة مقطّعة إلى حطبات صغيرة.

في النسك، صرف الطاقة الجسدية كبير جداً. لدينا الخيار في الحياة في أن نشغل الآلات أو أن نقوم نحن بالمهمة. في الحالة الأولى، نوكل إلى التقنية مهمة إشباع حاجتنا. حين نتملص من كل التزام بالجهد نفقد حيويتنا. في الحالة الثانية، نحرك آلة الجسم كي تستجيب للحاجات. وكلما استغنينا عن خدمة الآلات تنتضخ العضلات، ويزداد الجسم صلابة، تقسو البشرة ويكسو الوجه درع. تعيد الطاقة توزعها، فهي تنتقل من مركزها في الأعضاء إلى جسم إنسان. أولئك الذين يطوفون في الغابات هم محطات تشع بقوة الحياة. حين يدخلون إلى أي غرفة، يملأ إشعاعهم المكان.

خلال بضعة أيام، لاحظت أول تحولات جسدي. تضخم ذراعي وقست عضلات ساقي. ولكن البطن ارتخى وابتضت بشرتي -من صفات مدمني الكحول والحيوانات التي تعيش في الوحل- خفت التوتر وتباطأ القلب. أنا القابع في حيز صغير، تعلمت أن أقوم بحركات بطيئة. الذهن نفسه يهدأ. بما أن الناسك محروم من المحادثات والمعارضات وتهكم المحاورين، فهو أقل مرحاً، وأقل حيوية، وأقل حدة، وأقل سرعة من ابن عمه القاطن في المدينة. إنه يكسب شعراً ما يخسره بالسرعة.

أحياناً تنتابني تلك الرغبة في ألا أفعل شيئاً. أجلس منذ ساعة إلى طاولتي أراقب دبيب أشعة الشمس فوق الغطاء. النور يضفي النبل على كل ما يلامسه، الحطب، حواف الكتب، مقبض السكين، قوس الوجه وقوس الزمن الذي يمضي، وحتى ذرة الغبار المعلقة في الهواء. ذرات الغبار هي ذات شأن في هذا العالم.

هأنذا منشغل بذرة الغبار. شهر مارس سيكون طويلاً.

## مارس الزمن

### الأول من مارس

عيد ميلاد والدي. أتخيّل عشاءهم هناك بالقرب من «غيز» (38). مثل كل عام، تجتمع العائلة في واحد من تلك الإصطبلات من القرن الثامن عشر الذي تحوّل إلى مطعم. الأقرباء البلجيكيون، البيرة، النبيذ، اللحم، والضوء المنسكب من القبب القرميدية. لا شك أنهم وصلوا تحت المطر ويتناولون العشاء الآن في الدفء. وضعت الموائد في المطعم تحت المعالف حيث كانت الدواب تلتقم. مئات الخيول كان من المفترض أن تكون في الدفء بين تلك الأوارى، تنام الآن في العراء في ليل مقاطعة آين. لا أحب الكنائس التي تتحوّل إلى مستودعات ذخيرة، ولا الإصطبلات التي تنقلب إلى قاعات للولائم. ملأت كأسى بخمسة سنتيلترات من الفودكا، رفعتة نحو الغرب وأفرغته.

هل كان والدي سيسعد هنا؟ تلك الطبيعة لا تستهويه، فهو يحب النقاش والمسرح والحوار. يتحرك في عالم الأخذ والردّ. في غابات سيبيريا، ما من محادثة ممكنة. بالطبع لا شيء يمنح الإنسان من أن يعبر عن نفسه فيها. بوسعه دائماً أن يصيح مثل الطحان في رواية الفنلندي أرتو باسيليئا، غير أن صيحاته لن تجدي نفعاً. في المنظور الطبيعي الإنسان التائر شيء غير مفيد. الفضيلة الوحيدة في مجال الغابات هي القبول. مثل القبول عند الرواقيين والحيوانات، وأكثر من ذلك، أن تكون كالحصاة! تقدم التايغا شيئين لا ثالث لهما: مواردنا التي لا نتوقف عن نبشها، ولامبالاتها. لنأخذ القمر على سبيل المثال، البارحة كان ساطعاً. كتبت في دفترى الصغير: القمر وحيد قرن يجرح بقرنه العاجيّ الليل الأفريقي الأسود. ترى كم هو غير مبالٍ بجوامع الكلام الشبيه بالتقرير هذا؟

هذا المساء، أنهيت قراءة رواية بوليسية. خرجت منها كأنني تعشيت في ماكدونالد، أشعر بالغثيان وبالخجل بعض الشيء. الكتاب يبلبل الأفكار، تنساه فور إغلاقه. أربعمائة صفحة كي نعرف ما إذا كان ماكدوغلاس قد قطعّ ماكفارلين بسكين الزبدة أم بوتد الجليد؟ الشخصيات خاضعة للأحداث القدرية. غزارة في التفاصيل لإخفاء الفراغ. هل سميت هذه الروايات «بوليسية» لأنها تشبه التقارير؟

عند منتصف الليل مشيت بضع خطوات فوق البحيرة. أتّى لي أن أستعيد ذاك الشعور الذي أحسسته أول مرة حين وصلت إلى تلك الضفاف الرمادية القاتمة منذ سبعة أعوام؟ كانت روعي قد تشظّت من السعادة. أين فرح المكان الذي يجعلني متيقظاً في لياليّ الأولى فوق رمل الضفاف؟ الراحة في الكوخ توهن الأحاسيس. الكثير من السهولة تغطي الروح بالسخام. خمسة عشر يوماً كانت كافية. أشعر أنني اعتدت على الأماكن. عمّا قليل سأعرف كل شجرة تنوب بدقة كما أعرف مقاهي حيي الباريسي. أن يشعر المرء بألفة المكان، فهذه بداية الموت.

المرحاض على مسافة مئة وعشرين خطوة من كوشي. حفرة في الأرض ومظلة واقية من

العوارض الخشبية الموصولة على نحو سيء. حين اتجهت إليها هذه الليلة، تذكرت حكاية «شجرة التفاح» للكاتب دافني دوموريه. في ليلة شديدة البرودة، تعلقُ قدم بطل الرواية في جذور الشجرة التي زرعتها في الماضي المرأة التي يكرهها. تخيلت نفسي ساقطاً على الطريق في درجة حرارة -٣٠°. كنت سأموت هنا على بعد خمسين متراً من الكوخ، أمام خيط الدخان المتسرب من السطح، يرافقه تقصف الجليد كصلاة جنازية. سوف أتوقف عن المقاومة وأستقبل بهدوء الصمت الجميل وأنا أقول لنفسِي: «مع ذلك، هذا غياب». أسفي على أولئك الناس الذين تاهوا وقضوا على بعد أمتار من ملجئهم!

النجدة هنا، عشر خطوات تكفيني، لكن باب الملجأ يبقى بعيد المنال. كان المُخرج الياباني كوروساوا قد صنع فيلماً عن هذا الموضوع. زمرة من متسلقي الجبال تتجمد في عاصفة ثلجية على بعد ثلاثين متراً من المخيم. وسكوتُ بطل القصة! ألا نذكر احتضاره وهو قريب أقل من عشرين كيلومتراً من مخزن مؤنه؟ أما سفين هيدين (39) فقد عاش المغامرة بشكل معاكس في تاكلاماكان، إذ ظن نفسه تائهاً ويتهيأ للموت حين وصل بغتة إلى الواحة.

٢ مارس

على بعد ثمانمائة متر من الكوخ هناك تلّ غرانيطي يشقّ بطن الغابة، تكمل قمته ست أشجار صنوبر تمنحه شكل الكوز. يطل المخروط على البحيرة عند ارتفاع مئة متر. آثار القَطِّ البرِّي ترقُّط المنحدر المجاور المؤدي إلى سفح القبة. تسلقته بمشقة. كان الثلج قد غطّى الأرض الحجرية. غصت حتى فخذِي، وأحياناً كانت تغور قدمي داخل حفرة بين كتل الحجارة. بحيرة البايكال من القمة سهل مخطط بالعروق العاجية. صمت الغابات يغطي العالم وصدى هذا الصمت قديم عمره ملايين السنين. سأعود إلى هنا. سيكون «كوز الصنوبر» منصتي في الأيام التي أحتاج فيها إلى المرتفعات.

جاء لزيارتي ساشا ويوري الصيادان اللذان التقيتهما عند سيرجيه منذ خمسة عشر يوماً. قدمت لهما الأقداح التقليدية. في الحياة، حين تشارك كأساً مع نديم وتعرف أنك في أمان البيت، هذا ليس بالشيء القليل. تضطرم النار في المدفأة، يدبّ الخدر فينا. يبيضّ الجبين فوق الحاجبين، وهذا من علامات راحة الجسد. تنزل الفودكا إلى البطن. يطفو الذهن، ويشعر الجسم بالرضا. دخناً فازداد الهواء ثخانة، وصارت الكلمات أندر. لطالما كان التواصل مع رجال الغابة الروس يمدني بالطمأنينة الناجمة عن الشعور بأنني عثرت على البيئة الإنسانية التي وددت أن أولد فيها. كم هو جميل ألا يكون عليك أن تخلق حديثاً. ألهذا السبب أجد صعوبة في العيش في المجتمع؟ من هذا الإلزام في العثور دوماً على شيء تقوله. أفكر بتلك الأيام التي كنت أجول فيها في باريس وأنا أكرّر بعصبية عبارات: «أنا بخير» و«لنلتق في أقرب وقت» لأناس غربيي الأطوار، لا أعرفهم، وهم يرددون الأسطوانة نفسها كأنهم خائفون.

- لست برداناً؟ سأل ساشا بعد قليل.

- أنا بخير، قلت.

- الثلج؟

- كثير!

- أناس؟

- أول أمس.

- سيرجيه؟

- لا، يورا أوزوف.

- يورا أوزوف؟

- نعم، يورا أوزوف.

- آه، يورا ذاك...

- نعم، هو.

نقرأ هذا النوع من الحوارات في كتاب «نشيد العالم» لجان جيونو(40). في بداية الرواية، رجل النهر أنطونيو يتوجه بالكلام إلى رجل الغابة ماتلو:

- إنها الحياة، يقول أنطونيو.

- بل إنها الغابة، يقول ماتلو.

- هذا ما أحب، يقول أنطونيو.

بقدر ما نقل الكلام نعيش أفضل»، يقول يوري. لا أعرف السبب، ولكن تذكرت فجأة جان فرانسوا كوبيه(41). يجب أن يقول له أحد ما إنه في خطر.

ترك لي ساشا عبوة بيرة سعتها خمسة لترات. في السهرة أفرغت ليتين على مهل. البيرة أو المنوم، كحول الفقراء. شراب مسكّن يخدر الفكر ويذيب كل فكرة ثورية. بقاذفات البيرة، تطفئ الدول الشمولية الحرائق الاجتماعية. كان نيتشة يكره هذا العصير ذا اللون البولّي لأنه يغذي الذهن بالبلادة.

كتبت بالعصا على الثلج:

نمضي في هذا العالم، كلُّ بدوره، ضربات ريشة أو الريشة نفسها.

٣ مارس

تذكرت رحلاتي التي قمت بها. سيراً على الأقدام في الهملايا، فوق صهوة الحصان في الجبال السماوية(42)، وعلى الدراجة الهوائية منذ ثلاث سنوات في صحراء استجورت(43). تذكرت ذاك الفرحة آنذاك حين كنت أعبر ممراً جبلياً، وسعار الوحوش عندما أقطع المسافات، ورغبتني الجامعة

في المضيّ قدماً. أحياناً كنت أمشي كالممسوس، أسير حتى يصيبني الإنهاك والذهيان. في جوبي (44). كنت أتوقف كي أفضي الليل في آخر موطئ لخطواتي متهاكاً فوق نفسي، ثم أعاود المسير في اليوم التالي بمجرد أن أفتح عيني، وبشكل آلي. كنت حينها أقوم بدور الذئب، الآن أقوم بدور الدب. أريد أن أمدّ لي جذوراً، أن أكون من التراب بعد أن كنت من الريح. كان هوس الحركة يفيدني، وأدمنت على المسافات، أجري وراء الزمن. كنت أظنه يختبئ في أعماق الأفق. «بالكثير من الحركة نحاول التعويض عن تسارع الزمن في مضيّه». (مونتيني، مقالات، الكتاب الثالث)، هكذا كنت أتكيّف مع هروبه.

الإنسان الحرّ يمتلك الزمن. الإنسان الذي يسيطر على المكان هو قوي فحسب. في المدينة، تهرب منا الدقائق والساعات والسنوات، تنساب من جرح الزمان المكلموم. في الكوخ، يستكين الزمن، يستلقي عند قدميك مثل كلب أنيس، وبعد وقت قصير تنسى أنه هنا. أنا حرّ لأن أيامي حرّة.

مثل كل صباح بعد أن تنتشر المدفأة حرارتها، أتجه إلى فتحة في الماء حفرتها على مسافة ثلاثين متراً من الضفة. خلال الليل، تستعيد طبقة الجليد تصلبها ويجدر بي كسرها كي أصطاد. مكثت هناك واقفاً لبرهة أنظر إلى التايغا. فجأة برزت عبر الفتحة يد بيضاء تريد الإمساك بكاحلي، (تلك المياه ابتلعت الكثير من العرقى). كان التخيّل سريعاً، قمت بحركة إلى الوراء وألقيت كسّارة الثلج من يدي. انقبض قلبي. المياه النائمة مخيفة. ينبعث من البحيرات جوّ مشؤوم، فالأرواح تطوف في وحل مغلق تقلّب مواجعها. البحيرات أقبية، تطلق الوحول فيها رائحة سامّة وتظهر للنباتات انعكاسات داكنة. على عكس البحر، حيث انحسار الأمواج السريع والأشعة فوق البنفسجية والملح يذيبون كل غموض والغلبة فيه للنور. ماذا حدث في هذا الخليج؟ هل كان حادث غرق؟ تصفية حساب؟ ليس في نيتي أن أسكن بجوار روح معذّبة، لدي ما يكفي من عذاب لروحي. عدت إلى كوشي الدافئ ومعني الدولان في يدي. عبر النافذة، رأيت الفتحة في الجليد تشكّل بقعة سوداء في الغطاء الرصاصي الداكن. ثقب إبرة مخيف يصل بين العالمين.

بعد ظهر كل يوم أنتعل حذائي الشبكي العريض. أسير لمدة ساعة ونصف في الغابة حتى أصل إلى الحدود العليا للأشجار.

أحب الدخول إلى الغابة. وراء التخوم تخفّ حدة الأصوات. حين أدخل تحت قبة كنيسة قوطية في فرنسا أو في بلجيكا، أحس بالخدر نفسه. إحساس لطيف في أعماقي يثقل جفني وينشر دفأه وراء العظم الجبهي. يعتمل شيء ما في داخلي بفعل إشعاع الحجر الكلسي مثلما يفعل بي إشعاع الراتنج. في الوقت الحاضر، أنا أفضل الغابات بأروقتها الصخرية.

الثلج تحت الأشجار ثخين ولم تجرفه الرياح. رغم حذائي الشبكي العريض، كنت أغوص. القطط البرية، الذئاب، الثعالب، حيوانات القيزون، كلها تتجول ليلاً. يمكن قراءة المأساة البرية في الآثار. بعضها ملطّخ بالدم، إنه كلام الغابة. الحيوانات لا تغوص، سطوح قوائمها تتناسب مع حجمها. الإنسان أثقل جداً من أن يسير على الثلج. كنت أسمع أحياناً صيحات طيور أبو زريق، ما عدا ذلك، الصمت. كانت تطلق صيحاتها من قمم أشجار التنوب، حرّاس من ريش فوق المسلات يصيحون

لأنني دخلت أرضهم. لا أحد يطلب من الحيوانات الإذن بالدخول إلى بيتها.

تندلّى الطحالب عن الأشجار. قرأت حكاية منذ زمن طويل يتخيّل فيها المؤلف إليها أجوب الغابة تحت الأشجار، يعلق معطفه على أغصانها وتغدو مزقه طحالب.

أشجار الصنوبر حزينة، تبدو كأنها تشعر بالبرد. بعد ساعة من الصعود، يشير مقياس الارتفاع إلى ٧٥٠ متراً. بمزيد من الجهد سأتجاوز الـ٩٠٠ متر وتستسلم الغابة لي. في الأعلى كانت العواصف قد سحبت الثلوج وتركت سطحاً قاسياً. الحذاء الشبكي يتكّمش جيداً. صعّدت بسرعة واخترت النزول عن طريق أحد الوديان الضيقة. بعض أشجار الأرز صامدة ما وراء حدود الغابة، نبتت منفردة هناك تبرز أغصانها المعوّجة أمام خلفية البحيرة اللازوردية المبرقشة بالكسور. الأغصان بلون الذهب، البحيرة زرقاء، كسور الجليد بيضاء: لوحة بألوان أوكوساي(45).

أحياناً كانت تميد الأرض تحت قدمي، ينهار الثلج المتجمع فوق غيضة من شجيرات الصنوبر تحت ثقلي. سقطت في شبكة من الغصون، وانحشر حذائي في تشابكاتها. شتمت داخل الحفرة. في «حكايات كولياما» يتذكّر فارلام شالاموف السجين في غولاغ سيبيريا أشجار الصنوبر القزمية التي كانت تحيط بالمعتقل. حين ترتفع الحرارة في شهر أيار ويصبح الجو دافئاً، كانت الأشجار تتحرّر من طبقة الثلج وتتنصب معلنة قدوم الربيع، أي الأمل.

على ارتفاع ١٠٠٠ متر، تسلقّت باتجاه الحروف الصخرية المحيطة بمجرى الوادي. كانت مسننات القمم الغرانيتية تبرز ومن ورائها البحيرة. يعيش بعض أصدقائي من أجل ذلك فقط، بلوغ الارتفاعات ليخزّ الهواء أنوفهم ويقفوا معلّقين ما بين السماء والأرض في مملكة أشكالها تجريدية لا رائحة لها. حين يعاودون النزول إلى الوديان، تبدو لهم الحياة ننتنة. متسلقو الجبال، هم في المدينة أناس تعساء.

بين قطع الحجارة الطافية من تحت الثلج أوقدت النار وغليت الشاي. النار وأنا نطلق الدخان، جنباً إلى جنب. كنا نقدّم تلافيف دخاننا للبحيرة العجوز. خلال تلك الأيام هناك في الأعلى، تفرغت لجدل الحياة المحض. أسحب الدخان من لفافتي، وحيداً أمام البحيرة، لا ألحق الأذية بشيء، لا أخضع لأحكام أي شخص، لا رغبة لي إلا بما أشعر، وأنا مدرك أن الطبيعة لا ترفضني. في الحياة يلزم ثلاثة مكونات: الشمس، المنظر الجميل، وأثار حمض اللبن في الساقين تذكرنا بالتعب. وسجائر مونيكريستو الصغيرة أيضاً. السعادة عابرة مثل نفخة السيكار.

الحرارة -٣٠°. الطقس بارد جداً للتأمل. اخترت ممراً كي أتزلق عليه نزولاً. تمسكت بشجيرات الدردار الصغيرة وبأغصان القرانيا. وصلت إلى غابة الصنوبر والبتولا، وغصت في الثلج الهاجع لأعود منه إلى الضفة في غضون ساعة. إذا اتجهت ناحية الرأس، فبتقديري سأصل الضفة الرملية ليس بعيداً عن الكوخ. حين لمحته شعرت بالسرور. استقبلني، وهأنذا أدخل إلى بيتي. أغلقت الباب وأوقدت المدفأة. في شهر أيار سأعود للتسلق حتى القمم في منطقتي. عبارة هيبيريون(46) الملهمة: «لا تدع اللامحدود يسحقك، وتعلم أن تنكفي في أصغر حيز، هناك يسكن الإله». بالمحصلة، بعد النزهة، وبعد أن امتلأت روعي من عظمة البحيرة، فكرت في إلقاء نظرة

خاطفة على الصغار ممن هم في خدمة الجمال: ندفة الثلج، والطحلب، وطائر القرقف.

٤ مارس

مداعبة الشمس عبر زجاج النافذة تقارب متعة مداعبة يد الحبيبة. حين ننزل في غابة، وحدها الشمس نحتل طفلها.

لبداية النهار بداية حسنة، يجب القيام بالواجبات أولاً. بالترتيب: إلقاء التحية على الشمس، ثم على البحيرة، ثم على شجرة الأرز الصغيرة النابتة أمام الكوخ والتي يعلّق عليها القمر فانوسه كل مساء.

أعيش هنا في مملكة التوقع. يمضي كل يوم مرآة للأمس وصورة عن اليوم الذي يليه. تتلاعب الساعات على اختلافها بتلاوين السماء، وبرواح ومجيء العصافير، وبألف تفصيل صغير بالكاد محسوس. حين يتوقف عالم البشر عن إرسال إشاراتهم، يصبح أي لون جديد على أوراق الأرز الزاغية، وانعكاس النور فوق الثلج، أحداثاً بالغة الأهمية. لن أحتقر بعد اليوم أولئك الذين يتحدثون عن المطر والطقس الجميل. كل اهتمام بعلماء الأرصاد الجوية له بعد كوني. الموضوع ليس أقل عمقاً من نقاش حول تسلل مساعدات إلى الدولة الإسلامية في باكستان عن طريق السلفيين.

الأمر الطارئة للمعتزل هي أفكاره. وحدها تقطع مجرى الساعات المتشابهة. عليه أن يحلم كي يندهش.

تذكرت يوم كنت على متن السفينة-المدرسة «جان» التابعة للبحرية الفرنسية منذ عامين. كنا قادمين عبر قناة السويس ونسير الهويني في البحر الأبيض المتوسط، تمر الجزر والرؤوس أمامنا. فوق شرفة القيادة، كان الضباط ينظرون إلى عبورها، الصمت يخيم وكل واحد منا يحتفي ضمناً بما يلوح من السواحل. اليوم وعبر النافذة، ألقى النظرة نفسها التي ألقيتها في الماضي البعيد عبر نوافذ السفينة، أراقب الظلال وارتعاشات الضوء وليس تحولات الشيطان. فوق جسر السفينة كنا نطلب من تلك الأماكن العابرة أمامنا أن تشبعنا بالدهشة. في الكوخ، الأشياء الصغيرة المبالغية التي يلقينا لنا الزمن كافية. أبحر ساكناً في مكاني. لو سألت: «ماذا كنت تفعل خلال تلك الأشهر؟» لأجبت: «كنت في رحلة بحرية».

الإحساس بمرور الزمن داخل الكوخ وخارجه ليس نفسه. في الداخل، الساعات تنساب كالمعطف الدافئ. في الخارج والحرارة -٣٠°، كل ثانية بمثابة صفة. فوق الجليد، الساعات تزحف، البرد يبطئ المدّ. عتبة بابي ليست بالنتيجة لوحاً خشبياً يفصل الدفء عن البرد، والرفاهية عن الخسونة، إنما صمّام خانق يلحم كرّتي ساعة رملية، الوقت فيهما لا يسير بالسرعة نفسها.

لا يُبنى الكوخ السيبيري بمعايير سكان العالم المتحضّر. هنا لا يوجد ضرورات أمنية ولا مساعدات ولا تأمين. لدى الروس مبدأ، وهو عدم اتخاذ أي احتياطات. في حيز تسعة أمتار مربعة، يتحرك الجسم بين المدفأة الموقدة والمنشار المتدلي والخناجر والبلطات المغروسة في الدعائم الخشبية. لو كانت هذه الأكواخ في أوروبا التي تتخذ التدابير الوقائية، لدكّت على مستوى الأرض.

تفرّغت بعد الظهر لنشر جذع من الأرز. إنه عمل شاق. الخشب قاس وأسنان المنشار المعدنية

بالكاد تقرضه. ألقى نظرة خاطفة على الجنوب لألتقط أنفاسي. المنظر ساكن، رائع، جميل التكوين. الخلجان مستديرة، السحب في السماء صفراء، أشجار الصنوبر تبدو كالأزاميل، طيات الغرانيت مهيبية. يقع الكوخ في مركز التانكا كأنه من عوالم الإنسان البدائي، قريب من البحيرات والجبال والغابات، يرمز بكل وقار إلى الموت، العودة الأبدية إلى النقاء الإلهي.

الأرز ناعم على الرغم من أن عمره مئتا عام دون شك. ما يفقده الكائن الحيّ هنا من وفرة يكسبه بالكثافة. لا تتفجّر الأشجار بغزير الأوراق لكن أجسادها صلبة كالرخام.

وقفة أخرى. في العام الماضي زرت مراكز تحطيب عند سفوح وادي سامارغا في الشرق الأقصى من روسيا. موسكو تبيع غابات التايغا للصينيين. مناشر الحطب تمزّق الصمت عند التخوم. يقسّم الرجال الصفر الغابة إلى أجزاء ويقطّعون الجذوع بمهارة الحشرات الآكلة للخشب. سيكون لبعض تلك الأشجار مصير غريب. أشجار الأرز تلك التي نمت على خط قمة الوادي البرّي، وبقيت صامدة لمئة أو مئة وخمسين شتاء سيبيرياً، ستجد نفسها مقطعة إلى عصيّ صغيرة مخصصة للزج في معجنات الحساء، ثم في بلعوم عامل من شنغهاي يُستخدم لبناء مركز تجاري للمغتربين. الأزمنة قاسية على الأشجار. قال لي سيرجيه: «هناك في الأعلى، وراء القمم الصخرية التي تحفّ بالبايكال، في أسفل محمية «لينا»، بدأ الخطابون عملهم منذ مدة».

الروس فخورون بكمال بلادهم ولا يعيرون بالأ لهذا التقطيع المنظم. الغطرسه تملأهم بالوهم بأنهم قادرون على إعادة تشجير بلاد لا حدود لها، لذلك يتخيلون أن طبيعتهم لا تنضب. يصبح المرء من أنصار البيئة في خليط المراعي السويسرية أسرع من الموت قلقاً في مساحات روسيا الشاسعة. قطعت أيضاً شجرة سندرة ميتة، سأستخدم اللحاء لإشعال النار. قشرة الشجرة مخططة بالحزوز، لعلّ روحاً من الغابة كانت حريصة على عدّ الأيام؟

حين عدت، كانت ندف الثلج الكبيرة تغطي أشواك الجذامير والجذور النابتة على جانب المنحدر.

٥ مارس

غزوة جديدة على المملكة العليا. بحثت عن الشلال الذي دلّني عليه سيرجيه: «مسير ساعة ونصف، وارتفاع نحو ١٠٠٠ متر». رحلت أطوف بحذائي الشبكي في القوس الواقع عند مستوى الأرض الحجرية، فوق شريط أشجار الأرز. عند قمة أحد وديان المنحدر على علو ٩٠٠ متر، عثرت على الشلال. ينبع مسرب الجليد من داخل تجويف في قمة جدار صخر بركاني، ويتدفق في الفراغ ليغطي الصخرة السوداء بحبات اللؤلؤ.

ما من طير يغني. الشتاء جمّد الحياة. العالم ينتظر أن يستيقظ. الثلج، الشلال، السحب، الصمت نفسه، في ترقب. في يوم من الأيام ستعود الأشياء إلى دورتها. سوف تنزل الحرارة من السماء وينفخ الربيع بفيضه في أنسجة الطبيعة. ستخفق شرايين الحيوانات بدماء جديدة، ويمتلئ قعر الوديان بالماء، وينبض نسغ الأشجار. ستشقّ الأوراق طريقها عبر البراعم، وتهمس الثلوج شوقها للعودة إلى البحيرة، وتفقس اليرقات، وتخرج الحشرات من الأرض. سيل عظيم سيغطي المنحدرات.

ستجري الحياة تحت السفوح، وتنزل الحيوانات لتشرب، وتزحف غيوم الصيف نحو الشمال. أما الآن فأنا وحيد أصارع الثلج المتساقط لأعود إلى بيتي.

تزلج على الجليد في المساء لمدة ساعة فوق طبقة كالراتنج المصقول. المشاهد التي تعبر أمام عيني، صفائح من زجاج بركاني أسود تتخللها خطوط زرقاء قاتمة، منظر يصلح لإعلان عطر من الثمانينات.

فوق الجليد، جزيرة صغيرة من الثلج عفت عنها الرياح. ذهبت إليها في سبيل تدخين سيكاري الصغير. قطعة الباكال ترتد إلى داخل عظامي. كم يطيب العيش بالقرب من بحيرة، فهي تقدم لك مشهداً متناظراً، الضفاف وانعكاساتها، ودرساً في التوازن (المعادلة بين ما تجرّفه الروافد وبين تدفق المياه من المنافذ). للحفاظ على مستويات المياه، يجب أن يكون هناك دقة عجائبية. كل قطرة مسكوبة في رصيد الحوض يجب أن يعاد توزيعها.

العيش في كوخ هو أن تملك الوقت للاهتمام بأشياء كهذه، والوقت لتكتبها، ولتعيد قراءتها. وبعد أن تنتهي من كل ذلك، يبقى المزيد من الوقت. على النافذة هذا المساء، طائر القرقف، ملاكي.

٦ مارس

مكثت في السرير هذا الصباح. من فتحة اللحاف الدافئ وعبر النافذة، شاهدت الدَّرَاقَة العملاقة ترتفع فوق جبال بورياتيا. ذات يوم ستكتشف لنا الشمس من أين تجد القوة للنهوض في الصباح.

رياح قوية عاصفة تدفع بتيار جليدي من تحت الباب. هل الناسك منعزل؟ ولكن عن ماذا؟ الهواء يتسرب من خلال دعائم الخشب، الشمس تغمر الطاولة، المياه تمتد على بعد رمية حجر، الدبال هنا تحت ألواح الخشب، رائحة الغابة تجد لها مدخلاً عبر الشقوق، الثلج يرشح من مسامات الكوخ، حشرة تطفلت وجاءت فوق الأرضية الخشبية. في المدينة، ثمة طبقة من القطران تقي من أي احتكاك مع الأرض، وتقف بين البشر جدران من الحجر.

البحيرة تطلق على نحو مخيف. أمام كوب الشاي، فتحت كتابي «عالم شوبنهاور» (47)» ذا الغلاف البرتقالي. كان يتصدر طاولتي في باريس دون أن أجرؤ على فتحه. ثمة كتب نحوم حولها. في الحقيقة، انسحبت إلى الغابات لأفعل أخيراً ما أخافني على الدوام. في الفصل ٣٩ الذي يتحدث فيه عن «الدلالة العميقة للموسيقا»، أقرأ هذه السطور: «النغمات الخفيضة تردّ على نغمات الطبقة الدنيا، أي على الأجسام اللاعضوية، والتي تتمتع ببعض الخصائص. النغمات ذات الطبقة العالية تمثل لنا النباتات والحيوانات. { ... } يجب أن نعتبر كل الأجسام وكل الكائنات نتاج درجات تطور كتلة الكوكب المختلفة، والكوكب حاملها وأصلها في الوقت نفسه، إنها العلاقة ذاتها، الموجودة بين صوت الجهير الأساسي والنغمات العالية». حين تعزف البحيرة مقطوعتها وتبعث قطعة ودويّاً، هذا ما يحدث: تصدر موسيقا عمّا هو لعضوي ولامتمايز، لحن باطنيّ، سيمفونية العالم في بداياته. ما لا نعرف له اسماً، يبقيق، وعلى صوت الجهير المستمر لهذه الاختلاجات، تحاول ندفة الثلج أو

طائر القرقف عزف لحن خفيف.

انخفضت درجة الحرارة فجأة. قطعت الحطب في حرارة بلغت -٣٥°، وحين عدت إلى الكوخ، منحني الدفء شعوراً فائق الترف. بعد البرد القارس، صوت سداة الفودكا تقفز بالقرب من المدفأة يثير إلى حد كبير البهجة أكثر من الإقامة في قصر على ضفة القناة الكبرى في البندقية. كوخ بمصاف القصور! لن يفهم المعتادون على الأجنحة الملكية ذلك أبداً. لم يعرفوا خدر الأنامل من البرد قبل الحمام الرغوي. الترف ليس حالة، إنما هو عبور خط، عتبة، حيث يختفي فجأة كل ألم.

منتصف النهار، الطقس عاصف جداً، لكنني خرجت. ذهبت سيراً إلى جزيرة أوشكاني، على بعد مسافة ١٣٠ كيلومتراً من الكوخ. منحت نفسي ثلاثة أيام للوصول إلى كوخ سيرجيه، يوماً لبلوغ الجزيرة، يوماً للإقامة فيها، ويوماً ثالثاً للعودة إلى اليايسة، وثلاثة أيام للعودة إلى بيتي. أخرجت زلاجة أطفال صغيرة، وضعت عليها كيس ملايسي، المؤمن، حذاء التزلج على الجليد، كتاب «أحلام اليقظة» لجان جاك روسو، ويوميات يونغر الذي بدأت قراءته في أمس. فيلسوف إنساني وعالم حشرات بروسي، يا لها من صحبة كريمة!

عبرت فوضى الكتل الجليدية. كان الثلج قد وضع طبقة بيضاء قشدية فوق الرقائق الزرقاء. مشيت في قالب حلوى إله قطبي. أحياناً كانت الشمس تضيء نتوءات قطع الجليد فتبدو كالنجوم المتلألئة في عز النهار. فوق الأقسام المحاصرة، كان تقصّف الكتلة الزجاجية يجري وفق مخطط متكرر، رسم شجراني بزوايا مكسّرة. تتفرع خطوط التصدّع على شكل الأشجار الوراثية، أو مثل سيقان بعض النباتات. هل يتطابق هذا مع تركيبية رياضيات، أم مع كتابة تحددها قوانين الكون؟ للماء ذاكرة، هل للجليد ذكاء (ذكاء بارد بالطبع)؟

مشيت ست ساعات. عند منعطف أحد الرؤوس، ظهرت قرية زافاروتنو. بضعة منازل خشبية تهجع داخل الخليج. واحد منها فقط يأتيه مفتش غابة، اسمه في. إي، مرة في السنة. المكان عبارة عن أرض محصورة داخل محمية طولها عشرون كيلومتراً وعرضها عشرة، منطقة حرّة ينصرف فيها الروس إلى نشاطاتهم المفضلة، أي القيام بأشياء تافهة. القرية عبارة عن قاعدة خلفية لفرق العمال الذين كانوا يستثمرون منجم دقائق الكوارتز الواقع في الجبل على ارتفاع ١٠٠٠ متر. تستخدم دقائق الكوارتز في صناعة ألماس الهواتف الإلكترونية وعقارب بعض النواصات. يعود السبب في معلوماتي المدهشة هذه لفي. إي الذي استقبلني في كوخه. كان مطبخه شبيهاً بزريبة للخنازير. ثمة طبقة من الدهون تلمع فوق الجدران. الأرضية خطيرة أيضاً، يمكن للمرء أن يتزحلق فوق أحشاء السمك ويقلب إحدى الطناجر التي يبقبق فيها دهن الفقمة المخصص للكلاب، أسياد هذا المكان. بقي في. إي لزمناً طويلاً رئيساً لمحطة الأرصاد الجوية التي تقع على بعد مسافة أربعين كيلومتراً نحو الجنوب. قبل ذلك، كان يدمن الكحول. توقف عن الشرب بسبب اعتلال في عضلة القلب. اليوم هو بصحة جيدة، لكنه فقد أسنانه كلها.

أراني قطعة من المصهور البركاني، هدية من الجيولوجيين.

- هذه من أقدم معادن العالم، قال لي.

- ما عمرها؟ قلت.

- أربعة مليار سنة. أضعها تحت وسادتي كي تلهم أحلامي.

- وماذا حصل؟

- لا شيء حتى الآن.

ثم أضاف:

- هل أنت جائع؟

- نعم.

- هل تحب السمك؟

- نعم، بكل سرور.

منظر في إي منهمكاً في هرس سمكة مجمدة بالمطرقة فوق مائدة المطبخ التي لم تنظف قط منذ نهاية الاتحاد السوفييتي مبهج جداً. الروس لا يراعون طرائق الطبخ أبداً، لكن السمك لذيذ جداً.

- هل كان هناك أحداث في العالم في الأسابيع الثلاثة الماضية؟

- لا، كل شيء هادئ، المتطرفون الإسلاميون في سبات شتوي.

٧ مارس

A day in ice، نظري معلق على نقوش معطفي. الصدوع والشقوق تنسج في الجسم الجليدي شبكة كهربائية ينتشر فيها التيار بعصبية. ترسم الخطوط، تتلاقى، تتباعد. امتص الجليد طاقة الصدمات ووزعها على امتداد الحزم العصبية. ضربات المهدة تحرق الصمت قادمة من انفجار بعيد عشرات الكيلومترات، وتتفرغ الأصوات عبر شبكات التعرقات هذه. تنحرف أشعة الشمس عند خطوط الالتحام وتضيء عقد الخيوط. يوهج الضوء الشرايين اللازوردية فيتولد عنها زيول ذهبية. الجليد يتشنج. إنه حي، وأنا أحبه. ترسم الخطوط الأفعوانية اللؤلؤية عُقداً شبيهة بصور الأنسجة العصبية، أو بصور حقول غبار النجوم. خريطة هذا الخليط شبيهة بالإبداع الهلوسي(48). دون مخدرات ودون خمر، كان عقلي يلمح مشاهد وهمية. يتركنا العالم نقرأ بين سطوره كتابة مجهولة. تتعاقب الأشكال كأنها ولدت من دخان الأفيون، حتى إن الطبيعة لا تترك لنا العزاء كي نطبع تلك الصور البديعة على شاشة نفوسنا.

سوف يختفي هذا العمل الفني في شهر مايو عندما تبتلعه المياه. جليد البايكال ماندالا(49). رسمها مريض ستمحوها الحرارة والرياح.

على بعد مسافة عشرين كيلومتراً من قرية زافاروتنو، أمضيت الليلة في كوخ بولشوي سولونتسوفي، وهو ملجأ في حالة بئسة يستخدم للتوقف والاستراحة لحرس غابات المحمية. منذ

ثلاث سنوات أمضيت فيه يومين مع مكسيم، وهو من أصحاب السوابق. كانت السلطات قد منحته فرصة ثانية وعيَّنته مفتشاً. كان يشعر بالسأم في كوخه. لمكسيم وجه متوحش وابتسامة عذبة. لم تكن حياته ممتعة. كان هناك دبّ يحوم لعدة أيام في الفسحة الخالية من الأشجار يمنعه من المغادرة. «انتهى بي المطاف إلى التبول في إبريق الشاي». اشتكى لي. لم يشأ رؤسائه المخاطرة بآثمان مدمن مخدرات قديم على بندقية كان قد خرج حديثاً من سجون إيركوتسك. في إحدى الأمسيات، جاء الدب وحدق فينا من الباب. «اللعنة، ابن العاهرة، في زنزانتني كنت في مأمن أكثر». زمجر مكسيم.

في تلك الأثناء، قُتل الدب ووقع مكسيم ثانية ليقضي عقوبة جديدة، وأصبح كوخ بولشوي سولونتسوفي خالياً من جديد.

لعبت الشطرنج مقابل نفسي، كان آخر نور من أنوار النهار يعبر زجاج النافذة ويتقافز فوق نصل السكين. على الرغم من الحملة البطولية للبيادق السود، خسر البيض. فوق الدعائم الخشبية صور فتيات شقراوات، عاريات وناعمات البشرة بصدور متينة، يقفن في وضعيات فيها شيء من المبالغة، وضعيات لا تغري بالحديث. بدأ نظري يتشوش وطغى سواد الليل.

٨ مارس

On the ice . وصلتُ بعد الظهر إلى محطة سولنيشنايا للأرصاد الجوية. فوق أرض مستوية قطعت أشجارها في زمن الاتحاد الزائل، برزت قرية جميلة. اليوم تؤوي بقايا القرية شخصين: أناتولي المفتش، ولينا زوجته السابقة. انفصلا مؤخراً ويعيشان في كوخين متجاورين، مثل كلبين من خرف (50). في آخر العالم. يصعب الوصول إلى المحطة بسبب فوضى أكوام الطافيات الجليدية. طرقت باب أناتولي. ما من جواب. دفعت الباب. كان نور الشمس يغمر الغرفة. وجدت معلبات أطعمة محفوظة على الأرض، قناني فارغة تحت الطاولة، وجثة على الأريكة. نسيت أننا في الثامن من مارس، «يوم المرأة» في روسيا. كان أناتولي قد احتفل بالحدث. سوف تحكي لي لينا لاحقاً كيف كان يطرق بابها طوال الليل وهو يصيح: «سوف تفتحين!» الرجل الشهم لا يمكن أن يفوت الاحتفال بعيد المرأة.

أيقظته. كانت تفوح منه رائحة الفورمول والأثير والملفوف. وقف وسقط. كي يحتفظ بماء

الوجه، قال لي:

- إنه الروماتيزم. يسبب لي آلاماً فظيعة.

- نعم، الطقس رطب، قلت.

أمضى أناتولي فترة بعد الظهر يطوف فوق الضفة. مراكز الأرصاد الجوية هذه عبارة عن منصات إطلاق نحو مشافي الأمراض النفسية. منذ زمن ستالين، تشكل هذه المرصد شبكة في الإقليم، من بيلاروسيا حتى كامتشاتكا. كان توزيع المحطات على هذا الشكل طريقة لملء الفراغ بهدف تعيين مواطنين عند أطراف البلاد قادرين على تحذير موسكو من أي إنزال فاشي أو أي حركة احتجاج. في القرى المحصنة بطريقة مماثلة بأجهزة الاحتياطات الأمنية، يعيش موظفو

الأرصاء الجوية إما أزواجاً أو جماعات من أربعة أو خمسة أشخاص. يخرجون كل ثلاث ساعات لتسجيل المعطيات التي ينقلها جهاز استقبال لاسلكي إلى قواعدهم. الوقت ليس ملكهم. الإيقاع المفروض عليهم يوقعهم في التشوش الذهني. تتحول أكواعهم وراء الأبواب المغلقة إلى مسرح من الفوضى. يشربون فيها، يمزقون بعضهم البعض، وتنمو الأمراض النفسية. أحياناً يختفي أحدهم ليقطع حبل الأيام. في مركز إحدى الجزر على بحر لايتيف، عُثر على حذاء اللباد لأحد علماء الأرصاد الجوية، واستنتجوا أن الدببة البيض لا تستطيع أن تهضم الصوف. هنا في سولنشنايا، منذ بضع عشرات من السنين، كان هناك رئيس لإحدى المحطات مكروه من رجاله، تبخر في الغابات في ليلة شتاء، والإدارة تغاضت عن القضية.

تركت أناتولي وحده لأن لينا دعنتي لشرب الشاي. وجه لينا جميل، فهي تشبه بائعة سمك فلانكية بعينيها الزرقاوين الضيقتين وأنفها المدبب. كان أمامنا ثلاث ساعات فتحت لينا لي قلبها بينما كان الشاي يطلق أبخرته. كانت قد وصلت إلى المحطة وهي في السادسة عشرة. لم تكن لتغادر المكان في سبيل أي شيء في العالم:

- لا أحب الإسفلت، الزفت يؤلم قدمي في المدينة، والمال يتبخر هناك.

- وماذا عن مهنتك؟

- أنا أحبها، باستثناء الحيوانات البرية. تقع أجهزة المعلومات على مسافة مئة وخمسين متراً من البيت، وفي الليل، أجد المسافة طويلة جداً، حينها أركض بسرعة. ولكن لا أستكي.

- لماذا؟

- لأن هناك محطات، تقع أجهزتها على بعد كيلومتر من الكوخ!

- ألم تتعرضي لأي هجوم؟

- بلى، الذئب.

- متى؟

- رأيت الذئب هنا للمرة الثانية في السادس من يونيو. كنت ذاهبة إلى الأرض في الساعة الثامنة فرأيت الأبقار تعود راکضة. ظننت أن الثور هو من كان يخيفها. أكملت طريقي، وفي البعيد ظننت أن كلبنا زاريك هناك. التفت فرأيت زاريك ورائي. كان ذئباً حقيقياً إذاً. جريت باتجاه الذئب وبيدي حجر كبير. اقترب مني ورأيت أسنانه فرميته بالحجارة. لعل الأبقار شعرت بالخجل، لذلك استدارت وعادت باتجاهي!

- عادت الأبقار!

- والثور أيضاً. بدأ الذئب حينها يتراجع مكشراً عن أنيابه كأنه يدعوني لأتبعه. تبعته وأنا ألقى عليه الحجارة، استعدت شجاعتني بعد أن صار ورائي قطيع كامل!

- أبقار شجاعة.

- نعم، ولكن في إحدى السنوات كان هناك خسائر.

- بسبب الذئاب أيضاً؟

- لا، الدببة.

- الدببة؟

- سمعت الكلاب تعوي كما لم تفعل من قبل. سارعت لأرى ماذا يجري في الخارج. في وقت لاحق، قالت لي الفتيات إنني مجنونة لأنني خرجت بمفردي. لو كان الدب هناك، كان سيقتلني. خرجت ورأيت الثور ملقى على الأرض ينازع. كانت قوائمه مكسورة وخطمه مخدوشاً، وانتزع جزء كبير من عموده الفقري. كان الدب قد كسر قوائمه كي لا يهرب.

- الثور المسكين!

- استدرت وعدت راكضة. ناديت على باليتش. كان يجدر بي أن أفعل شيئاً. أجهز باليتش عليه بضربة سكين. لم أكل من ذاك اللحم قط. في اليوم التالي، عثرنا على البقرة...

- البقرة؟

- كان الدب قد خبأها قبل أن أصل. على مسافة مئات الأمتار من المكان الذي هاجم فيه الثور. كان قد صنع لها قبراً بعد أن بقر بطنها. كانت حاملاً، وشاهدنا العجل يخرج. كان خطم البقرة مهشماً. أنا متعلقة بالأبقار كأنها أولادي. أصابني اكتئاب عصبي في تلك السنة.

نهضت لينا لإرسال نداء عبر جهاز اللاسلكي: «إذا فوتت ثلاث فترات متتالية، فمعنى ذلك أنني ميتة». تركتها وقد اشتد حبي لروسيا، تلك الأمة التي ترسل الصواريخ إلى الفضاء، ويتصارع فيها البشر مع الذئاب برمي الحجارة.

بعد المسير لمسافة كيلومترين فوق صفائح من الجليد القمري الشبيه بهلام قناديل بحرية تتوزع فيها أعصاب فيروزية اللون، وصلت إلى بوكوينيكي عند سيرجيه وناتاشا. حضر سيرجيه الحمّام الروسي. اختنقنا فيه لساعة كاملة، ثم أفرغنا زجاجة فودكا بالعسل دون أن ننسى شرب نخب النساء، لأن الثامن من آذار هو اليوم الذي يدفع فيه الرجل رسومه.

٩ مارس

عند الظهرية، فتح سيرجيه زجاجة بييرة سعة ثلاثة لترات كُتب عليها: «حجم سيبييري».

خمس سنوات وأنا أحلم بهذه الحياة. اليوم، أستمتع بها وكأنها إنجاز عادي. صحيح أن أحلامنا تتحقق، لكنها ليست سوى فقاعات صابون تنفجر حتماً.

١٠ مارس

رحلت إلى أوشكاني، تلك الجزيرة التي تقع وسط البحيرة على بعد ثلاثين كيلومتراً شرق بوكوبينيكي، وتلمح كتلتها عند الأفق على شكل قبة لباد. هبت رياح شمالية شرقية. سرت كالمجنون أنهب المسافات فوق طبقة الجليد الصقيلة الغبشة. رأيت سمكة تسبح تحت الجليد. ثمة عالم يفصل بيننا. بدت سجينة، مفصولة عن السماء بغطاء منيع، إنها تفتقر القلب. استلقيت عدة مرات على الرصيف الثلجي ونظرت إلى السماء الزرقاء من خلال إطار قبعتي البيضوي. كانت الزلاجة تكبح حركتي، ولكن حين تهب الرياح وتدفعها، كانت تنساب فوق الجليد وتتجاوزني. كنت أنحني إلى الوراء قسراً كي أوقفها. بلغت الجزيرة خلال ست ساعات.

سيد المكان يُدعى يورا. يعيش مع زوجته في محطة أرصاد جوية تقع على الضفة. لديه أربعة بيوت خشبية كبيرة مفتوحة على جهة الغرب. له طبع مستبد مثل نساك الجزر، متلازمة الملك كليبرتون(51). يحكم مقاطعته دون خصوم، الحكم الفردي يزداد جنوناً حين تشعل الفودكا النيران في أحداق عينيه. محطات الأرصاد الجوية على ضفاف البايكال عبارة عن ولايات لا يصل إليها صدى القانون الموسكوفي إلا ضعيفاً. يربط بين الحكومة وهؤلاء المواطنين المنعزلين اتفاق ضمني. الأولى لا ترسل أي روبل إعانة، والطرف الثاني يغشّ، يكذب، ويكسب رزقه بطرق غير مشروعة.

١١ مارس

أمضيت يوماً كاملاً في جزيرة أوشكاني وأنا في شبه إغفاءة. الشمس السييرية تلسع واجهة الكوخ ويشع ضوءها في الغرفة الخشبية. كنت مستلقياً في سريري أقرأ يوميات يونغر «سبعون سنة انقضت»، الجزء الأول. لم يكن المجوسيّ العجوز سيحب الضياء السائد هنا، فهو ساطع جداً ويقتل غموض الأشياء. تتكيف عيون المبصرين الباهتة مع أشباه الظلال بشكل أفضل. أنهل من كل صفحة صوراً وومضات ورؤى. يعبر يونغر عن العالم الملموس برموز ميتافيزيقية.

صفحة ٢٧: «يعتمد التقدم العام على إحصاء الأشياء والبشر، أي جعلهم أرقاماً».

صفحة ٦٦: «يجب النظر إلى البشر كشخصيات، أناصيب إشارة».

صفحة ١١٩: «هنا تقيم آلهة لا أحتاج إلى معرفة أسمائها وتضمحل في القدسي ذاته، كما تضمحل الأشجار في الغابة».

صفحة ١٦٤: «يوم واحد في سيلان: عوضاً عن التنقل من معبد إلى آخر، دعونا نقدّم واجبنا تجاه بعض الأشجار المسنة».

صفحة ١٩٩: «يهدف تقويم البشر إلى إخضاعهم هم وسلوكهم لقوانين عالم الآلة».

صفحة ٢٦٦: «كلما قلّ تعلقنا بالفوارق، تزداد قوة حدسنا. لا نعود نسمع حفيف الشجرة، بل ردّ الغابة على الرياح».

صفحة ٣٥٣: «نسمع عن «حق الدخول». حريّ بنا أن نقول، وهذا وارد أكثر: «ثمن الخروج»، ذاك الذي ندفعه لقطع أي صلة بالمجتمع».

صفحة ٣٦٦: «التطور السريع ظاهرة تحوّل العالم إلى أرقام».

صفحة ٥١٩: «وفي أحد الأيام أيضاً، اكتشف النحل الأزهار وشكلها على طريقته في الحب. ومذ ذاك أخذ الجمال حيزاً أكبر في العالم».

من أين يأتي حبي للاستعارات والإشراقات والصيغ؟ ومن أين يأتي تفضيلي النخبة على الجموع، الأفراد على الجماعات؟ من اسمي؟ تيسون (Tesson)، كسرة من شيء ما. مهما يكن، فهو يحتفظ في شكله بذكري من القارورة. لعلّ تيسون كائن يحنّ للقطعة الكاملة الضائعة، يحاول إعادة الوصل مع الكل. هذا ما أفعله هنا وأنا أتملّ في الغابات.

انصرف يورا لانشغالاته. لن يعود إلى المدينة أبداً، فهو يستمتع على الجزيرة بالمكونين الأساسيين لحياة تخلو من العوائق: العزلة والانتساع. في المدينة، لا يستطيع الجمع البشري العيش إلا إذا نظّم القانون تجاوزاته وضبط حاجاته. حين يتجمع البشر، تولد الإدارة. معادلة قديمة منذ أول قرية في العصر الحجري الحديث، وهناك صورة عنها في كل حديقة بشرية. بالنسبة للمعتزل، تبدأ الوصاية الإدارية حين يصبح هناك اثنان، ويصبح اسمها حينها: «الزواج».

يشكك رجال الغابة بمشاريع «مدن المواطنين» ذات الحكم الذاتي الخالية من السجون والشرطة، حيث تسود الحرية المنتصرة فجأة بين جموع غدت مسؤولة. إنهم يرون في تلك المثل العليا الخيالية تناقضاً مضحكاً. المدينة مجرد كتابة في فضاء الثقافة والنظام وابنهم الطبيعي: الإكراه.

وحده اللجوء إلى المساحات الشاسعة الخالية من السكان يجيز العيش بحرية مسالمة أساسها مبني على مبدأ بسيط جداً: خلافاً لما يحدث في المدينة، يتأتى خطر العيش في الغابات من الطبيعة وليس من الإنسان. قانون المدينة الموكل إليه تنظيم العلاقات البشرية لا شيء يلزمه بالوصول إلى هذه الأنحاء البعيدة إذاً. لنحلم قليلاً. يمكننا أن نتخيل في مجتمعاتنا الغربية المدنية، كما في بوكوبينيكي أو في زافاروتنو، مجموعات صغيرة من الناس ترغب في الهروب من تطور هذا القرن. أناس سنموا من تعبئة مدن هي بالأساس مكتظة بالسكان تفرض الطبقة الحاكمة فيها القوانين الغزيرة على الدوام، كرهوا شر الإدارة المتوحش، أرهقوا من التقنيات الحديثة المفروضة عليهم في حقول الحياة اليومية كلها، توجّسوا من الاضطرابات الاجتماعية والعرقية المرتبطة بتكاثر المدن العملاقة، يقررون بغتة مغادرة المناطق المدنية والذهاب إلى الغابات. سوف يعيدون خلق قرى في الفسحات المكشوفة وسط تلك الأروقة ويبتكرون لأنفسهم حياة جديدة. يمكن تشبيه تلك الحركة بتجارب الهيبيين، لكنها تتعلل بدوافع مختلفة. كان الهيبيون يهربون من نظام يضغط عليهم، أما سكان الغابات الجدد فسوف يهربون من الفوضى التي تثبط عزيمتهم. الغابات مستعدة دائماً لاستقبال البشر، فهي معتادة على العودات الخالدة.

كي تبلغ شعور الحرية الداخلية، تلزمك المساحة الوافرة والعزلة. يجدر أن أضيف من عندي: التحكم بالزمن، الصمت التام، قسوة العيش ومجاورة روائع جغرافية مهيبية. محصلة ذلك الإغواء أوصلني إلى كوشي.

١٢ مارس

عدت إلى الضفة. مشيت لمسافة ثلاثين كيلومتراً كأنني مسرّمة. وصلت إلى بوكوينيكي خلال سبع ساعات. أمضيت بعد الظهر على مقعد بالقرب من كوخ سيرجيه مدثراً بألبستي الدافئة وساكناً مثل عجوز. عجوز صغير قطع لتوّه ثلاثين كيلومتراً في درجة حرارة -٣١°.

جاء سيرجيه وجلس معي. تحدثنا عن الناس الذين يزورون البحيرة في الصيف. الإنكليز، السويسريون، الألمان.

- أحب الألمان، قال سيرجيه.

- آه حقاً، فلسفتهم، موسيقاهم...

- لا، سياراتهم.

في المساء، بالقرب من سريري، أشعلت شمعة أمام أيقونة القديس سيرافيم ساروف التي أحملها معي أينما رحلت. ونسخت على ورقة وضعتها بالقرب من الصورة هذه العبارة ليونغر، كتبها في ديسمبر عام ١٩٦٨م: «في السماء، تمرّ سحب أمام القمر الشاحب الذي، في هذه الساعة، يقوم فريق أميركي بالدوران حوله. حين أضع شمعة فوق قبر فإن تأثيرها معدوم، لكن رسالتها غنية. إنها تضيء للكون بأكمله، ومعناها مؤكد. إذا قاموا بالدوران حول القمر، فسيكون الأثر كبيراً جداً، لكن المعنى أقل من ذلك بكثير».

في وقت لاحق، ولكي أكافئ نفسي بعد أن أرسلت إشارة إلى الكون، شربت ليترين ونصف اللتر من البيرة، فدبّ الخدر في ساقيّ.

١٣ مارس

رأيت الكثير من الأحلام هذه الليلة. في باريس لا يحدث معي هذا مطلقاً. التفسير العامي لذلك له علاقة بنوعية نومي القريب من الهديان الحلمي. أميل أكثر إلى التفكير بأن جنّي الغابة يزورني خفية في الليل، ويرتشح كإشعاعات إلى داخل خفايا نفسيّتي ليعيد تشكيل ماهية أحلامي.

عند الفجر وصلت سيارة وفيها العجوز الطيب يورا الصياد صاحب العينين الحائلتين، الذي جاء لزيارتي منذ بضعة أيام. يقطن في كوخ خشبي صغير تابع لمحطة بوكوينيكي. يعيش من صيد الأسماك ويساعد سيرجيه في الأعمال البدنية الشاقة. كان قد أمضى لتوّه يومين في إيركوتسك لاستكمال أوراقه التي سرقت عند سقوط الاتحاد السوفييتي.

- منذ عهد الرؤساء الثلاثة يلتسن، بوتين، ميدفيديف، لم أغادر الغابات!

- ما الذي أثار دهشتك أكثر في إيركوتسك؟

- المخازن! يوجد كل شيء. والنظافة!

- ماذا أيضاً؟

- الناس، يتحدثون مع بعضهم البعض بمودة.

عند الظهر، ودّعت يورا وسيرجيه وناتاشا، وعدت إلى منزلي، لمدة ثلاثة أيام. في شمال خليج بوكوينيكي، ثمة مستنقع متجمد. يسمح الشتاء بالانتقام من قطعة أرض تتطلب في الصيف جهوداً جبارة.

مشيت طريقي مدفوعاً إلى الورا. في المساء، توقفت للاستراحة في كوخ بولشوي سولونتسوفي. استغرقت المدفأة وقتاً طويلاً حتى بدأت تسحب. بينما كان الدفء ينتشر داخل الكوخ على مهل، جلست مثل القطط بالقرب من النار. فكرت في أن أتأكد لدى عودتي إلى فرنسا مما إذا كان لم ينشر حتى الآن كتاب «تحليل نفسي عن العيش في كوخ»، لأنني أشعر هذا المساء بالراحة التامة كالجنين.

في البدء، كانت هناك الأم العضوية حيث تتكوّن الحياة. تنتقع البكتيريا في السبخات والفحم القاري والمستنقعات، وينبجس من الخليط الأول أكثر أشكال الحياة تعقيداً. ثم تأخذ الأرض على عاتقها الحفاظ على الحرارة. الأرحام، الجيوب الجرابية، البيوض، كلها تقوم مقام الحاضنة. المساكن البدائية أيضاً أخذت دور الحاضنة. كان البشر يسكنون الكهوف، في قلب الأرض نفسها. في وقت لاحق، في بيوت الثلج أو في خيام اليورت الدائرية، أو أكواخ الخشب أو خيام من الصوف كي تلبى الحاجة. في الغابة السيبيرية يصرف الناسك طاقة هائلة لتدفئة ملجئه ويجد الجسم فيه الراحة والأمان دوماً. منذ ذلك الحين ورجل الغابات مستعد للتطواف في الغابات وتسلق الجبال في البرد وشظف العيش، لأنه يعرف أن هناك ملاذاً ينتظره. يقوم الكوخ مقام الأم. يكمن الخطر حين يجد نفسه مرتاحاً جداً في حجره، ويعيش عيشة خاملة شبيهة بالسبات الشتوي. هذا الميل يهدّد في الحقيقة أهل سيبيريا، حين لا يعود بوسعهم مغادرة حضن أكواخهم، يتراجعون إلى حالة المضغة، ويستبدلون السائل الأمنيوسي بالفودكا.

١٤ آذار

الطقس لطيف اليوم، الحرارة -١٨°. قطعت عشرين كيلومتراً فوق البساط البارد. الجليد والحمم البركانية عنصران سحريان، كلاهما خضع لتأثير التحول من مادة أخرى. برودة الهواء جمّدت الماء لتجعل منه جليداً، وحرارة النار أسالت الصخر لتحويله حمماً بركانية. وكلاهما يتحول من جديد حين تدمر حرارة الهواء الثلج، وبرودة الماء تجمّد الحمم. السير فوق رقعة متجمدة ليس بالعمل قليل الشأن. تضرب خطواتي سطحاً شبيهاً بمخطط قيد التصميم. الجليد إحدى تلك التحف الخيمائية في عالماً.

كنت على مسافة عشرة كيلومترات من زافاروتنو أجرّ زلاجتي نحو الشمال حين أصبحا بمحاذاتي. ناتاليا وميكا، من أصحاب أحد تلك البيوت الريفية في زافاروتنو. كانا قد شاهداني من بعيد واتجها نحو ذلك الخيال السائر على طول الساحل. أطفأ محركي دراجتيهما الجليدية وبدا عليهما الخدر من البرد بعض الشيء. خلال بضع ثوان، مدّت ناتاليا غطاء فوق مشمّع البحيرة

الأسود، ووضعت عليه الكونياك وفطيرة محشوة بالسّمك وحافطة مشروب القهوة، ثم تمددنا حوله. يتمتع الروس بعقريّة خلق أجواء الوليمة بلحظة. أكثر من مرة صادفت أحد أولئك الفلاحين الروس الذين ينادون عليّ من جانب الطريق. بحركة واحدة، كانوا يقترحون عليّ الجلوس. في تلك المواقف، يميل الضيف إلى الأرض دوماً ويستند إلى مرفقيه، يصالب ساقيه ويقلب قبعة الشابكا الروسية إلى الورا. أحياناً ترتفع نار، وتظهر من الأكياس أشياء مبهجة، تُفتح زجاجة فودكا، تنهال الضحكات وتمتلئ الأقداح. نفتسم رغيف خبز، نتشارك بقية من كبد أيل ويحتدّ الحديث الذي يدور حول ثلاثة مواضيع: الطقس السائد، حالة الطريق، أهمية وسائل النقل. وفي بعض الأحيان، كنا نتناول موضوع المدينة، والجميع كانوا على اتفاق. لا بد أن الناس مخبولون كي يتراكموا فوق بعضهم بعضاً. في مكان يخلو من أي شيء، ولدت هنا واحة حدودها مربع الغطاء الذي مدّته ناتاليا. وحدها الشعوب التي تسري في عروقها دماء البدو الرُحّل قادرة على خلق هذا النوع من التحوّل. الرسام بيروف(52). صوّر هذه المشاهد في لوحة شهيرة «استراحة الصيادين». نرى فيها ثلاثة صيادين مسترخين على العشب، أمامهم البط والأرنب، الطرائد التي أردوها لتوّهم. أحدهم يدخن، يضحكون وهم يروون قصص حياتهم. الضوء خفيف والعشب مخملي. هذه اللوحة تأخذ بمجامع قلبي، لأنها لا تخبر شيئاً عن الأمل. هي لقطة خاطفة للسعادة المداهمة. السماء ستتهار، والأصدقاء الثلاثة لا يابهون بها البتة، إنهم هناك، يجلسون على العشب، ملوك، مثلنا نحن هنا فوق الجليد.

عادت ناتاليا وميكا. كنا قد أمضينا وقتاً كافياً معاً لإفراغ زجاجة الكونياك الصغيرة في سبعة أخاب. لاقيت مشقة في الوصول إلى زافاروتنو. كانت الشمس قد غابت، لكنني كنت في مزاج يهيئني على نحو أفضل للعيش على الضفة الشرقية. الشمس تشرق في وقت متأخر هناك والأمسيات تطول.

١٥ آذار

للوصول إلى بيتي، أمامي اثنان وعشرون كيلومتراً. كنت أستعد للرحيل عن زافاروتنو حين ظهرت فجأة صوب الأفق مجموعة من سيارات الدفع الرباعي فوق أسقفها مصابيح. ف. م. رجل أعمال من إيركوتسك، كان يبني بيتاً ريفياً في زافاروتنو مستغلاً منصبه لاختلاس أرض محصورة ضمن قوانين المحمية. البناء مخصص لحفلات الأصحاب. في العام القادم سوف يدعو أصدقاءه وزبائنه للصيد والشرب وإطلاق النار على الحيوانات. هذا الصباح، جاء مع حاشيته يتفقون الورشة. كان سيرجيه ويورا برفقته. «الجنرال»، كما يسمونه هنا، يوزع هباته على حراس المحمية. على الجليد، أمام الضفة حيث ترتفع أساسات البيت الريفي الواسع الأصفر علا الضجيج، فالكل سكارى. كانوا يُنزلون الصناديق، وكان أحد ضباط الزعيم يعرض متباهياً بندقيته الرشاش السايغا إم كا نصف الأوتوماتيكية التي لا تفارقه في حال صادف الفاشي أو الصيني على الجليد. تفيض الصحف الروسية بقصص تلك النزعات التي تنتهي نهايات مأسوية. في أفغانستان، وضع الأميركيون حداً لحفلات المفاجآت بإرسال صاروخ على زمر المحتفلين الذين يفرغون أمشاط بنادقهم نحو السماء. الروس يتكفلون هم أنفسهم بإطلاق النار على بعضهم البعض.

زمرة من الرجال السكارى، أسلحة حربية، فودكا، سيارات ضخمة وموسيقا التكنو: مقومات جذب الموت. كان يورا يراقب بعينه المستسلمتين إنزال البضائع. ثمة طاقة مشؤومة تتركز عند الخليج. هنا تنهاوى روسيا كلها: الأسياد الخطرون، خادم تولستوي الوفيّ، سيرجيه جوال الغابات، وعامة الناس الذين يدركون الفائدة التي سيستخرجونها من مخالطة المتنفذين وهم يكظمون قرفهم. هذه البلاد التي كانت المخبر الذي حضرت فيه الشيوعية، لا تزال علاقات التبعية فيها حيّة باقية. لم أكن أتعجل شيئاً أكثر من العودة إلى خلوتي.

عرض عليّ ف. م. أن يقلني إلى بيتي بسيارته المرسيديس. ركبنا السيارة الضخمة مع سيرجيه ورجلين آخرين. الأول غفا على الفور، والثاني راح يصيح عبر جهازه اللاسلكي لمدة ثلاث دقائق قبل أن يدرك أنه مطفأ. كانت تنطلق من المذياع موسيقا الراب. سيرجيه لا ينبس بكلمة. ثمن الرعاية باهظ جداً.

نحن الآن في بيتي نشرب كأساً. قال ف. م. وهو يشير بيده ناحية النافذة: «عشت في الولايات المتحدة الأميركية لمدة عام. لا أحب العقلية الأميركية. ما أريده هو هذا: «الحرية، مجتمع دون نظام أو سلطة، البحيرة». رحنا نشرب الكأس تلو الكأس. بالنتيجة، إن هؤلاء الرجال يثيرون الشفقة، لهم أسنان تمزق الشيشان ويتقاسمون كسرة الخبز مع طائر القرقف. أنا وهم نقيم على هذه الضفة لأسباب مماثلة ولكن بسلوك متناقض. حين رحلوا تنفست الصعداء. أضأوا المصابيح العلوية فوق سياراتهم تجنباً لزحام السير.

عاد الهدوء إليّ، الهدوء العميق، ليس ذاك الذي يعني غياب الضجيج، إنما زوال أي متحدث. تصعد في داخلي حب لهذه الغابات المسكونة بالأياتل، لهذه البحيرة الطافحة بالأسماك، لهذه السماء التي تعبرها الطيور. اجتاحني حب البيتينيك (53) الكبير بحدة تتناسب مع ابتعاد زمرة ف. م. واختفى معهم كل ما أخشاه: الضجيج، وعجرفة الجماعة، والتعطش للصيد، باختصار: حمى الأرهاط البشرية.

أنا ثمل وأحتاج إلى الماء. خلال غيابي لعشرة أيام، تجمدت ثغرات المياه. اندفعت نحو البحيرة ومعني نقار الجليد. احتجت ساعة ونصف لنحت حوض جميل بعرض متر وعمق متر وعشرة سنتمترات. انبجست المياه فجأة ورحت أنهل منها بسعادة. يا له من إحساس رائع بأنني كسبت مائي. كنت أشعر بالألم في عضلات ساعدي. في الماضي، كانت الحياة في الأرياف والغابات تبقيك بصحة جيدة.

١٦ آذار

في العالم الذي غادرته، يمارس وجود الآخرين رقابة على أفعالنا تظهر في انضباطنا. لولا نظرة جيراننا في المدينة، لكان سلوكنا أقل لباقة. من منا لم يتناول عشاءه واقفاً في مطبخه، سعيداً لأنه أعفي من وضع الصحن والملعقة والشوكة والسكين، مستمتعاً بعبّ جرعات كبيرة من علبة الرافيولي الباردة؟ في الكوخ، هذا التساهل خطير. كم من المعتزلين في سيبيريا المتحررين من كل المقتضيات الاجتماعية، يدركون أنهم لا يعكسون أي صورة عن أنفسهم لأحد، وينتهي بهم الحال

خائرين فوق سرير من أعقاب السجائر يحكّون من الجرب؟ أدرك روبنسون هذا الخطر وقرر، كي لا ينحطّ، أن يتناول عشاءه كل مساء على المائدة لابساً بزته الرسمية كأنه يستقبل ضيفاً.

أبناء جنسنا يعززون واقع العالم. إذا أغمضنا أعيننا في المدينة، أي عزاء لنا إذا كان الواقع لا يزول، الآخر يستمر برؤيتي! الناسك وحيد، أمامه الطبيعة، وحده يتأمل الواقع، يحمل على عاتقه عبء تمثيل العالم وتجليه أمام نظر الناس.

الضجر لا يخيفني إطلاقاً. ثمة غصّة محزنة أكثر وهي أنني لا أشارك إنساناً أحبه جمال تلك اللحظات التي أعيشها. العزلة هي ما يفتقده الغائبون، كونهم بعيدين عن يختبرها.

في باريس وقبل رحيلي، حدّروني: سوف يكون الضجر عدوك القاتل! ستموت من الضجر! كنت أصغي إليهم بتهديب. الناس الذين كانوا يتحدثون إليّ هكذا يشعرون بأن لديهم ما يلهمهم على نحو رائع. «حين أختلي بنفسي، أتغذى من ذاتي، من روحي أنا، هذا صحيح، لكن هذه الروح لا تنضب...» كتب روسو في كتابه «أحلام اليقظة».

تجربة العزلة، يحدثنا عنها جان جاك روسو في الفصل الخامس: يجدر بالمعتزل أن يلتزم بواجب الفضيلة، وألا يجيز لنفسه الأعمال البربرية. إذا أتى على تصرف شرير فستفرض عليه تجربة العزلة عذاباً مضاعفاً. سيتحتم عليه أن يحتمل مناخاً أفسده بخبثه من جهة، ومن جهة أخرى، سيتوجب عليه أن يحتمل الفشل لأنه لم يكن خليقاً بالجنس البشري. «إنسان المدينة يريد أن يرضى عنه الآخرون، أما المعتزل فهو مجبر على أن يكون راضياً عن نفسه وإلا ستكون حياته غير محتملة. كما أنه مجبر على أن يكون فاضلاً». العزلة برأي روسو تولّد الطيبة. كمفعول رجعي، العزلة تبدد ذكرى دناءة البشر. إنها البلسم الذي يوضع على جرح الشكّ بأبناء جنسنا. «أفضّل أن أهرب منهم على أن أحقد عليهم»، كتب في الفصل السادس عن البشر.

من مصلحة المعتزل أن يبدي الرفق بمحيطه، وأن يستميل لقضيته الحيوانات والنباتات والآلهة. لم يزيد على قسوة العيش شعوراً بعداء العالم؟ يمتنع الناسك عن أي عمل وحشي تجاه بيئته. إنها متلازمة القديس فرانسيس الأسيزي. يتحدث القديس إلى إخوته الطيور، بوذا يداعب الفيل الهائج، القديس سيرافيم ساروف يطعم الدببة البنية، وروسو يبحث عن العزاء في جمع الأعشاب.

عند منتصف النهار، رحت أنظر بانتهاء شديد إلى الثلج المتساقط على أشجار الأرز. حرصت على أن أتغلغل في المشهد بقوة، وتابعت سباق أكبر عدد من ندف الثلج. إنه تمرين مرهق. وهناك أناس تدعو ذلك بطلاة!

في المساء، استمر سقوط الثلج. أمام مشهد كهذا يقول البوذي: «لا ننتظر شيئاً جديداً». يقول المسيحي: «سوف يكون الغد أفضل»، ويقول الملحد: «ما معنى كل هذا؟»، والرواقي: «سوف نرى ماذا سيصبح». والعدمي سيقول: «ليتوار كل شيء». وأنا أقول: «يجدر بي أن أقطع الحطب قبل أن تتغطّى الجذوع». ثم نمت بعد أن وضعت قرمة حطب.

أسئلة للاستيضاح خلال الشهور القادمة:

هل سأحتمل نفسي؟

هل سيكون بمقدوري التحوّل وأنا في السابعة والثلاثين؟

لماذا لا أفتقد أي شيء؟

السماء لا تنضب، لا يزال الثلج يتساقط. فترة الصباح أمام زجاج النافذة. داخل الكوخ، تتم فصل الحياة حول ثلاثة نشاطات:

(١) مراقبة ومعرفة معمقة لحقل الرؤية (المحدد بإطار النافذة)، وأخذ العلم بكل ما يحدث فيه.

(٢) المحافظة على حال نفسية جيدة.

(٣) استقبال الزائرين النادرين، الحفاوة، الاستعلام، وأحياناً العكس، صدّ المزعجين منهم.

لو أردت أن أتبجح لقلت إن هذه المهام تجعلني شبيهاً بحارس، ولجعلت من كوشي مركز رصد لإمبراطورية الأشجار. في الواقع، إنه عمل بواب، وكوشي هو مسكنه. أفكر في وضع لافتة «سأعود بعد قليل» حين سأذهب إلى الغابة.

في المساء، أصبحت الشمس ثابتة واتخذ الثلج لوناً فولاذياً. تلمع السطوح ذات اللون الواحد ببريق زئبقي. حاولت أن ألتقط صورة لهذه الظاهرة لكن الصورة لا تُظهر شيئاً من هذا اللمعان. الصورة لا قيمة لها، لأن الشاشة تختزل الواقع إلى قيمته الهندسية، تقتل روح الأشياء وتضغط مكوناتها. ينسحق الواقع أمام الشاشة. الناس المهووسون بالصورة محرومون من الاستمتاع بانبعثات الحياة العجيبة. لن تلتقط أية عدسة تصوير الذكريات الغامضة التي يلقيها منظر ما في قلوبنا. ولن تستطيع أية آلة تصوير النقاط الإيونات السلبية التي يرسلها إلينا وجه ما أو الإغراء اللا محسوس في وجه آخر؟

١٨ آذار

مؤنتي من الطعام بدأت تنضب. يجدر بي إيجاد طريقة لاصطياد السمك. في بحيرة البايكال يستخدم أهل سيبيريا طريقة بسيطة. يلقون في فتحة داخل المياه حفنة من براغيث الماء الحيّة تُجمع من المستنقعات يسمونها «بورموش». تتجمّع الأسماك تحت الفتحة منجذبة نحو المنّ السماوي. لا يبقى سوى رمي صنارة الصيد. وبما أنه ليس هناك مستنقعات قريبة مني وأفتقر للبورموش، استخدمت تقنية نواطير الأحراج القديمة. حفرت فتحة واسعة جداً بالقرب من الشاطئ بعمق ثلاثة أمتار في قاع البحيرة، وغطّست فيها عمراً من أغصان الأرز. خلال بضعة أيام، سوف تتجمّع آلاف الكائنات الدقيقة فوق العيدان الصغيرة. لن يكون علي سوى جمعها وتقديمها طعماً للأسماك.

الرياح مستمرة في الجنوب. والطقس لا يزال مثلجاً. الثلج يمتص كل صوت. يخيم صمت نادر، والهواء لطيف. ميزان الحرارة يشير إلى -١٥°.

أيقظني هذه الليلة تقصف الجليد. ضربة فجائية عنيفة أقوى من الأخريات زلزلت دعائم الكوخ. كتلة المياه تتمرد على سجنها وتدق على السطح بقوة.

لا يزال الثلج يتساقط، والجمود مستمر. قبل المجيء إلى هنا، كنت أسافر مثل سهم انفلت من قوس. الآن أنا وتد مغروز في الأرض. فضلاً عن ذلك، أعيش عيشة كسل. كياني يتجدر، حركاتي تتباطأ، أشرب الكثير من الشاي، وأصبحت فائق الحساسية تجاه تحولات الضوء، لم أعد أكل اللحم. كوشي دفيئتي.

العالم الخارجي  
البحيرة أب  
برد وجفاف  
الجليد قاس  
خطر في كل مكان  
صوت طقطقة  
تقصف طاقيات الجليد  
أعمال الجسد  
الجسد ينحل  
البشرة تتشقق وتسمر

العالم الداخلي  
الكوخ أم  
دفع  
الخشب ناعم  
أمان  
حسيس المدفأة  
دموع الراتنج على الدعائم الخشبية  
أعمال العقل  
الجسم يراكم الدهون  
البشرة تبيض

عمل شاق في التحطيب. نشرت شجرة أخرى، قطعها أجزاء صغيرة ورتبتها. ثم حفرت بالمعول درباً في الثلج نحو الضفة وآخر إلى الحمّام الروسي، وثالث نحو كوم قرم الأشجار. أربع ساعات من العمل اليومي ينصح بها تولستوي كي يكون لك حق بالتمتع بالمأكل والمسكن.

في المساء أصابني الأرق. بدأت أتخيل الحيوانات التي تحوم أو تنام بالقرب من الكوخ. فيزرون لا أحد يرغب بتحويل فرائه إلى معطف، أيائل لا أحد يحلم بتحويل لحومها إلى نقانق، دببة لا أحد

يقيس رجولته عند قتلها.

٢٠ آذار

صارت عصافير القرقف تنقر زجاج نافذتي كل صباح. طرق مناقيرها منبه الصباح. الطقس دافئ. وضعت كرسيّاً صغيراً على مسافة كيلومتريين من الضفة ودخنت سيكار «روميو وجوليت نمره ٢» (جاف قليلاً)، وأنا أنظر إلى الضفاف. حتى ذلك اليوم، كنت قد تعلمت تسلق الجبال والبحث عن الدروب وتقدير اختلاف الارتفاعات، ولكن لم يسبق لي قط أن نظرت إليها.

في المساء، كازانوفا السجين في سجون البندقية، كتب: «آمنا بأنكم أحرار لكي تكونوا أحراراً». كازانوفا يحب السكاكر المحشوة بذور عطر الحبيبة. كان عليّ أن أجلب معي بعضاً منها. كتب منتقداً المثل الإنسانية الخيالية لدى فولتير: «أول شغف لك كان حبك للبشرية... لكنك ما كنت لتحبها لو لم تكن ما هي عليه. إنها لا تتأثر كثيراً بالإحسان الذي تريد أن تغدقه عليها... لم أضحك في حياتي أكثر مما ضحكت لدى رؤيتي دون كيشوت متضايقاً من الدفاع عن عبيد حكم عليهم بالأشغال الشاقة كان قد منحهم حريتهم بدافع الشهامة».

٢١ آذار

إنها بداية الربيع. السماء زرقاء وأنا ذاهب إلى الغابة. اتجهت صعوداً على امتداد النهر المتجمد الذي يصبّ في البحيرة، على بعد خمسمائة متر شمال الكوخ.

تتلاقى عزلة الطبيعة مع عزلتي وترسخ عزلتانا وجودهما. بينما كنت أسير بمشقة فوق الثلج، أعدت التفكير بتأملات ميشيل تورنيه عن فرح الإنسان حين يكون إلى جانبه كائن من أبناء جنسه كي يقتنع بوجود العالم. أنا وحيد أنظر إلى أشجار الدردار هذه ولحائها المحرّز بالأخاديد الشاقولية. تحمل الشجيرات الصغيرة ندف ثلج كأنها كريات زينة لعيد الميلاد. أشجار الأرز الصنوبرية بأشكالها الممسوخة تعطي الوادي مظهر صورة مطبوعة (في الرسوم الصينية، يخال لنا أن الجبال والأنهار تتألم). نظرتي تحيط المكان، ولكن لا أحد يرى نظرتي الخاطفة التي تمنح الحياة لهذه الأشكال. ينكشف العالم في حزمة رؤيتي فحسب. لو كنا اثنين، لجعلنا أشياء كثيرة تظهر.

أسير إلى الأمام، أتجاوز الغابة الصغيرة، تختفي عن ناظري. هل لا تزال هناك؟ لو كان معي رفيق درب كنت سأطلب منه الانتباه إلى أن العالم لا يزول ورائي. يؤكد شوبنهاور بأن وجود العالم من خلال تصوّر الإنسان وحده هي نظرة لاهية للعقل. ولكن ذلك كلام فارغ. ألا أحسّ بهذه الغابة تشعّ بكل قوتها من ورائي؟

حين ضاق مجرى المياه على ارتفاع ٨٠٠ متر، بلغت قمة النتوء الغرانيطي. يا آلهة الوهاد! أيّ عناء تكبدت لتسلق مائتي متر في مستنقع من الصنوبر القزم المغطى بالثلج هذا! أرى خطأ واضحاً يتعرّج داخل الكتلة الخضراء البرونزية في غابة التايغا. إنها أشجار الدردار بأغصانها الذهبية تشير إلى مجرى الشلال بسيل من العسل.

عدت للنزول خلال ساعتين عبر ممرات بيضاء طويلة، الساحات خالية والشوارع هادئة. في

الشتاء، الغابة مدينة مية. في الكوخ، عدت للاستغراق في كتاب كازانوف. بعد زيارته لدير أينشبيدلن: «كي أكون سعيداً، يبدو لي أنني أحتاج إلى مكتبة». يقول بشأن فتاة إيطالية: «أبديت لها أسفي لأنه كان عليّ أن أتركها دون أن أقدم لمحاسنها التكريم اللائق الذي تستحقه». سافر كازانوف وأقام في روما وباريس وميونخ وجينيف والبندقية ونابولي. كان يتحدث الفرنسية والإنكليزية والإيطالية واللاتينية. التقى فولتير وهوم وغولدوني. يذكر كوبرنيكوس وأرسطو وهوراس. أسماء عشيقته: دوتّا لوكريزيا، هيدفيغ، أو هنرييت. بعد قرنين من الزمن، قال تكنوقراطيون: «هناك حاجة ملحة لـ»بناء أوروبية».

في الثامنة أعددت مائدتي. هذا المساء عشائي حساء، معكرونة، صلصة توبيسكو، شاي، خمسة وعشرون سنتيليتراً من الفودكا، وسيكار كوبي كبير. تسمح لك التوبيسكو أن تزدرد أي شيء وأنت تشعر أنك تأكل طبقاً فاخراً. قبل أن أخلد إلى النوم، أشعلت شمعة أمام صورة حبيبتي الغالية ورحت أدخّن وأنا أنظر إلى اللهب يتراقص فوق الصورة. لماذا يشتكي العشاق المفترقون؟ كي تتعزّي، يكفي أن تؤمن بتجسّد الكائن في الأيقونة. نفخت على مصابيح الزيت وخلدت إلى النوم.

اليوم، لم أؤذ أي كائن حيّ على هذا الكوكب. «لم أؤذ». غريب كيف لم يكشف نساك الصحراء قط هذا الشجن الجميل في تفسيرات عزلتهم. (باخوم، أنطون، رانسيه) (54) تحدثوا عن حقدهم على العصر، معركتهم ضد الشياطين، احتراقهم الداخلي، عطشهم للطهارة، نفاذ صبرهم للوصول إلى المملكة السماوية، ولكنهم لم يذكروا قط فكرة العيش دون ارتكاب الإساءة تجاه الآخرين. «لم أؤذ»، بعد قضاء يوم في كوخ أرز الشمال، يمكن للمرء أن يقول لنفسه ذلك وهو ينظر إلى المرأة.

٢٢ آذار

عاصفة طول الليل. يسمّي الروس الرياح التي تهبّ على المنحدرات الغربية لبحيرة البايكال «سارما». تكتكة المعدات تحت خيمة المدخل جعلتني متيقظاً حتى ساعة متأخرة. كيف تصمد العصافير في أعشاشها؟ هل سيكونون غداً أحياء هنا؟

كنّست الرياح الثلج عن سطح البحيرة وأعدت إليّ الجليد. تزلّجت لساعتين تحت شمس باردة وأنا أستمع إلى ماريا كالاس.

في المساء، وبما أن ليس هناك الشيء الكثير لأفعله بعد أن أدخلت الحطب الكافي لخمسّة أيام، دوّنت على ورقة أسباب عزلتي.

الأسباب التي من أجلها اختليت في كوخ  
كنت كثير الثرثرة  
كنت أرغب في الصمت  
الكثير من الرسائل المتأخرة لأردّ عليها والكثير من الناس لألقاهم  
كنت غيوراً من روبنسون كروزو  
هنا أكثر دفناً من منزلي

سئمت من شراء الحاجيات  
كي أستطيع الصراخ والعيش عارياً  
كرهاً بالهاتف وبضجيج المحركات

٢٣ آذار

ذهبت أسير عبر الضفاف والغابات اليوم بطوله منتعلاً حذائي الشبكي وأنا أفكر بأن للمناظر  
ذاكرة. يتذكّر السهل المزروع الأجراس الداعية للصلاة. ويتذكّر حقل شقائق النعمان غراميات  
العشاق الصغار. ولكن هنا؟ ليس للغابات ذكريات. لا تحوّلات تحدث هنا ولا تاريخ، لا تخبرنا  
الغابات شيئاً، ولا أي صدى لعمل بشري حدث تحت أوراقها. أشجار التايغا ترقد لذاتها. تغطي  
السفوح، تتسلق المنحدرات وتهاجمها دون أن تكون ملزمة بشيء. يصعب على الإنسان احتمال لا  
مبالاة الطبيعة تجاهه. أمام غابة عذراء، يحلم بالإثمار والإنبات. نظرة الإنسان إلى التايغا تسبق  
صوت الفأس. آه من الكائنات الحاذقة التي تشعر بالضيق حين تدرك فجأة أن الأراضي البرية في  
غنى عنها... من ذا يحب الطبيعة لقيمتها الجوهرية وليس لمنافعها؟ في كتاب «جنود السماء» يكتب  
رومان غاري (55) عن سجين في معتقلات الموت أشدّ صلابة من رفاقه. في المساء وهو في سريره،  
كان يغمض عينيه ويتخيّل قطعان الفيلة البرية. حين يعرف أن في السافانا البرية تعيش وحوش  
حرّة، كان يكفي ذلك كي تتقوى عزيمته. التفكير في الجسيّات (56) يبعث القوة إذاً. مادام هناك غابات  
تايغا خالية من البشر، سأشعر بالراحة أنا أيضاً. البرية تمنح المواساة.

صعدت إلى أعلى الرابية وأشعلت ناراً عظيمة، هناك في الأعلى داخل ركن من الصخرة  
الغرانيتية. حسائي يغلي فوق النار ويعطيني الذريعة كي أبقى ساكناً أنظر إلى وجه البحيرة الميت،  
تعلوه الزرقة والعروق والرقائق والأشنيات.

٢٤ آذار

لا أجرؤ على النهوض هذا الصباح. إرادتي مطلقة السراح، حرة في حقل الأيام العذراء. يكمن  
الخطر في البقاء كالمشلول هكذا حتى الليل، أنظر إلى الثلج الأبيض وأنا أقول لنفسي: «يا إلهي! كم  
أنا حرّاً!»

عاد الثلج للتساقط مجدداً. لا يوجد أحد في هذه الأرجاء، ولا حتى أية وسيلة نقل في البعيد. الشيء  
الوحيد الذي يمر هنا هو الوقت. تكمن سعادة حياتي في رؤية طيور القرقف تظهر أمامي... لن  
أسخر بعد اليوم من أولئك العجائز اللواتي يتصرفن ببلاهة أمام كلابهن الصغيرة على أرصفة حيّ  
أوتويّ الباريسي، أو حين يجعلن من طائر الكناري محور حياتهن. ولا من أولئك الكهول في حديقة  
تويلري الذين يطعمون الحمام الحَبّ وهم يعتصرون أكياسهم الورقية الصغيرة في قبضاتهم. العيش  
بالقرب من الحيوانات يجدد الشباب.

في الفصل السابع من رواية الليدي ساترلي (57)، كان كليفورد الوضيع يثير اشمئزاز الصغيرة  
المسكينة كونستانس. «كان يتكلم ويتكلم دون توقف، يعرض تحليلاته الصغيرة عن الناس والأشياء،  
عن الأسباب، عن الأخلاق، عن الأشخاص. لم تعد تحتل ذلك... كانت ممتنة لأنها باتت بمفردها».

أغلقت الكتاب، أخذت الفأس وخرجت تحت الثلج المتساقط. طفقت أعمل لمدة ساعتين، فوب! فوب! مثل المسعور أقطع فُرم الحطب التي ألهبها الليدي كونستانس.

في ضربات فآسي وأصوات طيور الزرياب الساخرة شيء من الحقيقة أكثر مما نجده في خطب التحليل النفسي الطويلة. فوب! فوب! «كل ما يستدعي الشرح والبرهان أولاً لا أهمية له» (نيتشه في كتاب غروب الآلهة). لندع الحياة تعرب عن ذاتها بالدم والثلج وحدّ الفأس وبريق الشمس فوق ريش طائر الغداف.

اليوم أخرجت طعم «البورموش» من تحت الثلج. كسرت الجليد بأناة كي لا أهرّ فروع الأغصان، بسطتُ غطاء، أخرجت الأغصان المتشابكة وهزتها فوق الدلو. كانت آلاف الأحياء الدقيقة ترتعص في المياه الصافية. نقلتها إلى زجاجة. صار الطعم عندي الآن، بعد بضعة أيام سأذهب للصيد.

لا بد أن يكون للقارئ ذهن منحرف كي يرى في «عشيق الليدي شاترلي» كتاباً يثير الشهوات الجنسية. هذه الرواية عبارة عن صلاة جنازية للطبيعة الجريحة. إنكلترا بلاد الغيصات الصغيرة الوادعة والغابات الزاخرة بالذكريات، تحتضر تحت أنظار كونستانس. تكاثر المناجم يعيث خراباً بالأرض البريطانية. آبار التفجيرات تبقر بطون الغيصات. ترتفع المداخل في السماء وتدنّسها. صار الهواء نتنأً، واکمدت حجارة القرميد، حتى وجوه الرجال بدأت تقسو. البلاد تتعاطى البغاء بالصناعة، وسلالة جديدة من رجال الأعمال التقنيين تتحدث بمواضيع سياسية اجتماعية عويصة معتمدة على التقنية. إنه احتضار العالم. «إنكلترا الصناعية تمحو إنكلترا الزراعية». تشعر كونستانس بنسغ يسري في جسدها، وتدرك أن التقدم يزيل جوهر العالم. وضع لورانس على لسان المرأة الشابة كلاماً فيه نبوءة عن تشويه المناظر وخبل العقول ومأساة شعب يفقد (حيويته «رجولته» على حد قولها) على أنغام الآلات. ينمو حب الليدي شاترلي البدائي الكافر في الوقت الذي تشهد فيه على غرق أرواح عصرها المختلة بسبب «الطاقة المشؤومة». «جنون» بروميتيوس (58). أضعف الإنسان في ضجيج الآلة. في حين يؤكد غوركي (59) في كتابه «اعترافات» على عكس ذلك: «الثوري سعيد جداً بجهود التقدم العظيم الذي باشرت به روسيا». برأيه، سوف ينبعث من الطاقة الجبارة المحتشدة في المراكز الصناعية سحابة مغناطيسية في العالم أجمع، وهذه القوة «النفسية الجسدية» سوف تحمّس شعوب الأرض كلها لتشمّر عن سواعدها ويتمجد المستقبل. كان لورانس قلقاً على التوتر الهائل الذي يلهب أعصاب العالم، فيما كان غوركي يدعو ذلك من أمنياته. كان لورانس يعرف أن وداعة الأرياف هي وجه الجمال. لم يكن غوركي يؤمن إلا ببهاء السماء التي يعبرها بريق الحديد. أما كونستانس التي ترشح بالرغبة، فكانت تتعذب من حب الأرض، وتصرخ تحت أغصان الغابة بهذا السؤال كأنها تعتلي مسرحاً في مسرحية مأسوية، لكن هدير الآلات كان يطغى على صوتها: «ماذا فعل الإنسان بالإنسان؟»

هذا المساء، نظرت إلى البحيرة وأنا جالس على كرسيي الخشبي تحت محارة الأرز. قبل أي شيء، هناك منظر جميل أمام ناظري. فيما بعد كل شيء يتدبّر، يمكن للحياة أن تستمر. الليدي شاترلي على حق. كنت أود استقبالها هنا بالتأكيد لبضعة أيام، قلت لنفسني قبل أن أعود إلى النوم في

الكوخ.

٢٥ آذار

استيقظت مع الشمس في الوقت نفسه. مكثت في السرير قليلاً أمام كل هذه العظمة. هذا الصباح يسمح الطقس بالخروج للمرة الأولى منذ أيام. صعدت إلى الشلال عبر مسار آخر، من الجهة اليمنى للضفة. كان الثلج قد تراكم في الغابة وخبأ لي امتحاناً جديداً. احتجت ساعتين للوصول إلى مستوى ٤٠٠ متر، أضرب بالمعول الجذوع الميتة. ثم مشيت مسافة مائتي متر فوق أرض صلبة وسهلة. ولكن فيما بعد وجدت مشقة في عبور مستم تكثر فيه أشجار الصنوبر القزم. سقطت بعدها في فخ بعمق متر. لمحت بروزاً غرانيتياً على ارتفاع مئة متر فوق شلال الجليد. لاح لي من الأسفل بالمنظار أنني رأيت فيه منصة تصلح للتخييم.

ثلج خفيف يشوش رؤية البحيرة، استلقت كالولد العاقل عند سفح الجبل. كان حدسي في محله، على ارتفاع ١٠٠ متر، كانت القمة الصخرية عبارة عن مسطح رائع، أجمل مركز للمراقبة. يمكن أن أقضي هنا ليلة حب بريئة. أصبح لدي المكان، وهذا أمر لا يستهان به.

عدت للسير والثلج يصل حتى فخذي، أزحر مثل فلاح روسي، ثم وقفت كي أصغي إلى فرقعة الثلج على ظهر الأشجار البيضاء.

عند منفذ النهر، استرخت عضلاتي أخيراً فوق سطح البحيرة وأنا أتبع آثار ثعلب. كان قد سار ثلاثة كيلومترات نحو البحيرة وعاد منها راسماً دائرة. إنه مجرد ثعلب ينتزّه.

الثلج يتساقط بشدة الآن. هذا الغطاء الذي يخفي العالم يكثف الشعور بالوحدة. ما هي الوحدة؟ إنها رفيقتي التي تنوب عن كل شيء.

هي بلسم للجراح وتقوم مقام صندوق الصوت (60). حين تكون وحيداً تغدو الأحاسيس مضاعفة بحيث تجعلها الوحدة تطفر. كما أنها تفرض مسؤولية. أنا سفير الجنس البشري في غابة تخلو من البشر. يجدر بي أن أستمتع بهذا المنظر من أجل أولئك المحرومين منه. الوحدة تولد أفكاراً، ذلك لأن الحديث الوحيد الممكن هو مع ذاتك. تنظفك من كل التثرثرة، وتسمح لمسبار أعماقك أن يعمل. تستدعي إلى الذاكرة أحياءك. إنها توثق رباطاً بين المعتزل والنباتات والحيوانات، وأحياناً مع إله صغير يمكن أن يعبر من هناك.

في نهاية النهار، تحققت من حال براغيث «البورموش». كانت الكائنات الصغيرة تسبح في الزجاجية. غداً أو بعد غد سوف تكون طعماً للسماك.

إنها الثامنة مساءً. أستريح في مكعبي الهاجع في طرف الغابة عند سفح الجبل، على خط الضفة، في قلب حب كل شيء من حولي.

غفوت وأنا أقرأ قصائد صينية. حفظت عن ظهر قلبي بيتاً سأقوله في محادثة حين أجد نفسي مفتقراً إلى الحجّة: «في كل هذا، يكمن معنى عميق. وحين أوشكت على قوله، نسيت الكلمات».

٢٦ آذار

ثلج. سرت على البحيرة ماداً عنقي، فاغراً فاهي. شربت ندف الثلج من ثدي السماء. في المساء، صنعت فتحة في الجليد بالمتقب اليدوي على بعد مئتي متر من الضفة، بعمق أربعة أمتار. ألقيت فيها طعم البورموش. عكّرت سحابة القشريات المياه. لم يعد أمامي سوى انتظار وصول سمك السلمون المبقّع. بدأت أسأم من المعكرونة بصلصة التابيسكو.

٢٧ آذار

فترة الصباح مع الشعر الصيني. وصلت إلى هنا ومعني حذاء شبكي، وآخر للتلج على الجليد، وكلابات، وعكاز بمنكاش، وقصبات لصيد السمك، وهأنذا أجد نفسي أقرأ قصصاً لمعتزلين يجلسون فوق مقاعد حجرية، ينظرون إلى الريح تهزّ غيضات الخيزران. آه من العبقرية الصينية! ابتكرت مبدأ «اللا حركة» كي تبرز المكوث طوال النهار والاسمرار تحت شمس يونان(61) عند عتبة الكوخ...

الصيد في المساء. جلست على كرسي صغير وغمرت علقاتي بشكل شاقولي. رأيت عبر الفتحة أسماك السلمون النهرية تعبر، وانجذبت إلى البورموش. صيد السمك نشاط صيني. يستسلم المرء للساعات الممتدة وهو يثبت نظره على قسبة الصيد على أمل ن تهتزّ. وهذا ما لم يحدث معي طوال الأمسية.

أغرقت حزني من العودة خالي الوفاض في ربع ليتر من الفودكا، وتركت الكحول يفعل فعله في سراييني.

أنجدوني أيها الشعراء الصينيون!

٢٨ آذار

غريبة تلك الحاجة إلى السموّ. لم الإيمان بإله بعيد عن مخلوقاته؟ طقطقة الجليد، رقة عصفير القرقف وعظمة الجبال تلهب العواطف في نفسي أكثر من فكرة المنظم لتلك التجليات. إنها تكفيني. لو كنت الإله لغدوت غباراً ذرياً بمليار وجه وأقمت في الجليد البلوري، في أوراق الأرز الإبرية، في عرق النساء، في حراشف سمكة السلمون، في عيني الهزّ البرّي. هذا يثير الحماسة أكثر من الرفرفة في الفضاء اللانهائي والنظر إلى الكوكب الأزرق من بعيد وهو يدمّر نفسه.

خيم ضباب كثيف ملبد فوق البحيرة واختفى الأفق. تدثرت ورحت أسير باتجاه البحر. عند الكيلومتر الثاني اختفت الضفة عن ناظري. سرت لمدة ساعتين. وحدها آثار خطواتي كانت تصلني بالكوخ. لم آخذ معي بوصلة ولا GPS، ولو أن الرياح هبت ومحت آثار خطواتي ما كنت لأتمكن من العثور على طريقي. لا أدري ما الذي كان يدفعني للاستمرار. قوة مَرَضِيَّة نوعاً ما. غصت في العدم. فجأة، وبعد ساعتين، قلت: «هذا يكفي»، وعدت أتبع آثار خطواتي. بعد ساعتين لاح الجبل وراء الغلالة البيضاء ووصلت إلى الكوخ.

في التقليد الصيني، هناك عجائز ينكفون في أكواخ منتظرين الموت. البعض منهم كان في خدمة الإمبراطور وشغل مناصب حكومية. آخرون كانوا رفيعي الثقافة، شعراء، أو معتزلين بسطاء. أكواخهم متشابهة، ويخضع موضع الكوخ لمعايير دقيقة. يجب أن يقع الملجأ فوق جبل ويلطف جوه نبع ماء والرياح تداعب الدغل فيه. أحياناً ينقلون أنظارهم نحو الوادي حيث يتخبط البشر. دخان البخور يساعد على مرور الوقت. في المساء يصل لزيارتهم صديق. يُستقبل مع فنجان شاي وكلام مقتضب. بعد أن كانت رغبتهم التأثير في العالم، يعتصم أولئك الرجال عازمين على ترك العالم يؤثر فيهم. الحياة تآرجح ما بين غوايتين.

ولكن حذار! «التبطل» الصيني ليس جمود الحسّ والكآبة. التبطل يشد الإحساس بكل شيء. المعتزل يتشرب الكون ويولي أقصى انتباه لأصغر وجه من وجوهه. فيما هو جالس تحت شجرة اللوز، يسمع صوت اصطدام البتلات على سطح الغدير، يرى اهتزاز أطراف جناح طائر الغرنوق في طيرانه، يشمّ تَصَوُّع عطر زهرة سعيدة تعبق في المساء.

هذا المساء، حفظت مرثاة تاو يوانمينغ الذي مات في العام ٤٢٧م. «خليق بكوخي الحقير، بالراحة أشرب الخمر وأنظم القصائد، منحت نفسي لمجرى الأشياء مدركاً مصيري، لا أحمل في صدري أية مقاصد خفية»...

استسلمت للنوم وأنا أفكر أنه من العبث أن يكتب المرء يومياته مادام هناك أشخاص قادرين على جمع حياتهم في ثلاثين كلمة!

٢٩ آذار

هذا الصباح درجة الحرارة -٣٥ أول يوم ربيعي. تتوافد طيور القرقف إلى تحت النافذة الجنوبية. فجأة عصفت هبات ريح وراحت تهزّ أشجار الأرز. بدأ الثلج يتساقط وشابت المنظر خيوط رمادية.

أقرأ أبياتاً صينية وأنا أحتسي الفودكا. يمكن للعالم أن يتداعى، هل سيصلني صداه؟ الكوخ حصن خشبي درعه الجميل من جذوع الشجر! دعائم الصنوبر والكحول والشعر يشكلون غطاء ثلاثياً. «كوخي بعيد، وأنا لا أعرف شيئاً»، مثلّ روسي ولد في غابات التايغا.

وفي نقيض ذلك، هناك الفروض في باريس: «يجب أن يكون لك رأي في كل شيء! عليك أن تردّ على الهاتف! عليك أن تستنكر! يمكن الاتصال بك!»

قانون الأكواخ: عدم الانفعال... عدم التوثب... عدم الردّ على الهاتف... أطفو شبه ثمل في صمت الثلج... أعترف بلا مبالاتي بمصير العالم... أقرأ الصينيين.

الريح تشتدّ. العالم يطرق على النافذة كي أفتح له. احموني يا كتبي! احميني يا زجاجتي! احميني يا كوخي! من هذه الرياح الشمالية الشرقية التي تريد أن تشتتني. لو أحضرت لي في هذه اللحظة صحيفة مليئة بالأخبار، لا اعتبرت ذلك مثل هزة أرضية.

كنت شبه متأكد من أنني سأجدها. عثرت على أبيات تو مو، شاعر من القرن التاسع الميلادي:

بيتي صغير، بالكاد يتسع لسريري  
النهار بطوله، أنظر إلى الجبال وأنا أسكب المدام  
في الليل، المطر يصل بديعاً بصحبة الريح  
أنا نشوان، عبثاً يطرق الضجيج على نافذتي.

٣٠ آذار

تسلقت شلال الجليد اليوم من طريق جديدة. بدأت الصعود من أول الوادي الواقع إلى الجنوب من كوشي. على ارتفاع ألف متر، قمت باستدارة طويلة على كتف الشلال. عبرت الحرف، حيث كانت بعض المسلات الجرانيتية المتآكلة تبرز ثاقبة طبقة الثلج. تابعت طريقي في جانب المنحدر فوق الثلج القاسي. أحياناً وفي بعض المواضع كانت غزارة أشجار الأرز القزم تهدّ قواي. جاهدت خمس ساعات بكاملها قبل بلوغ الضفة اليسرى للقالق الذي أغلقه الشلال. خامرني أمل خفيّ برؤية أيل إذا ما مكثت طويلاً في أعلى الغابة. ولكن باستثناء آثار حيوان الغلطن العميقة تحت الأشجار والتي أفرحتني كثيراً، لم يكن هناك شيء.

بعد عودتي إلى البحيرة، التقطت سمكتي الأولى في الخامسة مساءً. وواحدة أخرى بعد ثلاث دقائق. وواحدة ثالثة بعد ساعة ونصف. ثلاث سمكات سلمون نهري بلون الفضة البراقة، تنتفض غاضبة، تلمع فوق الجليد. كانت تعبر جدها خلجات كهربائية. قتلتها ونظرت إلى سطح البحيرة وأنا أتمم كلمات الامتنان هذه التي كان أهل سيبيريا يوجهونها في الماضي إلى الحيوان الذي يردونه، أو إلى العالم الذي يساهمون في إخلائه: «شكراً، سامحوني». في المجتمع العصري، ضريبة الكربون حلّت محل هذه العبارة.

السعادة أن يكون لديك في طبقك السمكة التي اصطدتها، وفي كأسك الماء الذي سحبت، وفي مدفأتك الحطب الذي قطعه. المعتزل يستقي من المنابع. اللحم والماء والحطب، موارد التي لا تزال تنبض بالحياة.

تذكرت أيامي في المدينة عندما كنت أنزل في المساء لشراء حاجياتي. كنت أجول بين رفوف البضائع في المتجر الكبير، أمسك السلعة بحركة كئيبة وأرميها في العربة. أصبحنا صيادين قاطفين في عالم ممسوخ.

في المدينة، الليبرالي واليساري والثوري والبورجوازي الكبير، كلهم يدفعون ثمن خبزهم، وثنم وقودهم وضرائبهم. أما المعتزل فهو لا يطلب من الدولة شيئاً ولا يعطيها شيئاً. يختبئ في الغابات ويستمد منها رزقه. اعتزله بالنسبة إلى الدولة يشكّل تقصيراً في أرباحها. يجب أن يكون التقصير في الربح هدف دعاء الثورة. وجبة السمكة المشوية وحبّات الأس التي قطفها من الغابة أكثر معارضة للدولة من مظاهرة ترتفع فيها الرايات السود. من يريد تفجير القلعة بالديناميت يحتاج إلى قلعة، لأنه ضد الدولة التي يستند إليها. كتب والت ويتمان (62): «لا علاقة لي بهذا النظام بتاتاً، ولا بأي شكل من الأشكال حتى أعارضه». في ذلك اليوم التشريني الذي اكتشفت فيه «أوراق العشب»

للعجوز ويتمان منذ خمس سنوات، لم أدرك أن تلك القراءة سوف توصلني إلى الكوخ. كم هو خطير أن تفتح كتاباً!

الاعتزال ثورة. حين تصل إلى كوخك تختفي عن شاشات المراقبة. المعتزل يمحي ولا يعود يرسل آثاراً رقمية، ولا إشارات هاتف، ولا رسائل مصرفية، لأنه ينفك عن كل ما يثبت هويته. يمارس «الاختراق» «hacking» بطريقة معاكسة، فهو يخرج من اللعبة الكبرى. فضلاً عن ذلك، ليس هناك أي داعٍ للالتحاق بالغابة، إذ إن الزهد الثوري يمارس في الوسط المدني أيضاً. يقدم المجتمع الاستهلاكي خيار التكيف معه. قليل من الانضباط يكفي. في مجتمع الرخاء، البعض أحرار في العيش مثل تلك الدمى البدينة المتأرجحة، ولكن هناك آخرين أحرار أيضاً في العيش عيشة رهبان متقشفة بين همس الكتب. يلجأ هؤلاء إلى غاباتهم الداخلية دون أن يغادروا منازلهم. في مجتمع الفاقة، ليس هناك خيارات، المرء محكوم بالعوز وشرط حياته مرتبط به. الإرادة لا جدوى منها. هناك نكتة روسية شهيرة عن شخص دخل إلى ملحمة وسأل: «هل عندك خبز؟» كان الجواب: «آه كلا، هنا المكان الذي ليس لدينا فيه لحم، أما المكان الذي ليس لديهم فيه خبز، فهو المخبز المجاور». السيدة الهنغارية التي ربنتي هي التي علمتني هذه الأشياء وأنا أفكر فيها دوماً. المجتمع الاستهلاكي تعبير مخز إلى حد ما، ولد من خيالات جامحة لمراهقين خائبين بعد أن أفرط في دلالهم. وهم لا يقوون على إصلاح أنفسهم، وربما يحلمون بأن يُرغموا على التعفف والاعتدال.

في السابعة مساءً، بدأت أصنع فطائر البليني بمخزون الطحين المغلف في أكياس محكمة الإغلاق. بعد ساعة، وضعت فوق صحنى الخشبي فطيرة محترقة. أمضيت نصف ساعة في الخارج، الوقت الكافي لإجلاء الدخان عن الكوخ، ثم فتحت رزمة من المعجنات الصينية.

٣١ آذار

انصرفت منذ بضعة أيام إلى تطبيق تجربة بافلوف (63) وبدأت تعطي ثمارها. عند الساعة التاسعة عزفت لحناً على الناي على نافذتي قبل أن أرمي فتات الخبز لعصافير القرقف. هذا الصباح، وصلوا عند أول النغمات، حتى قبل أن أضع لهم مستحقاتهم. أنتشق هواء الفجر محاطاً بالطيور. لا ينقص هنا سوى بياض الثلج (64).

يوم في أعالي الجبال. سرت صعوداً في مجرى «الوادي الأبيض»، وهد واسع تنبت فيه الصنوبريات اليابانية القزمة، يقع إلى الشمال من كوشي. بلغت علو ١٦٠٠ متر بعد خمس ساعات من الجهاد في الجيب العميق. أحياناً كان يراودني إحساس بأنني وعل غارق حتى صدره في الصمغ. فكرت في الوصول إلى مسافة ثلاثمئة متر قبل القمة، لكن الطقس كان بارداً جداً والوقت متأخراً. عدت أدراجي نحو رأس أرز الشمال. وجدت آثار هرّ بري تقاطعت مع آثار قلمي. لا شك أنه مرّ من هنا قبل ساعة أو ساعتين وتجوّل في الأنحاء. انحنيت على الآثار أشمّها، ولكن لم ينبعث منها أية رائحة. خفّ شعوري بالوحدة، لقد كنا اثنين إذاً سكرانين اليوم في المكان هناك.

هذا المساء، قطّعت الحطب في الفسحة. كان ينبغي بي حشر الفأس بضربة قوية في جسم الخشب. وبعد أن يعلق معدن الفأس عميقاً، يجب رفع الفأس والحطبة العالقة به بحركة واحدة وخبط

القطعة المحشورة بكل قوة فوق السناد. إذا كانت الضربة موفقة، فسوف تنشق الحطبة إلى اثنتين. وبعد ذلك، ليس أمامي سوى تقطيعها إلى أحطاب صغيرة بالفأس الصغيرة. بدأت حركتي تجدي ولم أعد أخطئ الهدف. منذ ثلاثة أشهر كان يلزمني من الوقت أكثر بثلاث مرات كي أجني ثمار عملي الشاق بالحطب. خلال بضعة أسابيع سأتحول إلى آلة لقطع الأخشاب. بعد أن طرقت المعدن بشكل صحيح في المكان المطلوب وانفلقتم قرمة الحطب وتفرقت أوتارها، توصلت إلى الاقتناع بأن تقطيع الحطب فن حربي.

# أبريل البحيرة

١ أبريل

إنها الساعة التاسعة، أقرأ هذه الجملة لميشيل ديون: «ولكن، أنعلمون؟ رغم إرادتي كلها، العزلة أصعب شيء أحميه»، حين فُتح الباب بعنف. اخترق أربعة صيادين الكوخ دون سابق إنذار بتلك الحيوية التي يضيفها الروس إلى الأشياء. لا شك أن الرجال جاؤوا لتَهشيمي، وإلا كانوا سيتصرفون بطريقة مختلفة.

كانوا يطلقون التحيات بمرح صاحب. لم أسمع محرك شاحنتهم. كانوا ذاهبين إلى سيفيروبايكالسك لبيع الأسماك التي اصطادوها من جنوب المحمية. من شدة اضطرابي، أُرقت الشاي فوق كتاب «التاكسي الخبازي اللون». كانوا أربعة: ساشا صاحب الأصابع المقطوعة، وهو صديق قديم، إيغور الذي تنقصه بعض الأصابع أيضاً، التقيته منذ خمس سنوات فوق الجليد، فولوديا ت.، وأندريه من مقاطعة بورياتيا، لم ألتقه قط. بادرت بالترحيب بهم كما يجب: قطعت النفاق إلى شرائح، وضعتها على المائدة، فتحت زجاجة فودكا وقدمت الكؤوس. وبدأنا نشرب.

طلبت من كل واحد منهم أن يروي لي أين قضى خدمته العسكرية. كان فولوديا سائق دبابة في منغوليا (كأس في صحة سائقي الدبابات)، سانيا خبير إشارة على شواطئ محيط القطب الشمالي (نخب شواطئ محيط القطب الشمالي)، إيغور بحار سفينة في شبه جزيرة القرم (كأس في صحة الأسطول)، وأندريه رامي مدفعية في قراتشاي (نخب سياسة روسيا للسلام في القوقاز). تعيينات المجندين الروس قصائد ساندرار (65). كانت آلتى التصوير ترتكز فوق الرف، ضغطت على زر التشغيل قبل أن يحتدم الحديث بدعم من فودكا كيدر وفايا في درجة حرارة بلغت الأربعين.

أعيد كتابة حديث الأول من أبريل

سانيا: أنا أقول: فوضى من الخراء!

أنا: غداً سيكون يوماً جديداً.

سانيا: أيها الإخوة السكارى، كحول! (يتوجه إلى إيغور وهو يصب له)، وأنت، ألا تشرب؟ أحسنت!

أندريه: ليكن كل شيء بخير! كل شيء، أعني كل شيء: الحب، العائلة، وكل شيء.

أنا: من أين أنت عائد؟

سانيا: من رأس شارتلا. ذاك الصبيّ المسكين يكاد يموت هناك. أمضى الشتاء كله وهو يتعذب.

إيغور: دون امرأة، دون أحد! وحيداً.

سانيا: إنها غلطة رئيسه. تركه للشتاء ولم يزوده بالمؤن!

أنا: من هو رئيسه؟

سانيا: إنه ذاك القذر... فلان... السافل... الصياد البري.

إيغور: قلت له ذاك اليوم: «هل لديك خرطوش للبندقية؟» قال لي: «تأتي الذئب إلى مسافة قريبة بضعة أمتار مني، أرميها بالحجارة كي أطردها».

سانيا: حين مررنا بالقرب من شارتلا، رأينا آثار ذئب على الطريق.

أندريه: آثار كبيرة، كبيرة جداً هكذا، وحديثة، هذا الحقير!

سانيا: والصبي خرج في الرابعة صباحاً وشاهد عيونها تلمع على مسافة عشرة أمتار.

«لماذا لم تطلق النار عليها إذًا؟، قلت له.

هو: ليس معي خرطوش. عدنا لنراه في شهر يناير. كان كلبه قد مات. لم يكن لديه شيء يأكله على الإطلاق. كان الكلب مربوطاً بالسلسلة، مات من الجوع. الجراء...

أندريه: كانت أشبه بالهياكل العظمية.

أنا: وهو ماذا كان يأكل؟

سانيا: لا أعرف.

إيغور: أنا لا أفهم كيف لم يزودوه بالمؤن. ولكن كيف حال هذا الرجل الجائع في الغابة؟

سانيا: اللعنة! وخلال الشتاء كله تمرّ الشاحنات بالقرب منه ولا أحد يتوقف، ولا أحد يرسل إليه المؤن.

إيغور: هذه أول مرة أرى فيها ذلك. صبي يعيش وحيداً هكذا. ولا أحد يأبه به. حتى الكلاب لا تحتل تلك الحفرة القذرة.

سانيا: لكنه يبدو سعيداً رغم ذلك!

أنا: إنه عبد.

سانيا: هذا صحيح، هذا صحيح! لم أكن أجرؤ على قول الكلمة. إنه عبد.

فولوديا: زنجي، نقول أيضاً بالروسية.

أندريه: حتى العبد لا يُعذّب هكذا.

إيغور: لا.

سانيا: سيده شرير حقير. إنه سيد خراء. هذا ليس بسيد.

أنا: ولكن لم يكن لديه الخيار. لم يكن بوسعه البقاء في قريته بلا عمل، بلا مال...

إيغور: ولكن حتى هنا، لا يقبض شيئاً.

سانيا: لعله أفضل حالاً هنا، لو بقي في قريته...

إيغور: كان سيموت من الإدمان على الكحول.

سانيا: نعم، كان سيموت من الإدمان على الكحول.

إيغور: بالطبع، بالتأكيد!

سانيا: وهنا أقله هو على قيد الحياة...

أندريه: صحيح. هو حيّ.

فولوديا: في الواقع، هناك أزمة يا سيلفان. يبدو أن أوروبا ليست بحال جيدة البتة. لا سيما في اليونان. لقد سقطت. لقد انهارت. انتهى أمرها.

إيغور: انتهى أمرها.

فولوديا: لن تستطيع العودة.

سانيا: إنها اليونان، هي من سبب لك هذه المصيبة. اليونان غارقة في الخراء كلياً.

فولوديا: نعم، في الخراء.

إيغور: نعم، هذه كارثة كبرى.

فولوديا: من سيء إلى أسوأ، وهناك حركات تمرّد.

سانيا: نعم، حركات عصيان، أناس تركض وهي تصيح!

إيغور: ديموقراطية الفوضى.

سانيا: لكنه مسرور لأن فرساننا في العام ١٨١٢م علّموا الفرنسيين الاستحمام وغسل أعناقهم. ما كانوا يذهبون إلى الحمام قط قبل ذلك. هل تتصوّرون؟ في العام ١٨١٢م، فرسان القوزاق الروس بنوا لهم الحمامات. إنه حدث تاريخي. لهذا السبب ابتكروا العطور، لإخفاء رائحة الأجساد الكريهة وانبعاثات المدن القميئة. كانت الروائح المقرفة تنبعث من كل مكان في فرنسا! فرساننا القوزاق الذين وصلوا إلى هناك في العام ١٨١٢م علّموهم الاغتسال في الحمامات. أوكد لك صحة كلامي.

إيغور: كارثة! كابوس! يا شباب، «كابوس، كارثة، طامة كبرى»، هذه كلمات فرنسية، سيلفان قال لي.

سانيا: هذا ليس غريباً.

فولوديا: اللعنة!

ينتهي التسجيل هنا. رفع الروس بضعة أنخاب أخرى لأشياء تجاوزوا فيها الحدود، ثم ودون سابق إنذار، صاحوا إنه يجدر بهم «الانسحاب يا أولاد العاهرة». لبسوا ستراتهم وقفازاتهم وقبعاتهم الصوفية وأوشحتهم وهم يشتمون، وركل أحدهم الباب وهو ينعته بالكلام البذيء، وتركوا لي النفاق اللذيذة التي لم يأكلوا منها سوى النصف تقريباً. انطلقوا وبقيت هناك على رمل الضفة، مترنحاً قليلاً عند عتبة نهار أفسدته الفودكا.

في كل مرة يزور فيها الصيادون كوشي، أشعر أن فرقة من الخيالة جاءت تعسكر في حديقتي. استسلام وعفوية واستبداد، طباع المنغولي انتقلت إلى الدماء السلافية. يظهر البدوي تحت جلد الحطاب. لقد كان الماركيز كوستين الرهيب على حق حين قال: «روسيا مكلفة بترجمة آسيا إلى أوروبا». بسبب ذلك، أمضيت ساعة أعيد النظام إلى داخلي المقوض.

٢ أبريل

الحرارة -٢٠°. أخيراً تثبت بالمسامير قطعة من اللباد تحت الباب. في الصباح شربت الشاي وأنا أقرأ الرسائل التي تركها الصقيع فوق زجاج النافذة. من يستطيع أن يفك لي رموزها؟ هل هناك كتابة مخفية في تلك الأشياء؟

هذا المساء نجحت أخيراً في صنع فطائر الكريب، كريب الأطفال. لا أتركها دون مراقبة أبداً. ابتكرت فطيرة بليني بسمك السلمون المرقط. عليك أولاً اصطياد سمكة، ثم تقطيع الحطب وإشعال النار. اطه السمكة على الجمر مع الشمرة. لتحضير فطائر البليني (يلزم بضع قطرات من الجعة إذا لم تتوفر الخميرة). اسلخ لحم السمكة فوق وجه الفطيرة. ضع فطيرة أخرى فوقها. أضف ربع لتر من الفودكا واتركها تتضج على النار.

أتناول عشائي وأنظاري على النافذة. هناك بشر مصدر وجباتهم الحصري المنظر الممتد أمام مجالهم البصري. هذا تعريف للجنة، العيش منكفئاً في مكان محدود يستطيع نظرك أن يحتويه، ويسمح لك بالسير فيه ليوم كامل، بينما يقوم ذهنك بتشكيل خيالاته.

وجبات عشائي في الباكال تحتوي على القليل من إشعاع الطاقة المجسدة(66). تنفجر الطاقة المجسدة حين يكون مقدار حريرات الأغذية أقل من استهلاك الطاقة اللازمة لإنتاجها وإرسالها. البرتقالة التي كنا نقدّمها فيما مضى في عيد الميلاد كانت كنزاً. كنا نعرف أنها مليئة بالطاقة المجسدة ونقدّر ثمن الرحلة التي قطعتها. سمكة القَطّ التي يصطادها صياد لاوي من تعرجات نهر الميكونغ ويشويها على ضفة النهر، تشعّ طاقة مجسدة قيمتها «صفر». أسماكي المطبوخة على مسافة بضعة أمتار من فتحة الصيد أيضاً. ولكن شرائح اللحم الأرجنتيني المستحضرة من الماشية التي تغدّت على الصويا في مزارع العجول في مروج أميركا الجنوبية، وتم نقلها عبر المحيط الأطلسي حتى وصلت إلى أوروبا، فهي موصومة بالعار. الطاقة المجسدة هي ظل الكارما: سجل ذنوبنا. ذات يوم سوف يتم إنذارنا لدفع الثمن.

قائمة ببعض الوجبات التي تحتوي على القليل من الطاقة المجسدة (للاستكمال)

المنّ الذي نزل من السماء عند أقدام الشعب اليهودي  
الفتيات العذراوات اللواتي قدّمن أهل أثينا إلى المينوتور  
الخبز والخمر في العشاء الأخير للمسيح

أسماك عرس قانا

أولاد ميديا

الدم الذي يضخ في وسط السهوب، حين يلصق فارس نثري شفثيه في الشق الذي أحدثه في عنق  
حصانه

وجبات القديس باخوم في صحرائه، أساسها الجراد المجفف

رجال الإرسالية المسيحية الواصلون إلى جزر مالايو البولينية في سفن شراعية وتم طهيهم في  
حساء البرابرة

رغم المظاهر، الدببة التي قتلها الأوكرانيون الجائعون في حديقة الحيوان في كييف بعد سقوط  
الاتحاد السوفيتي، كانت تحتوي على طاقة مجسدة كبيرة. كانت قد نقلت من سيبيريا وربيت في  
شروط الأسر لمدة أربعين عاماً. الناجون من حادثة الطائرة في جبال الأنديز، بقوا على قيد الحياة  
بفضل لحم بني جنسهم. التهموا وجبة غنية بالطاقة المجسدة: اللحم كان قادماً عبر الطائرة.

فوق حجر عتبة المدفأة العلوي في مطعم «ديان دوباتيه»، نُقشت هذه العبارة: «الأطباق كلها  
محلية حصراً». أن يتغذى المرء من منتجات الجوار كان شرفاً آنذاك. أن يجري في عروقك دم  
«بيكار أو لورين أو تورانجو» (67). معناه أنك ترويهما بفاكهة أرضك.

دماء صيادي البايكال غنية بأغذية البحيرة والغاية. الدبال والماء والهواء السيبيري تنبض في  
شرايينهم. على ضوء هذه الإثباتات البيولوجية، يجب أن يؤخذ بالاعتبار حق الأرض. تستقي دماؤنا  
من جوهر الأرض، تتجذر هوية الكائن في الحيز الجغرافي الذي يغذيها. إذا كنت تزدرد علب  
الأغذية المحفوظة المستوردة، فهذا يعني أنك مواطن من العالم.

٣ أبريل

بدأت قراءة «روبنسون كروزو» للكاتب ديفو، أنهيت قراءة روبنسون للكاتب ميشيل تورنيه،  
وروبنسون بحار الجنوب، حكاية السنوات الست للكاتب توم نيل على جزيرة سوفاروف الخالية.

يمكن وضع بعض الصفات الخاصة بالناجين من الغرق. تلك الصفات المشتركة ترسم الوجه  
النموذجي للمعتزل المرمي فوق الضفاف.

- شعور بالظلم لحظة الغرق، تليها لعنات على الآلهة والبشر والسفن الشراعية عموماً.

- نشوء متلازمة جنون عظمة خفيف: يشعر الناجي أنه مختار.

- شعور بأنه سيد المملكة ويسيطر على الرعايا من حيوانات ونباتات ومعادن: «أستطيع لو  
أحببت أن أسمي نفسي ملكاً، أو إمبراطوراً لهذه المقاطعة الخاضعة تحت سلطتي، دون أي  
منافس...» يقول روبنسون في كتاب ديفو.

- الحاجة في كل مناسبة إلى التأكيد على فضائل العزلة بإقناع أنفسهم بروعة حياتهم.
- تأرجح متناقض ما بين الأمل بخلص فوري، والنفور الشديد من أي اتصال مع أحد أبناء جنسه.
- هلع من وجود أي دخيل بشري على الجزيرة.
- تعاطف وجداني مع عالم الطبيعة (قد يستغرق سنوات عديدة حتى يولد).
- الحرص على تعاقب أوقات العمل واللهو والتأمل وفق إيقاع شديد الانضباط.
- محاولة تحويل كل لحظة في الحياة إلى مسرحية.
- شعور خفيف بالابتهاج بسبب قيامه بدور الساهر على هامش البشرية الضالّة.
- خطر الإصابة بمتلازمة البرج العاجي، والتي يتبدى شكلها الخطير بأن يعتبر نفسه وكيل الحكمة الكونية وفادي خطايا البشر.

#### ٤ أبريل

اليوم قرأت كثيراً، تزلجت ثلاث ساعات في نور باهت فيما كنت أستمع إلى السيمفونية الرعوية لبيتهوفن، اصطدت سمكة سلمون وجمعت نصف ليتر طُعماً للسماك، نظرت إلى البحيرة من النافذة من خلال بخار الشاي الأسود، غفوت قليلاً تحت أشعة شمس الساعة الرابعة، قطعت جذعاً بطول ثلاثة أمتار، وحطّبت حاجتي من الحطب ليومين، حضّرت طبق كاشا(68) لذيذاً وأكلته. فكرت أن الفردوس لا يمكن أن يكون سوى في تعاقب كل ما ذكرته آنفاً.

#### ٥ أبريل

هبّت عاصفة في الليل. ظلت رياح الشمال تعبث بأطراف الغابة حتى الظهر. يشير ميزان الحرارة إلى -٢٣°. الربيع جميل! مع انحسار البرد قليلاً، شرعت بعد الظهر في صنع منضدة. أغصان أرز ثخينة من أجل القوائم، مساند للإطار، وللسطح أربع عوارض خشبية كانت ملقاة تحت مظلة الكوخ. انكبت على العمل ثلاث ساعات، وعند المساء صار لدي منضدة. وضعتها فوق الثلج على الشاطئ عند منفذ الفسحة أمام شجرة الأرز الشبيهة بالمحارة. ثم جلست على جذع دائري وأسندت ظهري إلى ساق الشجرة. أولئك الناس الذين يمنعونك من وضع قدميك على الطاولة، لا يعرفون زهو نجار الأثاث.

في المساء، دخنت سيكار بارتاغاس في البرد، أسندت مرفقي إلى درابزيني الجديد. هذه الطاولة وأنا، يحب أحدها الآخر منذ الآن. على هذه الأرض، من المريح أن يستند المرء إلى شيء ما.

هذه الحياة تمنح السلام، ليس لأن كل شهوة تخبو في داخلي. الكوخ ليس شجرة الصحوة البوذية. العزلة تختزل الطموحات إلى أبعاد الممكن. حين نقلص أدوات أعمالنا، نزيد عمق كل تجربة. القراءة، الكتابة، صعود المنحدرات، التزلج، التسكع في الغابة... يقتصر العيش على خمسة عشر

نشاطاً. الناجي من الغرق يفرح بالحرية المطلقة، لكنها حرية محصورة في جزيرته. في بداية حكايات روبنسون كروزو يحاول البطل الهروب بإنشاء مركب، إذ إنه على قناعة بأن كل شيء ممكن، وأن السعادة تقيم وراء الأفق. وبعد أن تعيده الأمواج وترميه مجدداً على الشاطئ، يدرك أنه لن ينجو، ليكتشف أن المحدودية هي مصدر السعادة. ويقال حينئذ إنه استسلم. هل المعتزل مستسلم؟ إنه ليس أكثر استسلاماً من ابن المدينة مفتون النظرة والذي يدرك فجأة فيما هو تحت مصابيح زينة الشارع أن حياته لن تكفيه لتذوق كل مغريات العيد.

٦ أبريل

في القرن الرابع، في مصر العليا، كانت صحارى العرق في وادي النطرون تعجّ برهبان يلبسون الأسماك، نسّاك يطوفون الصحراء على خطا القديس أنطون والقديس باخوم. كانت نظراتهم المستنيرة بشكلها المرضي تضيء وجوههم التي لفتحتها الشمس. كانوا يخافون الواقع. بالنسبة إليهم العيش يجعل المرء منحطاً. أطياف تتغذى بالسحالي، يرفضون العالم ويخشون تذوق متعه. كانت أحاسيسهم أعداءهم، إذا حلموا بجزيرة ماء، ظنّوا أن الشيطان يجربهم. كانوا يريدون الموت ليكسبوا المملكة الأخرى، تلك المملكة التي تضمن أبديتها الكتابات المقدسة.

المعتزل في غابات التايغا يتمسك بتنازلاته المتناقضة. يحاول الصوفيون التواري عن العالم، فيما يرغب رجل الغابة في التصالح معه. ينتظرون حدثاً ليس من هذه الحياة، أما هو فيبحث عن ظهور الأفراح العابرة، الآن وهنا. هم يطلبون الأبدية وهو في بحث دائم عمّا يشبع رضاه. يرغبون في الموت، وهو يتوق إلى المتعة. يكرهون أجسادهم، وهو يشحذ حواسه. بالخلاصة: إذا أردتم قضاء أوقات ممتعة حول زجاجة فودكا، يستحسن أن تعثروا على معتزل في الغابة أفضل من العثور على عاشق للإله يجثم فوق عموده(69).

في تلك الصحارى، كانت مصادفة أحد أبناء جنسهم تشكل حدثاً هاماً. كان النسّاك ينسون الوجه البشري، وحين يفاجئهم زائر، كان البعض منهم يخزّ على ركبتيه مقتنعاً بظهور الشيطان.

وهذا ما حدث معي حين دخل عليّ فولوديا ت. بسرعة هذا الصباح. جاء بسيارة الجيب لاستعادة أغراضه. لماذا لا يفتح هذا الباب اللعين أبداً على بطلة تزلج دانماركية قادمة للاحتفال بعيد ميلادها الثالث والعشرين على ضفاف البايكال؟

- فودكا؟ قلت لفولوديا.

- لا، قال.

- ألا تشرب؟

- توقفت عن الشرب.

- متى؟

- منذ عشرين سنة، قبل أن آتي إلى هنا. استيقظت ذات يوم وكانت زوجتي وأولادي قد رحلوا.

العائلة أفضل من الكحول. منذ ذلك الوقت، رجعوا إليّ ولم أعد أشرب.

- عظيم، وماذا عن حياتك الجديدة في إيركوتسك؟

- ليست رائعة.

- لماذا؟

- المال. أنا مضطر دوماً لإطلاق النار على الدببة. أبيع جلد الدب بستة آلاف روبل... راتب شهر! وعدتُ شخصين أو ثلاثة دفعوا لي المال مسبقاً.

- لدينا في فرنسا مثل الذي يبيع فرو الدب قبل أن...

- أعرفه، لا تحدثني عنه. نحن أيضاً.

- ألا تريد حقاً كأساً صغيرة من الفودكا؟

- لا، قلت لك أيها اللعين.

٧ أبريل

ساعة كاملة في تنظيف الكوخ. مكنستي المصنوعة من قصب البوص تقوم بالمعجزات. نظفت مشمّع الطاولة بالإسفنج ولمّعت زجاج النافذة بالفودكا. وبما أن هذا يوم التنظيف، جهّزت حمامي. في المساء، كنت نظيفاً مثل (روبل). أنا أمام المائدة، الفودكا في كأس، وجبة حساء الكاشا التي تبعث الدفء، الشاي فوق الموقد، الشموع تبكي والبحيرة تصرّ. كل واحد في مكانه ينجز عمله. مؤشر ميزان الحرارة ينزل بعنف، أسمع الصفير فوق قمة الأرز...

٨ أبريل

عاصفة.

كل ما سيبقى من حياتي هي مدوناتي. أكتب يوميات خصوصية كي أحارب النسيان وأقدّم ملحقاً لذاكرتي. إذا لم أترك أثراً من أعمالي وحركاتي، فما جدوى العيش؟ الساعات تعبر، يمّحى كل يوم، والعدم ينتصر. كتابة اليوميات الخاصة عملية فدائية تعاش ضد العبثية.

أورشف الساعات التي تمضي. كتابة اليوميات تغني الحياة. الموعد اليومي مع الورقة البيضاء يرغمك على إيلاء أكبر اهتمام بأحداث النهار، والإصغاء على نحو أفضل، والتفكير بقوة أكثر، والنظر بحدة أكثر وأكثر. عندما لا تجد شيئاً تكتبه على صفحة دفترك الصغير في المساء سيكون هذا نوعاً من العصيان. الأمر يسري على الكتابة اليومية كما على العشاء مع الخطيبة. كي تعرف ماذا ستهمس لها في المساء، حريّ بك أن تفكّر بذلك أثناء النهار.

فوضى في الخارج. الرياح تشدّب ركام الثلوج كأنها تنهشها. هبات الريح تعبت بجهة الغابة. أشجار الأرز في الصف الأول تختزن الثلج. اقتلعت أغصان وطارت فوق القمم. تحاول العاصفة

اقتلاع الأشجار. هذه الرياح تزداد ضراوة دون جدوى. أن تنتظر إلى نفخة هائجة من دخان التبغ وأنت دافئ بالقرب من مدفأتك، هذا تعريف للحضارة.

في المساء، رحت أشرب على مهل. الكوخ زنزانة السكر.

٩ أبريل

العاصفة مستمرة. رياح لا تنضب تقود الهجوم نحو أطراف الغابة. ممن تنتقم؟ إنها غاضبة من كل ما يدوم... البحيرة صقيلة تماماً، تلمع بعد أن تخلّصت من الثلج. مشيت بضع خطوات فوق الجليد مندفعاً نحو عرض البحيرة. هبت رياح ونزعت عني قبعتي الفراء. اختفت في عشر ثوان، طارت بسرعة مئة كيلومتر في الساعة. أصبحت على مسافة ثلاثة كيلومترات من الضفة. لم أتوقع أن العودة دون الكلابات ستكلفني غالباً. مشيت عكس الرياح وقاسيت للوصول إلى الضفة. كان عليّ أن أركع على ركبتي كي لا تتمكّن مني الهبات أكثر. تقدّمت وأنا أحشر قدمي في أطراف الصدوع. الزحف على جليد بحيرة وقد طرحتك العاصفة أرضاً درس في التواضع.

لو اشتدت الرياح أكثر قليلاً لحملتني مثل قطعة الهوكي حتى وسط البحيرة. كنت سأضطر إلى الذهاب وطلب المساعدة من الضفة الأخرى على بعد أربعة وعشرين كيلومتراً في قرية من قرى بورياتيا: «هالو، من فضلك، لقد وصلت إلى هنا مع الرياح».

هذه الليلة طقطق الكوخ بكل مفاصله. كان أنين الخشب يمتزج مع تقصف الجليد. لو كان عندي ميل للتطير، لأصبت بالهلع من تلك الأصوات.

أنا مسجون وهذا ما يغیظني. لكنني هدأت حين قرأت هذه العبارة في كتاب كروزو لديفو: «٢٤ ديسمبر. مطر غزير طول الليل وطول النهار، لم أخرج قط».

١٠ أبريل

طلع الفجر على يوم صاف وبارد. البحيرة مغتسلة. العالم جديد صقلته ثمان وأربعون ساعة من الجنون. شربت الشاي في الخارج أمام مائدتي في الجو المتجدّد. ما من نسمة. سمعت تكتكة خافتة، إنه طنين الوحدة.

قمت بزيارة لصناديقي الخشبية. المون تقلّ. بقي ما يكفيني لأطهو من المعكرونة وأغمرها بصلصة التابيسكو لمدة شهر. عندي طحين وشاي وزيت. نقص في القهوة. أما بالنسبة للفودكا، سيتوجب عليّ الصمود حتى نهاية أبريل.

جرّبت بعد الظهر مكاناً جديداً للصيد على مسافة ساعة من السير نحو الشمال، عند منفذ نهر صغير تحت منحدر تنتشر فيه أشجار راتنجية ضخمة. لم تُعطني الفتحة الشيء الكثير، ساعة كاملة في سبيل سمكة واحدة. مكثت حتى انحسار النهار جالساً فوق كرسي صغير أمل اهتزاز خيط القصب. صيد الأسماك هو آخر بند في الميثاق الذي وقّعته مع الزمن. إذا عدت بخفيّ حين فذلك لأن الزمن كسب الغنيمة. أقبل بالمكوث ساكناً لساعات، ربما سيكون هناك سمكة في نهاية الصبر، وإن

لم يكن، بئس الأمر. لن أحقد على الساعات لأنها خدعت رغبتني، إذ إن نشاطاتي ليست كثيرة بعد أن تحولت إلى رجاء خفيّ. بالنسبة إليّ، أنا الذي لم يعد يؤمن بمجيء أي مسيح، أمل فقط بوصول بضع سمكات.

في المساء، بعد أن حضّرت السمكة الوحيدة، أنهيت قراءة روبنسون وبدأت «جوستين أو شقاء الفضيلة». يجب أن أقرأ هذين الكتابين معاً، لا لكي أتخيل وصول جوستين إلى جزيرة الناجي من الغرق، بل لأن روبنسون حاول إعادة خلق الحضارة وابتكار الأخلاق، فيما حاول الماركيز أن ينسف الأولى ويفسد الثانية. خادمان للثقافة على طرفي نقيض.

١١ أبريل

بعد هدأة الليل، عادت الرياح واشتدت مجدداً. في الساعة الثانية خارت قواها. انقشعت الغيوم وغمرت الشمس سطح الباكال. حين كانت إحدى الغيمات تقوم بهجوم مضاد، كان الجليد يحتجب وترتسم الظلال خطوطاً فوق رقائق الجليد المستحمة بالنور. تنزلق أشعة الشمس كحدّ السيف فوق العاج وتتقدم لتتحسر العتمة. النور يلهو بألعاب الريح والخطر.

وسط تلك الالتماعات برزت أربع نقاط. ميّزت بمنظاري دراجات هوائية. فكرت لوهلة في إطفاء النار كي لا يستدلوا إلى وجودي من مدفأتي، ثم خجلت من هذه الفكرة.

كان الشباب قد تجاوزوا رأس الأرز الأوسط، غير أنهم غيّرُوا مسيرهم واتجهوا نحوي. سوف يصلون إلى هنا بعد عشرين دقيقة.

سيرجيه، إيفان، سفيت، إيغور، شباب يعملون في المصنع الهيدروكهربائي في براتسك. في العطلة الشتوية، يركبون دراجاتهم الهوائية ويقودونها فوق المناطق الجليدية. قدّمت لهم الشاي، أفرغوا كميات كبيرة من اللحوم المجففة ومرطباناً من المايونيز كبير الحجم دهنوا منه فوق كل شريحة من النقانق بسخاء.

- هل ترغبون في المزيد من الشاي؟ قلت.

- لا، قال إيغور وهو يغمس قطعة نقانق في المايونيز، سوف نتغدى في إيبيلوشن بعد ساعة...

- هناك الكثير من عصافير القرقف عندك، قالت سفيتا.

- نعم، إنهن صديقاتي ويعلمني الروسية.

- نظروا إليّ متعجبين، وسار عوا بالرحيل.

١٢ أبريل

ذهبت إلى إيبيلوشين. كنت أرغب في أخذ حمّام درجة حرارته ١٠٠°، مثل ذلك الذي يحسن فولوديا إعداده، وشرب البيرة في الخارج بينما يطلق الجسم أبخرته تحت مظلة الحمّام الخشبية أمام الجبال. على الطريق، وعلى مسافة ساعتين شمال كوشي، تركت زلاجتي عند منفذ نهر متجمد كان

جليده الناصع يقطع الغابة. كانت الكلابات في قدمي تتكمش جيداً. تسلقت حتى وصلت إلى ارتفاع ٨٠٠ متر بين الجروف الصخرية التي انتصبت عليها أشجار التنوب العارية. لم تكن طبقة الجليد أكثر من جسر، سمعت جريان الماء تحت قوس الجليد. تنمو على الضفاف أشجار عملاقة كثيفة حمراء، جذوعها المغطاة بالجليد كانت تشكل سيولاً من الدماء في جسم من الكريستال. الشتاء هنا مثل ملزمة النجار.

من أسفل النهر بقي أمامي سبعة كيلومترات للوصول إلى إيبيلوشين. كنت مرغماً على الالتفاف عدة مرات بسبب الصدوع الكبيرة، وكان عليّ أن أبحث عن طريقي في متاهة الانكسارات، وأحياناً القفر فوق أحدها. كانت هبات الريح تعصف زوابع من الثلج الناعم. أحب السير على الجليد. والقم، هما من الأماكن النادرة التي نتأكد فيها من أننا لا نسحق تحت أقدامنا أي دويبة. أرض مثالية لكهنة الجاينية(70) الذين يسعون إلى عدم الاعتداء على أصغر حشرة...

شرايين الجليد. إنك لتظنها خيوط الفكر. لو أن الطبيعة تفكر لكانت المناظر تعبيراً عن أفكارها. يجدر تعليم الفيزيولوجيا النفسية للأنظمة البيئية، وأن ينسب إلى كل شيء فيها شعوراً مختلف. سيكون هناك حزن الغابات، فرح شلالات الجبال، حيرة المستنقعات، صرامة القمم القاسية، أرستقراطية صوت الماء في بعض المواضع... مادة تعليمية جديدة اسمها: مركزية المنظر(71).

مازحني فولوديا حين فتح لي الباب قائلاً:

- ألم تحضر معك الأزهار لإيرينا؟

- تقديم الأزهار للمرأة هرطقة. الأزهار أعضاء تناسلية فاحشة ترمز إلى الخيانة وسرعة الزوال، تتقطع أوصالها على أطراف الطرقات، تمنح نفسها لكل هبة رياح، ولمجس كل حشرة، لأسنان أي حيوان، نُداس، تُقطف، تغوص فيها الأنوف. للمرأة التي نعشق، يجب أن نقدم حجارة، أحافير، حجر نايس(72)، أي شيئاً من تلك الأشياء التي تدوم للأبد ولا تذوي نضارتها.

هذا ما أردت قوله لفولوديا، لكن لغتي الروسية ضعيفة جداً، لذلك قلت:

- بلى، لكنها ذبلت في طريقي إليكم. ماذا عن الحمّام يا فولوديا، هل هيّأته؟

- إنه بانتظارك يا صديقي.

عند المساء، جلست فوق المقعد ورحت أنظر إلى البورياتيا تخبو ظلالها، بينما كان قطّ فولوديا فوق ركبتي. الحرارة -١٢°، الأفق سماط من الساتان. صوت طقطقة جعلت الهرّ يرفع أذنيه. كلب ينبج.

الساعة الحادية عشرة. فولوديا لا يطفئ المذياع. أنا مستلق على أرض الكوخ الدافئ بينما نستمع إلى القناة الأولى. كانوا يعلنون خبر الكارثة: تحطم طائرة التوبوليف(73) الرئاسية البولونية بالقرب من سملنسك. لقي الرئيس حتفه مع العشرات من أعضاء الحكومة. لا يوجد ناجون. كانت الطائرة تنقل الرئيس للاحتفال بذكرى ضحايا كاتين الذين تعترف موسكو بتحمل مسؤوليتهم أخيراً.

- فولوديا؟

- ماذا؟

- هذه ليست أول طائرة روسية تقتل البولونيين!

- هذا ليس مضحكاً أيها اللعين، هذا ليس مضحكاً.

١٣ أبريل

طوال الليل كان المذيع يبث الأخبار. في شبه إغفائي، سمعت الحصيعة تزداد: خمسة وتسعون قتيلاً... ستة وتسعون قتيلاً... سبعة وتسعون قتيلاً. نحو الساعة الثانية صباحاً، سددت أذني بعجينة الورق. نزعت ورقة من رواية «لورد جيم» اجتررتها ببطء (طعم الحبر كريبه)، وألصقت داخل أذني أدب كونراد(74). وكلي ظن أنني سأسمع صوت البحر.

هذا الصباح أخذني فولوديا لتفقد مجموعة فخاخه. مهمة مفتش الغابة منع المهريين من قتل الحيوانات، وفولوديا يقوم بواجبه في حدود منطقته من المحمية حصراً. كوخه قائم على الضفة اليسرى لنهر إيبيلوشين، عند الحدود الشمالية للمتزه الطبيعي. غابات التايغا من الجانب الآخر ليست ضمن المحمية، هناك يضع فخاخه.

انتعل زلاجات الثلج، عارضتان خشبيتان ألصق عليهما بالمسامير جلد حصان. وأنا تبعته بحذائي الشبكي. استغرق الكشف عن الفخاخ ثلاث ساعات. كنا نغوص في الثلج الناعم. سرنا بمحاذاة المكان الذي يلتقي فيه المنحدر الجبلي مع السفح الحراجي. كانت طيور أبو زريق تنبّه على اقترابنا وكلب فولوديا الصغير يكثر من الإنذارات الخاطئة. لم يكن يعرف أنه لا يجوز إزعاج صاحبه من أجل سنجاب. علّمه فولوديا المهنة بوابل من العواء. «هؤلاء الكلاب دون تربية نهائياً، ابن العاهرة!». من أصل خمسة عشر فخاً، عثرنا على حيواني قيزرون. أقسم فولوديا بأن الغابة خالية، وأن الحياة كانت أفضل في السابق. ما فعله الأميركيون مع ثيران البراري الوحشية، فعله الروس مع سمورياتهم. أبادوا الحيوانات ذات الفراء من أجل تغطية ظهور رجالهم. في يوم من الأيام، دخل الإنسان إلى الغابة فانسحبت الآلهة.

يمكنني أن أتعلم العيش بالقرب من حلبة تزلج شاسعة، وأتغذى بالكافيار وأقدام الدببة وكبد الأيائل، ألبس القيزرون، أذهب بين أشجار الغابة والبنديقية معلقة فوق كتفي، وحين تلامس أشعة الفجر الجليد كل صباح، أشهد واحداً من أجمل المناظر على الكوكب. مع ذلك، أحلم بحياة داخل شقة مجهزة بكل الآلات التي تقوم بالعمل بالنيابة عني، وبكل خزعبلات التكنولوجيا العالية. ينجم الإغواء بالعزلة عن حلقة في الحياة لا تتبدل. يجب أن تعاني أولاً من التخمة في قلب المدن العصرية كي تتوق إلى كوخ يطلق الدخان في فسحة الغابة. ما إن تصاب بالتراخي في ترف الراحة وتتشرنق في حرير الرفاهية، حتى تنضج وتصبح مستعداً لنداء الغابة.

عدت إلى الكوخ عند الظهر. كان الضباب يحجب المنحدرات. الضفة تلوح وتختفي، ثم تعود للظهور. كان غبار الثلج يغطي الجليد، ونعلاي ينزلقان فوقه. كنت بشوق إلى أمسية أبقى فيها

وحيداً.

١٤ أبريل

الشتاء لا ينتهي. هذه الليلة درجة الحرارة -١٥° وما من تباشير بذوبان الثلوج. يتساقط الثلج من الصباح حتى المساء. أسمع صوت ندف الثلج الخانقة. أمضيت نهاري في الكوخ أمّي، ببيضتي، جحري الذي أحسّ بالدفء اللذيذ يغمرنني فيه بمجرد تجاوز عتبه ممتناً. تمرّ الساعات ببطء من خلال النافذة. أحسست بالضجر قليلاً. هذا النهار مثل صنوبر ماء لم يحكم إغلاقه جيداً، تقطر منه الساعة تلو الساعة. الضجر رفيق قديم الطراز، غير أننا نتعود عليه. معه يصبح للوقت طعم زيت كبد السمك. فجأة يتبدد الطعم، ولا نعود نشعر بالضجر. يعود الزمن ليصبح تطوفاً خفيفاً وغير مرئي يشق طريقه عبر الكائن.

١٥ أبريل

احتجت ساعتين ونصف للخروج من الغابة. اتجهت صعوداً على امتداد الوادي الثاني إلى الجنوب من كوشي للبحث عن مكان للتخييم. رغم حذائي الشبكي، كنت أغوص حتى منتصف ساقي. جاهدت في كل خطوة. وصلت مبللاً إلى أطراف الغابة العليا في الساعة مساء. اخترت مسطحاً على ارتفاع ١٢٠٠ متر يقع فوق أرض من ركام الحجارة. على عمق مئة متر، عثرت على آثار غلطون يجري جانبياً. هذا الحيوان لا يبني في الشتاء. الجو زمهري. كانت أشجار الصنوبر القزم التي حررتها الرياح تزحف فوق كتل صخرية بلون الصدا. مدن البورياتيا في الشرق خيط أحمر. قطعْتُ أعماراً من الصنوبر كي أصنع منها فراشي، وأشعلت ناراً في الظلام. نصبت الخيمة، ألقيت فيها فراشي وغطائي. سخّنت المعكرونة على النار، ثم تمرّغت فوق سرير من الأغصان أكثر طراوة من سرير من عهد الإمبراطورية الرومانية. كنت قد أوقدت ناري بين صخرتين تبلغان من الارتفاع متراً ونصفاً، وكانت جدرانهما تعكس الحرارة. تبلغ الحرارة -٢٥° أو -٣٠°، لكنني في الدفء في قوقعتي الصخرية التي دفاها لظى النار. أحدق في تلك النقطة بالتحديد حيث وميض الجمر يندفع نحو السماء، يخبو ويلمع ببريق أخير قبل أن يختلط مع النجوم. صعب عليّ إقناع نفسي بالعودة إلى خيمتي. أنا مثل صبي لا يريد ترك مشاهدة التلفاز. من تحت أغطيتي، سمعت فرقعة الحطب، لا شيء يضاهاى الوحدة. كي تكون سعادتي مكتملة، ينقصني شخص أحكي له كل ذلك.

١٦ أبريل

فتحت سخّاب الخيمة، رمشت عيناى من نور الشمس الصارخ، فرحت بزرقة السماء، نهضت واستقبلت صورة السهل الخالي الرائع في حوض الوادي على عمق ٨٠٠ متر في الأسفل. هكذا بدأت نهاري. جاء هزّ بريّ يزور المخيمّ الليلة الماضية وترك آثاره حول الخيمة.

شعور الغبطة في صباحات المخيم. أنا هنا فوق الغابة، نجوت هذه الليلة، مكسب صغير زائد في الحياة.

تسلقت ٤٠٠ متر إضافية، عمودياً فوق المخيم. في العاشرة صباحاً، كنت على مسافة ٥٠٠ متر

من حرف القمة فقط. يرسم الساحل في البعيد منحني جيبياً، الرؤوس فيه المطال والخلجان تمثل القاع. تقترب تلك التعرجات السوداء الناتئة نحو السهل الجليدي متموجة كأنها خطط معارك، تتقدم خطوط العدو هنا وتراجع هناك. عدت إلى ناري، أزيكيتها وحضرت الشاي، حزمت الخيمة وعدت أدراجي. كان الهزّ البري قد نبّش آثار الغلطون قبل أن يعود إلى الغابة. تتقاطع فوق الثلج آثار حيوانات القيزون والأرانب البرية والثعالب. الغابة تعجّ بحياة غير مرئية. الأشنيات تداعب وجهي. أغمضت عينيّ نصف إغماضة أمام أشجار الأرز، بدت كالعمالقة المسلّحة بالهراوات. لو أن نساك الصحراء اعتزلوا في التايغا، لابتكروا ديانات تسكنها الأرواح المرحّة والحيوانات الآلهة. الصحراء تجفّف. فكرت في القديس برنار كيف كان يعود مبتهجاً من نزهته لأنه لم يلحظ شيئاً من العالم الخارجي.

عدت إلى الكوخ بعد ثلاث ساعات. الحرارة -٥٢°، لذلك تناولت غدائي في الخارج، على مائدة الشاطئ. طيور القرقف ترقص رقصة الفالس نشوانة بالدفع. نوازل الجليد تقطر من أطراف المظلة. أول يوم في الربيع تاريخ هام في السنة للإنسان.

نزل الليل عن الجبال وخيم فوق البحيرة، جاء يقضم السهل الأبيض ويحجب جبال البورياتيا المسترخية هناك وهي على يقين من أن الشمس لن تغيب عنها يوماً.

١٧ أبريل

المعتزل لا يهدّد مجتمع البشر، لكنه يجسّد انتقاده لهذا المجتمع. المتشرّد يسرق، الثوريّ المأجور يعبر عن نفسه في محطات التلفاز.

يلحم اللاسلطوي المعادي للرأسمالية بتقويض المجتمع المنصهر فيه. والمقرصن الإلكتروني اليوم، يحضّر سرّاً في غرفته لتخطيط القلاع الافتراضية. الأول يصنّع قنابله في المقاهي الصغيرة، والثاني يسلّح البرامج من حاسوبه. الاثنان يحتاجان إلى مجتمع مجلّل بالعار لأنه يشكل هدفهما، وتدمير الهدف علّة وجودهما.

يقف المعتزل قصياً بشيء من الرفض المهذّب. يشبه الضيف الذي يرفض الطبق بحركة لطيفة. حتى وإن اختفى المجتمع فسوف يتابع المعتزل حياة خلوته، أما المتمردون فسيجدون أنفسهم في عطالة بالمعنى التقني. المعتزل لا يواجه، بل يعتنق أسلوب حياة. وهو لا يفضح الكذب، لكنه يبحث عن حقيقة. يُسامح ولا يؤذي جسدياً، كأنه ينتمي إلى فصيلة وسطى، نخبة مكانها الوسط بين البربري والمتحضّر. إيفان الفارس العاشق المجنون، هام على وجهه عارياً في الغابة. صادف ناسكاً هناك، استقبله، اعتنى به، أعاده إلى صوابه، ثم أوصله إلى المدينة. الناسك مهزّب بين العوالم.

في الساعة الرابعة أغلقت كتاب «كريتيان دو تروا» (75). وذهبت أصطاد في فتحة الصيد رقم ٢، على بعد ساعة نحو الشمال مشياً على الأقدام. الفتحة رقم ١ حفرتها مقابل الكوخ حيث تنساب الضفة بصرامة. ثمة فرح في تلك الغابات ولكنها تخلو من روح المرح. لعلّ هذا ما يجعل وجوه النساك قاسية وكتابات تورّو جدية. أخرجت ثلاث سمكات سلمون مرقط طول الواحدة عشرون سنتيمتراً،

انتهت في المقلاة محشوة بالعنبيات مع القليل من الزيت. اللحم لذيذ جداً، طريّ، يلائم جداً مشروب الفودكا. كل شيء يلائم الفودكا. باستثناء القبلات مع فتاة. أنا لا أخطر بشيء إذاً.

١٨ أبريل

دخل سيرجيه كوكي في الثامنة صباحاً. كان قد ذهب لزيارة فولوديا في إيبيلوشين ولم أسمع سيارته تعبر عرض البحيرة. وككل مرة، يدخل دون أن يطرق الباب، أطلق صرخة وأحتاج إلى دقيقة طويلة لاستعادة توازني الداخلي الذي يبلبله تطفله. الشاي هذه المرة لم يكن جاهزاً، وهذا ما جنبني إراقتة.

- كوخك مرتب جيداً. عندما كان فولوديا، تظن أنه «كوخ ألماني».

- آه هل هذا صحيح؟

- هل تريد المجيء إلى بوكوينيكي؟ أصطحبك معي.

- طيب... ولكن نشرب الشاي أولاً؟

- لا، هيا لنذهب.

بعد عشر دقائق، أغلقت الباب بالقفل وصعدت إلى السيارة. رحنا ننزلق نحو الجنوب. في روسيا كل شيء ينجز بعجلة. الحياة فيها غفوة طويلة تقطعها الاختلاجات. كان في بوكوينيكي ورشات بناء كبرى. سيرجيه ويورا صاحباً العيون الباهتة، استغلا التجمّد لبناء جسر عائم فوق أوتاد مائة وسط سبخة تمتد في الجانب الشمالي للخليج، ويسمونها «الجزيرة». بواسطة عتلات من الخشب والرافعات والحبال، أمضينا بعد الظهر في رفع مقطورة من المعدن فيها سرير ومدفأة إلى المنصة الخشبية.

تنتهي حدود المحمية تنتهي عند شريط الساحل الرملي. ما وراء الساحل لا يخضع للقضاء. بالنتيجة، ستكون الجزيرة أرضاً مستقلة بذاتها، قال سيرجيه.

- حرة؟ قلت.

- نعم ذات سيادة مستقلة وحرّة. لقد خلقنا للتوّ «أرضاً ذات حكم مستقل وحرّة لبوكوينيكي».

كان في غابة الأرز خيالات تعبر. خيول تنفادي جذوع الأشجار بمهارة، تتصاعد من قصبات أنوفها سحب من البخار، تضرب حوافرها الثلج كصوت قبضة تضرب وسادة من ريش. تعود تلك المواشي لمزرعة يهتم بها موظفو محطة سولينشنايا للأرصاد الجوية، تقع على بعد كيلومترين شمال بوكوينيكي. عادت تلك الخيول إلى حالتها البرية في عام ١٩٩١م حين انهار الاتحاد السوفييتي وغادر الناس المنطقة. عند حلول الليل، جاء حصان خافض الرأس بعمر أربع أو خمس سنوات يتسكع بين الأكواخ، ثم استلقى قبالة البحيرة. كان قد ترك القطيع كي يموت. أطلق سيرجيه تنهيدة وأرداه بطعنة من مديته في الشريان السباتي. قمنا بتقطيعه بالبلاطة. كانت أحشاؤه تطلق البخار في البرد، وأخذت طيور أبو زريق مراكزها فوق قمم أشجار الصنوبر، اندلقت الأمعاء مرتعشة،

متشابكة كلياً، ناعمة حريرية. هبط الليل فوق ذاك الفيض من الأحشاء. كانت الكلاب تنتظر، وسُمح لها بالأكل أخيراً.

إنه الليل، وبوكوينيكي في حركة بسبب حدث هامّ، فلقد جاء مدير المحمية الجديد س.أ يزور مفتشيه برفقة رجاله المأجورين الذين كانوا يفرغون صناديق الفودكا والكونياك. رحلت أرمق الصناديق لما تحويه ويمكن أن يمحو من ذاكرتي صورة الجواد الذي استقبل الموت وهو يلهث. أعدت ناتاشا حساء من لحم الأيل. مدّت فوق المائدة سفرة على الطريقة الروسية: خليط من شرائح سمك القط المشوية وقطع لحم الألكة والنقانق السيبيرية. شربنا حتى النسيان.

- أين ولدت أيها المدير؟ سألت.

- في جمهورية توفاء، قال.

- إنها مسقط رأس لينين، قال سيرجيه.

- لنشرب إذأ نخب الديكتاتوريين الذين يحكمون الإمبراطوريات والمحميات الطبيعية.

- ونخب توبوليف، قال أحد جنود س. أ.

- لماذا؟ قلت.

- أفضل طيارة في العالم، تحطّم معها البولونيون للتوّ.

أهدت ناتاشا المدير كيساً من السمك المجلّد. مع أنه رجل أعمال، إلا أن عينيه لمعتا من الفرح. لاتزال ذكريات الأزمنة الصعبة سائدة هنا.

١٩ أبريل

للكونياك آثار مزعجة. الساعة التاسعة وأشعر أن قطاراً يعبر داخل رأسي. أيقظني يورا ذو العينين الرماديتين بلون الطوافي الجليدية. يجب رفع الشباك. رافقنا ساشا صاحب الأصابع المقطوعة. في الشاحنة الصغيرة، نمت من السكر متراخياً فوق الحبال وكنت أسمع الرجلين يثرثران بموضوعهما المفضّل:

- لماذا يوجد الكثير من المسلمين عندكم؟

بالنسبة إلى فلاح روسيّ، فرنسا تقدم له موضوعين يتعجب منهما: شعب الجيش العظيم يتوسّل مساعدة حكومته حين يسقط سنمتران من الثلج، وكيف يترك المدن تحترق بينما هناك ثلاثة آلاف جندي موزعون في الجبال الأفغانية. في كل مرة يحدثني ساشا بهذين الموضوعين.

تقع عربة الصيد على بعد خمسة عشر كيلومتراً من بوكوينيكي. داخل هيكل الصفيح، يوجد عارضة خشبية مثقوبة، فوهة تصل بفتحة في الجليد. هناك موقد يعمل على الغاز يدفئ هيكل المقطورة. كنا نعمل بقمصاننا الصوفية. بدأنا رفع مئات الأمتار من حبال الصيد بواسطة ملفاف رافع يصدر صريراً مع كل دورة. لمدة ساعتين، استمر يورا بتدوير الآلة وعيناه في الفراغ. ظهرت

الشبكة فجأة من الأعماق. سحب الرجلان الشعر البلاستيكي من المياه، وراحا ينزعان عنه أسماك الأومول. امتلأت أكياس البلاستيك بمئات الأسماك. في النور الأزرق الفيروزي، تهدي البحيرة ثمارها. أغرب ما في الأمر أنها تستمر في تقديم هداياها بعد آلاف السنين من النوم. الغداء: خمس سمكات ألقيت في مقلاة عميقة غمرت بثلاثة كؤوس من الساماغون، كحول بلون الكراميل يحضّره ساشا بنفسه في منزله الصيفي في سفيروبايكالسك. أوصلني سيرجيه إلى بيتي. رافقنا الصمت ونحن ننزلق ببطء فوق سطح البحيرة المرسوم. عروق الجليد، الطوافات الجليدية المتشظية، جيش أشجار الصنوبر والتلج على كواهله، ثنايا الغرائيت الأسود، كانت ترسم كلها فوق صفحة السماء لوحة الآلام. لوحة فرايدريك (76) مقارنة بها تشبه الفن الهاييتي. اعترض طريقنا صدع في الجليد.

- حدث اليوم، قال سيرجيه.

- كيف سنمر؟ قلت.

- قفزاً... قال سيرجيه.

- وماذا ستفعل عند العودة؟

- سأدور من حوله.

لم يكن حرفا الصدع يتوضعان على المستوى نفسه. حين يلعب الجليد يرفع أحد الطرفين. باستخدام هذا الانفكاك ينجح السائقون أحياناً في تمرير عرباتهم فوق العقبات. أنا أثق بسيرجيه، لكنني شعرت بانقباض في صدري عندما رسم إشارة الصليب ونحن على مسافة خمسين متراً من الفتحة قبل أن ينطلق بأقصى سرعة. ثم عبرنا.

٢٠ أبريل

هنا تتوقف يومياتي تسعة أيام لأسباب إدارية. أرغمتني السلطات الروسية على العودة إلى الحضارة لأحصل على تمديد للفيزا. انسلخت عن البحيرة، ركبت الطائرات، حاصرت الممثلين الدبلوماسيين والثقافيين الذين يدخلون في سبات طوال السنة بعمق أكثر من الدببة، حصلت على الختم الذي كنت أطمع به، أوصدت أذني كي لا تمتصني المدينة الكبيرة، أنام خمس ساعات في اليوم مشدوداً كالكفوس، أشرب الخمر بجنون. وأخيراً ألقيت حمولة من المؤن ومعدات الصيف في صندوق الشاحنة وعدت من حيث أتيت، رجعت إلى ضفة البحيرة، أمام الرأس الجنوبي لجزيرة أولكون حيث كان ينتظرنني القارب المروحي الذي أوصلني إلى هناك.

٢١ أبريل

القوارب المروحية هي درّة الصناعة الروسية في المعدات الثقيلة. تندفع الآلة بقوة مروحة تتوضع فوق وسادة هوائية. لا تعبأ بالصدوع التي تشجّ طبقة الجليد في نهاية أبريل. خلال أربع ساعات، وصلنا إلى بوكوينيكي في هدير طائرة أنتونوف (77). منذ رحيلي صار غطاء البحيرة حليبياً. ذاب الجليد قليلاً، وأصبح هناك طبقة لؤلؤية تتموّج على السطح، تتصدّع تحت الأقدام. لدى

عبورنا قرية زافاروتنو، توقفت عند ف. إي. الذي ائتمني على جروين من كلابه الاثني عشر. أياك  
الأنثى السوداء، وبيك الذكر الأبيض. لهما من العمر أربعة أشهر. سوف ينبحان إذا اقتربت الدببة  
من الكوخ في نهاية شهر مايو. معي الآن أيضاً مسدس إشارة. في حال الهجوم، يكفي أن أطلق النار  
بين قوائم الحيوان. دوي الانفجار وحزم الشرر كفيلة بالتغلب على سورة الدب عادة.

عدت إلى الكوخ فرحاً مثل جندي يعود إلى دبابته. حسب مزاجي، ملجئي بيضة، رحم، نعش أو  
سفينة من خشب. ودّعت الأصدقاء. أية سعادة اجتاحتني حين تلاشى هدير محركهم!

٢٩ أبريل

الشتاء لا يزال قاطناً هنا. وحده مظهر البحيرة الداكن يشير إلى أن الربيع يسنّ أسلحته.

ذاب الثلج قليلاً في الفسحة كاشفاً عن المزيد من النفايات التي راكمها سلفي منذ عشرين عاماً.  
الشعب الروسي الذي يمتلك قدرات تفوق البشر لدحر أعدائه، لا يجد القوة لرمي الزبالات في حفرة.  
نقلت إطارات عجلات، هياكل محركات وحطام محرك إلى ما وراء جدران الحمام. عادت الفسحة  
وأصبحت خالية. يتسارع الضباب فوق الضفة ويقف فوق رؤوس أشجار الصنوبر، وأحياناً يخترقه  
شعاع ذهبي. في هذا الجو الخيالي، ذهبت إلى الصيد. تلحقتي الجراء إلى كل مكان. أصبح ظلي كلباً.  
المخلوقان الصغيران تُركا لي. الكلب حيوان طيب يؤمن بنا. في بعض المواضع كانت المياه قد  
تخللت الجليد وطبعت انعكاسات لازوردية فوق المينا البيضاء القشدية. أمام فتحة الصيد، جلس  
الجروان بصبر. قدمت لهما أحشاء ثلاث سمكات سلمون مرقط اصطدتها.

الرحلة إلى المدينة عزّزت حبي للحياة في الكوخ. الأكواخ مصابيح خابية معلّقة في سقف الليل.

٣٠ أبريل

التايغا سوداء. اختفى الثلج عن أغصان الأشجار. الجبال مدموغة ببقع داكنة. أياك وبيك يسارعان  
إلى تحت النافذة عند أنوار الفجر الأولى. حين يحتفي بك في الصباح كلبان، يصبح الليل طعم  
الانتظار. الكلب وفيّ لا يطلب شيئاً، ولا حتى أي واجب. يكتفي بعظمة. ما هي الكلاب؟ نتركها تبيت  
في الخارج، نتحدث إليها كأننا نتحدث إلى سائق الطنبر، نزرها، نطعمها البقايا، وبين الحين  
والحين، طاخ! لطمة على أضلاعها. ما نقدمه لها من ضربات، تعيده إلينا لعباً. فهمت الآن لماذا  
جعل البشر الكلب أفضل صديق لهم. إنه حيوان مسكين لا ندفع له ثمن خضوعه بالمقابل. مخلوق  
يستجيب على نحو رائع لما يمكن للإنسان أن يقدمه له.

لعبنا على الشاطئ، أرمي لهما عظمة الأيل التي عثرت عليها أياك. لا يملّ الكلبان أبداً من  
إحضارها لي، إنهما مولعان باللعب بها. هذان المعلمان الصغيران يعلمانني أن أسكن الوطن الوحيد  
الذي يستحق: اللحظة. خطأنا نحن البشر أننا فقدنا حماس الكلاب بإحضار العظمة نفسها. كي نكون  
سعداء، يجب أن نراكم في بيوتنا عشرات الأشياء الأكثر فأكثر زيفاً. الإعلان التجاري ينادينا:  
«اذهب واشتر!» الكلب قام بتنظيم مسألة الرغبة هذه على نحو يثير الإعجاب.

سرت طويلاً مع الكلبين الصغيرين حتى رأس الأرز الجنوبي. هبت الرياح وتمزقت السماء. من

خلال الغيوم، ألقى الشمس أشعتها على التايغا سيولاً سهباء وطبعت فوقها أطواقاً مذهبة. وكان يلتمع في الجبل أحياناً وجه جرف صخري مهشم. صدوع الثلج القديمة التي لم تتجمد هي بمثابة أفخاخ، والعين لا تقدر ثخانة الطبقة تماماً. يتوقف الكلبان عن السير أمام منطقة مغمورة بالمياه، يئنان ويرفضان التقدم، لكنني كنت أوصل سيرتي بخطوات حذرة كي أبين لهما أن بإمكانهما المرور. صقر يحوم في البعيد والرياح تحمل شذرات الجليد حزماً، وحين تصادف شعاعاً من الشمس، تحوله غباراً ذهبياً. الغابة تزمجر تحت رياح العاصفة. قوى الربيع حاضرة هنا، أشعر بها تستعد، لكنها لا تجرؤ حتى الساعة على ردّ الهجوم.

السماء رائعة، ذاهلة بالهواء النقي، مذعورة بالنور. صورٌ جمالها ساحق تلوح وتختفي. هل هذا ظهور إلهي؟ لست قادراً على أخذ أي صورة. ستكون الإهانة مزدوجة حين سأذهب للصيد لامبالياً وألعلن اللحظة.

عندما وصلت إلى الرأس الذي سأصطاد فيه، على بعد عشرة كيلومترات من الكوخ، بالكاد تستنى لي الوقت لرفع المتقاب اليدوي. أمرتني الرياح العاتية بالانسحاب. عدت راکضاً والكلبان ورائي. أوقفنا هبات العاصفة التي كانت تثير ذرات كريستالية لاسعة. صار الكلبان يحميان خطميهما بقوائمهما الأمامية. ساعتان كاملتان، ونحن نناضل للوصول إلى الكوخ ضد اليد غير المرئية.

غداً الأول من شهر مايو. ترى هل تعيش في التايغا أزهار زنبق الوادي؟

## مايو الحيوانات

الأول من مايو

في شهر فبراير الماضي، وعلى بعد كيلومترين إلى الشمال من الكوخ، وضع فولوديا ت. في مدار أحد الخلجان سلّة مصيدة لأسماك الجرّي. كانت ملقاة فوق الجليد مثبتة بأوتاد خشبية. صنعت ثقباً في الفتحة القديمة وألقيت فيها شبكة علّقت في قعرها رؤوس السمك. كان الكلبان يحرسانني في حال خرجت عروس البحر من الفتحة وارتمت في أحضانني.

أنا إمبراطور هذه الضفة، سيد جرائي، ملك أرز الشمال، حامي عصفير القرفف، حليف الهررة البرية وشقيق الدببة. أنا على الأغلب ثمل قليلاً، لأنني بعد ساعتين من تقطيع الحطب، شربت زجاجة فودكا كاملة.

العيش في محمية طبيعية له بعد رمزيّ، إذ إن الإنسان ينساب فيها انسياباً فحسب. ما الأثر الذي يتركه؟ آثار أقدامه على الثلج. أمامي على ضفة البورياتيا «محمية الغلاف الحيوي»، زيارتها ممنوعة. إن فكرة تحريم مساحات من الأرض تستمر فيها الحياة دون البشر تبدو لي شاعرية. حيوانات وبشر وآلهة تكبر وتزهو بعيداً عن الأنظار. بوسعنا أن نتخيل حياة برية تتوالد هناك في مأمن، هذه الفكرة بحد ذاتها إكسبير. ليس المقصود حرمان الإنسان من حق الانتفاع من الغابات والأراضي البور والبحار، إنما إنقاذ بعض المساحات المختارة من شهواتنا. لكن المتحذلقين ساهرون يشحذون خطاباتهم عن ضرورة حماية البيئة في خدمة الإنسان وليس بوسعهم المعاناة إذا حرموا من منديل ورقي صغير، هم المتعالون فوق سبعة مليارات إنسان...

٢ مايو

رذاذ حبيبات الجليد يعكّر لون التايغا البرونزي. قررت السماء إرسال شيء آخر غير ندف الثلج. يوم لقراءة «ميرسيا إلياد» (78) (كتاب لانتظار الربيع: أسطورة العودة الخالدة)، ولتفريغ الفسحة من آخر هياكل فولوديا ت. في المساء، جرّبت فتحة جديدة للصيد عند مصب نهر أرز الشمال. صار عندي الآن أربعة أماكن لخيطان الصيد: أمام الكوخ، عند طرف الرأس، على مسافة ساعة مسير شمالاً، وفي أقصى الخليج حيث جدّدت فخ أسماك القط. جلست فوق كرسيي الصغير ورحت أدخن متأماً خيط السنارة.

يندفع الجروان إلى ساقّي في كل لحظة. لقد وجدا عندي من يستجيب لحنانهما. هما لا يعوّلان على ذكرياتهما ولا يجدان لذة فيها. ما بين الرغبة والحنين، ثمة نقطة اسمها الحاضر. يجدر بنا التدرب على البقاء فيها متوازنين، مثل المهرجين الذين يتلاعبون بالكرات وهم يقفون فوق فوهة قنينة. الكلاب توصلت إلى ذلك.

قال لي ف. إي وهو يعهد إلي بهما: «امنعهما من الاقتراب منك كثيراً». أنا أكثر مدربي الكلاب

إثارة للشفقة في شرق الأورال، غير قادر على منع أيكاً وبيك من فيض عاطفتهم. الناس يعلمون الكلب الاستلقاء ويجاهرون بأنهم قومه. وأنا أتقبل طيش المخلوقين الصغيرين ولم ينلني منهما سوى آثار قوائمها فوق قماش سروالي.

عدنا إلى البيت مع العشاء: ثلاث سمكات سلمون مرقط. سوف أقدم للكليين هذا المساء الرؤوس والأحشاء التي سأمزجها مع يخنة الطحين وشحم الخنزير الذائب. في البعيد، الشمس تمزق بعض الثغرات في الغيوم. لا شك أن موقع الجنة هنا: جمال لا عيب فيها، لا وجود للثعابين، ويستحيل أن يعيش الإنسان عارياً، وهناك الكثير من الأشياء لتقوم بها كي يكون لديك الوقت لاختلاق إله.

٣ مايو

هذا الصباح، الفجر عالق في غلالة شفافة. صعدت إلى أعلى «الوادي الأبيض». كان الثلج في الغابة مشبعاً بالمياه. صعب جداً على الجروين اللحاق بي، كانا يغوصان في آثار حذائي الشبكي. في جوف الوهد، في الموضع الذي وصلت فيه إلى المنحدر لتسلق الحرف الغرانيطي كان قد عبر دبّ وعاد إلى الجهة الأخرى. انتهى السبات الشتوي. سفراء الربيع هنا: استيقظت الدببة، وصلت طيور الذعرة، تشقق الجليد. البندقية في حزامي، الكلبان يكشفان لي الطريق، لا خطر عليّ إذاً. فضلاً عن ذلك، الدببة تعرف أن الإنسان ذئب بالنسبة إليها وتتجنب لقاءه.

أنا على ارتفاع ١٠٠٠ متر، أجلس فوق حدّ الجرف على غصن صنوبر قرزم، ظهري مسند إلى صخرة، ساقاي في الفراغ، وعند قدمي صف من أشجار الأرزية الصفراء الذهبية، أشاهد الضباب يمتدّ فوق الضفاف وتضطدم موجته القطنية بأطراف الغابة. قطعت سيكار بارتاغاس. من يهوى السيكار مثلي يستمتع بالدخان حين يلفه. النفخات تقدمت ذبيحة دون أدية، تصل الإنسان بالآلهة. أحب الضباب، بخور الأرض هذا. يحلم كل مدخن بالاختفاء في سحبه.

٤ مايو

عادت البلاد هذا الصباح إلى ثلوج الزمن الماضي. في البعيد عند الأفق بزغت دراجة نارية ملحق بها عربة جانبية وتوقفت عند ضفتي. لم ينبح الكلبان وهذا مؤشر سيء على مقدرتهما على تحذيري في حال تطلعت الدببة! إنه أوليغ، صياد صادفته مرة أو مرتين، كان قادماً من إيبيلوشين باتجاه زافاروتنو. كان يقود دراجة نارية بلانيتا 750cc من الزمن الغابر، آلة من الثمانينات محركها أفضل من دراجات «أورال» 650cc ، لكنها لا تتمتع بأناقة الدراجات الحربية ذوات العربات الجانبية. غير أن أوليغ قانع بها.

الفودكا لذيدة، الثلج يتساقط، وأوليغ أحضر معه الخيار. قطعناه إلى شرائح رقيقة ورحنا نقرمش مع كل جرعة شريحة. لم يتحدث أوليغ منذ زمن طويل.

- آه حين أفكر كم كنت أخشى الرأسماليين، وها أنا أرى كم أنت لطيف! يجب أن تأتي أكثر إلى إيبيلوشين. لا يزال بإمكاننا القيادة على البحيرة لخمس عشرة يوماً قبل أن تتفتح من كل مكان ولا نستطيع السير خطوة واحدة دون المخاطرة بكسر أعناقنا. سيصل الإوز والبط، سوف ترى، ذات

صباح سيكونون هنا. تنطلق أسرابهم من الصين أو من تايلاند، أو من واحدة من تلك الجنان الرائعة. ذات يوم، حطت إوزات عندي بالقرب من البحيرة، ثم عششت في قاربي. وصل صيادون يريدون إطلاق النار عليها ببنادقهم. وقفت بينهم وبين الطيور وقلت لهم: حاولوا فقط وسوف أسحق وجوهكم بقبضتي. لا أحب أن يطلق النار على طيور نائمة في قاربي. السنة الماضية، عثرت على صغير فقمة سقط فوق حصى الضفة، أطعمته كل الصيف.

تخيلت أوليغ بيديه القويتين الفظتين تعطيان الرضاعة للحيوان الصغير. منذ قليل حين اقتربت الدراجة، قلت لنفسى: «ليت هذا الوغد الذي اخترق عزلتي يكمل طريقه ويرحل». الآن نحن شقيقان ونشرب قنينة فودكا معاً.

- آه، صحيح، قال، إيرينا تهديك علبة الخميرة الصغيرة هذه.

كنا قد وصلنا إلى آخر زجاجة السمّ. تابع أوليغ طريقه، وأنا تهاويت فوق سريري.

٥ مايو

مقاطعة البورياتيا تُعيد لنا الشمس في السادسة والنصف صباحاً.

الخميرة غيرت كل شيء في فطائر البليّني.

أعلن الكلبان الحرب على عصافير الذرة البيضاء.

طبقة الثلج الرقيقة فوق البحيرة تمنحها مظهر صحراء سالار دو يوني (79).

أحتاج إلى ثلاث دقائق لتقطيع إحدى قرمات الصنوبر إلى حطبات، القرم التي قطعها سيرجيه منذ ثلاثة شهور.

الحرارة - ١٠° ليلاً، وبالكاد تكون فوق الصفر نهاراً.

لحاء شجر البتولة أكثر فعالية في إشعال النار من الطحالب الجافة.

الكلب الأسود يُرى من بعيد فوق الثلج. في الصيف، هو من سيكون أقل تمويهاً فوق الضفاف الرمادية الفاتحة.

لشخذ الفأس، يكفي سنّ نصله بحصاة بصبر.

تتجمّع الأسماك بشكل طبيعي تحت فتحات الصيد مباشرة.

الفودكا المذابة في الماء تشكل منظم زجاج لا عيب فيه.

كانت حماقة مني أن أعلّق مصباح الكيروسين في سقف الكوخ كما فعلت البارحة. كان يمكن لدعائم الخشب أن تشتعل.

ثمة شعور بالغبطة مرده الحفاظ على داخلي المنظم.

طهي سمكة السلمون مغلفة بورق الألمنيوم دون قشر حراشفها وتفريغ أحشائها يعطيها طعماً أقوى.

عند الساعة السابعة، تلامس أنوار الفجر طاولتي، وفي الثانية ظهراً قائمة السرير، وفي السادسة مساءً، تندرج الشمس وراء القمم.

لم تخرج أي حشرة حتى الآن من رقادها.

عند الكأس الخامسة من الفودكا تصبح مقاومة السادسة أصعب.

حين لا يكون لديك الكثير لتقوم به، فهذا يجعلك تولي انتباهاً لأصغر الأشياء.

هذه هي ملاحظات اليوم.

٦ مايو

الجليد مؤشر للزمن. قريباً سوف يطلق الربيع رصاصه الرحمة. تغلغلت المياه في طبقة الجليد وحفرت فيها أخاديد عمودية متناهية الصغر، كأن الديدان قرضت الجليد. يجب أن أنتظر اليوم الذي ستنتفتت فيه وتصبح بلورية مثل عيدان الخبز المقرمشة. لم يعد السطح المجدرّ جميلاً كالزجاج البركاني الأسود، أصبح قاسياً كالمعدن، وتقتشر لونه اللؤلؤي.

أقوم بنزهات لا تحصى محاطاً بأيكاً وبيك. أروح وأغدو من رأس إلى رأس، والغربان تهزأ بي عند كل رواح ومجيء.

٧ مايو

هذا القفص في المياه الجليدية الذي يعج بسمك الجرّي مخيف. علقت في الفخ ست سمكات. الآن فهمت لماذا تعتبر الكثير من الشعوب السمكة كائنات شيطانية. للسلوريات وجه وحش صيني وأجسام زلقة بلون برونزي وأصفر... فيها شيء من غولوم (80) في قصص تولكين. تركت أربع واحتفظت بأكبر اثنتين، قتلتهما بضربة على العنق. حتى الكلاب لم تجرؤ على الاقتراب من الأجسام الرخوة. إنها متعة كبرى أن تعيد الحرية لحيوان. تحية للقائد شاركو (81) الذي فتح باب القفص لنورسه قبل أن يغرق في المياه الإيسلندية بلحظات. فوق طاولتي الخشبية على الشاطئ، أفرغت السمكتين ثم ملأت الموقد الحجري لأطهوهما عليه. لحم السلور مطاطي خفيف الطعم، ويجيش النفس بعض الشيء. هناك العديد من الطرق لتحضيره، أفضلها رشه بالطحين كلياً كي تغطي قشارة الطحين المحمص الدهنية طعم طين البحيرة. يتبع الإنكليز هذه الطريقة مع كل ما يقع تحت أيديهم. مازلت أذكر أوراق الصحيفة الزيتية التي كنا نستعملها كسماط صغير لطبق السمك ورقائق البطاطا في برايتون (82). حضرت يخنة للكلبين الصغيرين. احتفظت لنفسي بالترف: كبد سمك السلور مطبوخ في مقلاة مع جرة من الفودكا.

لكثرة ما التهمت سمكاً منذ أشهر، أصابني تحوّل. أصبحت طباعي بحيرية، صرتُ صموتاً أكثر، أبطاً، ابيضت بشرتي، صارت تنبعث مني رائحة حراشف، توسعت حدقتاي وتباطأ قلبي.

مشيت طويلاً على البحيرة حتى رأس الأرز الأوسط. كانت الريح تنشر فوق البحر رائحة الخشب الرطب. درجات الحرارة الموجبة قليلاً حرّرت عطر التايغا. الربيع لا يعدو أن يكون أكثر من رعشة، لكن السماء لا تزال باردة والشمس فيها نقطة دافئة فحسب. ذابت الماء ما بين الصدوع، وعند الواسعة منها لا يمرّ الجروان. أحمل أحدهما بين ذراعيّ وأجتاز الصدع، ثم أعود لأخذ الآخر الذي يتوسل بأنات ضعيفة ألا نتركه...

في أرز الوسط كوخ مهذّم. كان قد اختبأ فيه رجل حتى سقوط الاتحاد السوفييتي في العام ١٩٩١م. عندما كان رجال الاستخبارات الروسية يقتربون، كان يهرب إلى الجبال ويبقى هناك بضعة أيام إلى أن يزول الخطر. لم أتمكن من معرفة ما إذا كان منشقاً أم فارعاً من الجندية. اليوم بقي كوخ من القش مهذّم السقف. حين دخلت إليه فكرت في ذاك الرجل. بعد تبوء يلتسن الحكم، عاد إلى إيركوتسك ومات فيها على الفور. كم وددت لقاءه، كنت لأحضر له مائدة مفتوحة في بيتي. عثرت بين أنقاض الدعائم الخشبية على قاعدة مصباح زيتي وفنجان.

في روسيا، تمدّ الغابة أغصانها للغرقى. فلاحون، قطاع طرق، أنقياء قلوب، رجال مقاومة، كل من لا يحتمل الخضوع للقوانين المكتوبة يلجأ إلى التايغا. لم ترفض الغابة من لجأ إليها قط. أما الأمراء فإنهم يرسلون حطّابيهم لقطع الغابات. من أجل إدارة بلد ما، يقتضي اقتلاع أشجار الغابات. في مملكة يحكمها نظام، آخر معقل للحرية يسقط هو الغابة.

الدولة ترى كل شيء. في الغابة يعيش المرء مختبئاً. الدولة تسمع كل شيء، الغابة معبد الصمت. الدولة تراقب كل شيء، هنا، وحدها القوانين قديمة العهد، الأقدم من الزمن هي السائدة. الدولة تريد كائنات خاضعة، قلوباً جافة في أجساد لائقة. التايغا تجعل البشر بدائيين وتطلق سراح الأرواح. الروس يعرفون أن التايغا موجودة فيما لو ساءت الأوضاع. هذه الفكرة متجذرة في لاوعيهم. المدن تجارب مؤقتة سوف تلغيها الغابات في يوم من الأيام. في الشمال، في بلاد ياكوتي الشاسعة، بدأت عملية الابتلاع. تستعيد التايغا هناك مدن المناجم التي غادرتها البيريسترويكا(83). بعد مئة عام، لن يبقى من تلك السجون الموجودة في العراء سوى خراب مطمور تحت الأشجار المورقة. تزدهر أمة باستبدال السكان. البشر يحلون محل الشجر. ذات يوم سوف ينقلب التاريخ وتدحر الأشجار البشر.

أيها الرافضون(84) في كل البلاد، تعالوا إلى الغابات! سوف تجدون فيها عزاء لكم. الغابة لا تحكم على أحد، لكنها تفرض قانونها. تقدّم احتفالها السنوي في آخر شهر مايو. تعود الحياة وتسخن الأيكات الصغيرة بنوع من الحمى الكهربائية. في الشتاء لا تشعر بأنك وحيد البتة: صيحة الغراب، زيارات عصافير القرقف، آثار القط البري تبدد الضجر. في حال أصابك الحزن، يكفي أن تفكر في مبدأ إعادة الخلق الرائع. تموت الأشجار، تسقط وتتحلل، وفوق الدبال، ذاكرة الغابة، تولد أشجار جديدة لتعيش قرناً أو قرنين من الزمن وتبدأ في التناول نحو السماء.

بيك الكلب الصغير الأبيض ينزف. الجليد سلخ وُسيدة قائمته الأمامية اليمنى. دهنتها بمزيج من الزيت ودهن سمك السلور. هل توقع علم التطور أن كبد سمك السلور يمكن أن يشفي جروح الجراء السيبيرية؟

عبر السهل الرمادي والأبيض المصدّع بجراح الماء العسر، ذهبت إلى بيت فولوديا في إيبيلوشين في زيارة مجاملة. قوائم الكلب بيك تتحسن. مشى الكلبان جنباً إلى جنب، وخلال خمس ساعات قطعنا المسافة. كان علينا إيجاد طريقنا عبر متاهة الصدوع وسط خليج إيبيلوشين. هناك صقر كبير يخلّق، لعله يحرس فقمة نافقة.

جلست إلى مائدة فولوديا ورحت أشاهد عبر النافذة تعاقب صور روسيا الخالدة. للحديث عن المناطق النائية يستخدم الروس مصطلح «غلوبينا»، أي العمق. إيرينا تطعم إوزتها في الحديقة وعلى رأسها منديل صغير. مرّ تيس، تبعه قطّ. تشبه هذه النافذة لوحة لريبين (85). يمكن أن يكون عنوانها: يوم في سيبيريا. الكلاب تتصارع. عند وصولنا إلى إيبيلوشين، اندفع بيك وأيكا، رغم أنهما بعمر أربعة أشهر، نحو كلاب فولوديا الخمسة يريدان القضاء عليهم. صحيح أنهما عوقبا، لكنني شكرتهما على عنتريتهما. يمسك فولوديا فنجان الشاي بيده الضخمة ويقضم ليمونة حامض. في المذيع الذي ينزّ قليلاً، إيف مونتان يغني «الأوراق اليابسة». بدأ المذيع بخطاب طويل عن عظمة الجيش الأحمر. يصادف غداً التاسع من مايو، الاحتفال بذكرى النصر. الروس في العام ٢٠١٠م ولا يزالون غير مصدقين أنهم هزموا الفاشية. خمسة وستون عاماً كأنها لم تمر. يتحدثون عن النصر كأنه حدث في أمس.

- فولوديا، ما آخر الأخبار، عدا انتصاركم منذ خمس وستين سنة؟

- لا شيء. بلى في فلوريدا، هناك مدّ بحري أسود. السواحل الأميركية كلها تلوّثت.

جولة على فخاخ الأيائل. الطريقة بسيطة. صفيحة معدنية يتم شقّها بخمس فتحات بالمنشار على شكل نجمة، توضع فوق حفرة تغطى بالعشب، ثم كتلة من الملح لجذب الحيوان. حين يضع قائمته فوق الفخ يعلق. تذكارات صيد الأيائل ثمينة جداً في المدينة. وكأن شعوراً بالواجب استولى على الإنسان: تفرغ الغابة.

في المساء، سألت فولوديا:

- هل عندك رقعة شطرنج؟

- نعم، ثاني أذكى لعبة بعد شدّ الحبال.

لعبنا وخسرت. ثم أنهيت قراءة كتاب «فوكيه» للكاتب بول موراند (86). أمارس تمريناً أساسه الاستغراق في قراءات تدفع بي إلى النقيض التام لحياتي الحاضرة. الغرابة في الأمر هو أنني أبحر في الدسائس السياسية، وتعقيدات بلاط فيرساي السخيفة، وأحقاد الكاردينال مازاران، ومحارق الرهبان الجنسانيين المتمتمتين، فيما تحركّ الريح بلطف أشجار الأرز السيبيرية. سؤال: من كان سيصمد لوقت أطول، فولوديا في بلاط لويس الرابع عشر، أم أمير مقاطعة كونديه في غابات التايغا؟ كتب موراند: «أمام فوكيه، الطبيعة هي التي ترتجف. كأنها ترحف كي لا يعود أحد يراها وتُنسى، لكثرة ما أعاد المبشرون وكتاب المسرح على مسامعه أن لا سلطة للطبيعة على الإنسان».

أقمت في كوخ كي أنسى ما لقننا إياه المبشرون وكتاب التراجيديا.

٩ مايو

كتب موراند في الفصل الثاني: «هناك ثلاث طرائق لتبدأ حياتك: المتعة في البداية والجدية لاحقاً. أو أن تعمل جاهداً في البداية كي تأخذ بثأرك في النهاية. وأخيراً، أن تستمتع وتعمل في آن واحد». الكوخ هو مكان للطريقة الثالثة.

في الثامنة صباحاً، جاء دب بوزن ثلاثمائة كيلوغرام يجول فوق المنحدر الرملي، إلى الجنوب من الفسحة الصغيرة لإيولوشين. لجذب الحيوانات، ملأ فولوديا الصفائح بدهن الفقمة. تمت: «آه لو كان على مسافة خمسمائة متر إلى الشمال خارج المحمية، كنت لأرديه قتيلاً». نزل بي يأس ثقيل. يجب أن تزال قطعة صغيرة من القشرة الدماغية الحديثة (87) عند الولادة لكي ينزعوا منّا الرغبة في تدمير العالم. الإنسان طفل مدلل متقلب الأهواء يعتقد أن الأرض غرفته، الحيوانات أعباءه والأشجار خشخاشاته.

درس البارحة كان ناجعاً. أيكاً وبيكاً ربحاً بالقرب من ساقبيّ وتوقفاً عن مقاربة الكلاب الأخرى. فيما نحن عائدون إلى حظيرة الكوخ الريفي هاجمت عصابة كلاب فولوديا النابحة كلببيّ الصغيرين الحبيبين. اندفعت داخل الاشتباك ورحت أدفع الكلاب بركلات نحو خواصرها الوبرية كي أحمي جرائي، بينما كان فولوديا يصيح بي من فوق حفل النباح: «اتركهم وشأنهم يطبقون شريعتهم القذرة». حينئذ، وصل القط الأسود الذي كان قد تأخى مع أيكاً البارحة مساءً ولجأ إلى الحيلة. ببعض ضربات من مخالفه هزم الزعماء. قلدته على الفور «وسام الإمبراطورية على أرز الشمال لخدمته التي قدمها كحرس شخصي». ثم عدت إلى بيتي بعد أن قبّلت إيرينا على وجنتيها النضرتين، وعانقتني فولوديا بشدة حتى شعرت أن غشاء الجنب في صدري قد انتزع من مكانه.

في طريق العودة، رأيت فقمة. كانت تعرض جسمها للشمس بالقرب من صدع حيث يمكنها أن تغطس في حال حدث طارئ. زحفت على الجليد متخفياً بحرف طوف جليدي مكشوف. هل سمعتني، أم أنها رأت لون أيكاً الأسود فوق الغطاء العاجي؟ على بعد مائتي متر اختفت.

صار الهواء دافئاً. كان عمود دخان مدفأتي يرسم في الهواء تلافيف حلزونية باستمرار مثل غلالة دخان السجائر في المساء.

١٠ مايو

كان الفجر واعداً هذا الصباح أيضاً. أشرقت الشمس في موعدها، وبدت السماء كسقف في مسرح غنائي. ذهبت نحو عرض البحيرة لرؤية الجبل الذي تخلص من الثلوج. وحدها القمم وأعماق الوهاد بقيت بيضاء. قفزت فوق حواف أحد الصدوع فانكسر على الفور. كنت قد رأيته أقرب فوقعت في المياه. المهم أنني لم أنزلق تحت طبقة الجليد. كان الطقس بارداً في طريق العودة. صدوع البحيرة مثل القشريات الجليدية، تمنح قبلاً قاتلة لمن يستأمنها.

بعد الظهر صعّدت إلى الشلال. لا يزال الثلج يعلق في حذائي الشبكي داخل الغابة، كما اعترضت مسيري أشجار الصنوبر القزم أكثر من أي وقت مضى. توجب علي التكمش بالصخور كي أتابع طريقي. أحرز الكلبان تقدماً في فن التسلق. عند حافة الفجّ المؤدي إلى مسقط المياه، كان الربيع يعدّ العدة ليوم التتويج. ثمة قوى واهية تشق طريقها. شقائق نعمان الجبل الزاغبة ترتعش تحت الشمس، أعشاب نبتت بين الخشف. خط من آثار أقدامي علّم فوق بساط الثلج، وراءه آثار دب نزل إلى النهر. النمل يسرح على جوانب قراه التي شكّلها من إبر الصنوبر. من يراه يظن أنه ذاهب لعبادة الشمس عند سفح هرم متآكل من زمن قبل كولومبوس. تحرّر الشلال واختفى تحت الجليد عند منفذ الوادي. الجبل يذوب. المنحدرات محززة بالسيول اللامعة، تسارع كالصبايا للوصول إلى البحيرة. براعم أشجار المغنّ شقّت دروعها. تتناثر فوق خمائل الأزاليا أزهار بنفسجية تتضوّع أوراقها التخينة برائحة الشمع. تمهد الطبيعة بحياء سبيلها للنصر.

هناك قوتان دافعتان تحرضان على الولادة الجديدة. انبثاق ما هو مختبئ داخل الأرض، وتدفق ما تخزنه المرتفعات.

ما الذي ينبثق؟ المياه المنبجسة من القمم، الشلالات التي تغسل وجوه المنحدرات، مستعمرات النمل التي تفيض من التجاويف، النسغ المتألئ على لحاء الصنوبر، النوازل المتدلّية نحو الأرض، الدببة والأيائل التي تترك الهضاب للبحث عن قوتها فوق الضفاف الرملية.

ما الذي ينكشف؟ الديدان في التربة تفسق بالمليارات، سيقان النباتات، الأزهار في نهاياتها، أسراب السمك تعود إلى السطح بعد الشتاء في القاع. وأنا هذا المساء سوف أجلس هادئاً أدخن في كوشي، عند نقطة تلاقي النزيف والانبثاق...

هناك في الأعلى لا يزال الشلال متجمداً، لكنه سيتحرر قريباً. مسألة أيام يا ترى؟

في المساء، اصطدت ثلاث سمكات في ساعة واحدة. شيء غريب، لم تعد البحيرة تسلمني المزيد، كأنها تحتفظ لي بحصة تناسب حاجتي. هناك شيء غامض يحذّرني من حمّى صيد السمك. في يوم من الأيام، في زمن الكهوف، لا بد أن أحد البشر اصطاد أكثر مما يستطيع أكله. كان قد بدأ يبشّر بالخطر والأضرار الراهنة. التفسير الآخر لنتائجي الهزيلة -وهو الأرجح- أنني صياد سمك فاشل.

اليوم شاهدت نورساً وأنثى طيهوج سوداء في آخر رأس أرز الشمال. وقع نظري عليها مصادفة، ولولا ذلك، كنت سأمر قريباً مسافة سنتمترات وأغفل عنها.

أرسي المساء فوق قمم البورياتيا ظلالاً باهتة، وردية وزرقاء. ماذا عن الجبال؟ كأن الليل قد أخفى قسماً منها.

لن يدوم الجليد طويلاً. فتحتُ بالقرب من بئر الماء ثغرة قطرهما متر في نصف ساعة، كأنني كنت أحفر في السكر. في حوضي الجديد، وعلى ضوء مصباح الكيروسين، غطست في المياه. يتبع الروس هذه الطريقة لخلّاص أرواحهم في شهر يناير، بمناسبة عيد الظهور الإلهي (88). كانت

حرارة المياه التي تبلغ ما بين ٢-٣ درجة مئوية تلسع ساقِيّ لكنها سرعان ما شدّت جسمي. يتعجب القلب حين ننزل به معاملة كهذه. العقل البشري نوع من الأركان العامة الأرسطراطية، يطيب له أن يأمر الجسم بالأعمال الشاقة. تسبح المادة الرمادية بمتعة في السائل الشوكي فيما يعاني هيكل الجسم العذاب.

خرجت مسرعاً، فقد تراءت لي أسماك سلّور عملاقة تتقاطع في المياه مع بعض مجذافيات الأرجل من نوع الإبيشوريليا بحثاً عما تضعه تحت أسنانها. بحيرة البايكال تظل نظيفة بفضل نسورها آكلة الجيف هذه.

١١ مايو

لا أفقد شيئاً من حياتي الماضية. عبرت خاطري هذه الحقيقة فيما أدهن العسل فوق فطائر البلّيني. لا شيء. لا ممتلكاتي ولا أهلي. هذه الفكرة لا تدعو للاطمئنان. أيترك المرء بهذه السهولة الثوب الذي لاق به لثمانية وثلاثين عاماً من حياته؟ نحن نتدبر كل حاجاتنا عندما ننظم حياتنا حول فكرة عدم امتلاك شيء.

اكتشفت بالمنظار فقمة على بعد كيلومترين. اقتربت منها بالتفافة طويلة، متخذاً احتياطاتي كي أبقى عكس الضوء. كان يفصل بيني وبينها صدع بعرض خمسة أمتار تطفو فيه قطع طوف جليدي منفصلة تقوم مقام الجسر العائم. قفزت من واحدة إلى أخرى متوازناً. حين وصلت إلى مسافة مئة متر من الفقمة، اخنقت، ابتلعتهما الفتحة التي خرجت منها محدثة طبطبة خاطفة.

هذا المساء أمضى الكلبان ساعتين في مطاردة طائر ذعرة أبيض أبدي صبره الملحوظ حيالهما. ثم تشاجرا على قائمة يحمور.

١٢ مايو

يوم في أرز الشمال.

نظرت إلى السماء في السادسة صباحاً. أشعلت ناراً وأنا أهمس لها بأعذب الكلام، ثم خرجت أغرف الماء. لاحظت أن ميزان الحرارة يشير إلى ٢°. أكلت فطيرة بلّيني مشربة بالشاي الساخن ورحت أنظر إلى البحيرة من خلال بخار الشاي. نظرت إلى البحيرة مرة أخرى، ولكن من خلال دخان أول سيكار قصير. أنهيت قراءة «وعد الفجر» وأنا أتلذذ بعنّاب إيرينا. زرت قرى النمل الأربع المحيطة بكوخي، والتي تبعد الواحدة عن الأخرى ثلاثمائة متر، وراقبت أعمال الدعم فيها. بحثت بالمنظار عن بقعة سوداء لفقمة ما تحت الشمس. رسمت مصباح الزيت محاولاً إظهار شفافية الزجاج. أصلحت غمد السكين الذي تمزق في مسير أول أمس. قطعت الحطب. أطعمت الكلبين بهريس سمك السلّور. طبخت حساء الحنطة السوداء في المساء. خلال أربعين دقيقة أحضرت من أقرب فتحة سمكتين أضفتهما مع طبق الحساء. فكرت كيف يمكن أن يكون هذا اليوم لو أن محبوبتي تكلمت بالمجيء إلى هنا؟ إنها الشخص الوحيد على هذه الأرض الذي أفنقه حتى وهي بقربي. لم أفكر بالأسباب التي دفعته لعدم المجيء. ثملت على مهل بسبب استحالة عدم التفكير بها. فرحت

بهبوط الليل الذي سيخفي وجهي السكران.

١٣ مايو

الطقس ماطر وبارد. أغصان الأرز اللامعة تقطر مياه المطر. الجمال لن ينقذ العالم أبداً، سيقدم فقط المناظر الرائعة لاقتتال البشر.

صمت حزين يخيم على البحيرة. ماذا يحضن هذا اليوم الخامل؟ انتفاضة الشتاء؟ لا، الربيع ملتزم بوعده. البديع في الفصول هو أن كل فصل يترك مكانه للفصل التالي بكل تهذيب. ولا واحد منها يبقى عالقاً. نحو الساعة الخامسة، أخيراً حدث شيء. انقشعت الغيوم وبددت زرقة السماء ندف السحب القطنية. تشتتت الكتلة الرمادية ولقت عنق التايغا أوشحة من ضباب. بسرعة، إليّ بكأس! لتساعدني الفودكا على استيعاب هذه التحولات الغامضة! آه لو كان عندي نبيذ... لكن الكيدروليفيا ستفي بالغرض رغم ذلك. عند الجرعة الخامسة، فهمت ما الذي كان يجري داخل السحاب.

١٤ مايو

الزمن، الزمن، الزمن، الزمن، الزمن، الزمن، الزمن، الزمن....

انتبه!

لقد مضى الزمن!

١٥ مايو

التفكير في لزوم تصوير اللحظة هو أفضل وسيلة لقتل كثافتها. مكثت عند النافذة لمدة ساعة بينما كان الفجر يمكث لساعات وساعات.

الكوخ هو عربة الاستسلام التي وقّعت فيها هدنة مع الزمن. لقد تصالحت معه، وأضعف الإيمان أن أدعه يمرّ. من نافذة لأخرى، من كأس لأخر، بين صفحات كتاب، تحت جفنيّ المغمضين، كل ما عليّ فعله هو أن أتحنى كي أفسح له الطريق.

عصافير الذعرة البيضاء تبني عشاها في زاوية السقف الشمالية الشرقية بعد أن توقف الكلبان عن مطاربتها. جلست إلى طاولتي أشاهد الجليد يحتضر. معطف الثلج يتمزق، المياه تعبث بالكتلة الصلبة وتبقع سطحها بصفائح سود. البحيرة تتألم ولا تعرف أن هناك رجالاً يسهرون عليها. أنا خفير من حراس الليل.

النهار مضبوط على إيقاع تشكّل نغماته سلماً موسيقياً. وصول العصفور في الثامنة، شعاع الشمس يحطّ فوق خشب الأرضية في التاسعة والنصف، الجروان يلعبان في نهاية النهار، الفقمات تظهر بين العصر والغروب، ينعكس القمر في مياه الدلو. آلية في غاية الدقة. هذه المواعيد قليلة الشأن أحداث عظيمة في حياة الغابة، أنتظرها وأعيش على رجائها. عندما يحين أوان حدوثها وتحديث، أعرفها وأحتفي بها. إنها تؤكد لي أن القصيدة تراعي أوزان الشعر. كان الإغريق القدماء

يراقبون مثل هذه التغييرات المناخية، فجأة كان يتحرك شيء ما ويظهر الإله. افتتان الإنسان هذا أمام ظهور شعاع من النور، هل هو خرف أم حكمة؟ السعادة هي هذا الشيء البسيط: انتظر شيء نعلم أنه سيحدث. يغدو الزمن منسقاً مدهشاً لتلك الإشراقات. في المدينة، المبدأ معاكس. نطالب دوماً بظهور المزيد من المستجدات المفاجئة. يجب أن تقطع مجرى ساعاتنا الألعاب النارية باستمرار لتضيء ليالينا بباقات وميضها الخاطف. في الكوخ، يعيش المرء على إيقاع رقص (89). أكثر مما يعيش على وهج المفرقات.

الكلاب راضية بالتكرار الأبدي. ما إن يلوح لهم الحدث حتى يسيل لعابهم بفارغ الصبر. إذا ما طرأ شيء غير متوقع كظهور زائر ما، فتراهم يزمجرون، ينبحون، يهاجمون. العدو بالنسبة إليهم كل ما هو جديد.

في بعض الأحيان تأتي التجليات من أعماق النفس. لا أتحدث هنا عن ارتعاش أمام إشارات العالم، إنما عن توق داخلي، عن انبثاق فكرة، عن رغبة صاعقة. يحسّ الإنسان نفسه حينها كأرض مسكونة تتصارع فيها الآلهة والشياطين.

عاد المطر مجدداً بعد الظهر. وصلت السحب من الغرب وخيمت فوق الحوض الجليدي. في السهل الروسي هناك، يبدو أن مخزون الرطوبة لا ينضب. طارت غربان على وجه البحيرة وأطلقت صيحاتها، وقرعت قطرات المطر على سطح السقف الخشبي. تبدو التايغا مثل جيش متوقف. سوف تجتاز الطبيعة معبراً مضنياً.

بالنسبة إلي، أنا المحشور حياً في نعشي الخشبي، تظهر الساعات المخيفة مع المساء. تستغل الأطياف والحشرات العتمة كي تتسلل إلى قلبي. تبدأ عملها لحظة يهّم النور بالانحسار، عند الساعة السابعة. أحتاج إلى الفودكا كي أدرأها عني.

استعرضت مؤونتي: لدي اثنان وعشرون ليتراً من فودكا كيدروفايا، ثلاثة لترات من الفودكا بالبهارات، اثنا عشر سيكار بارتاغاز، خمس علب من السيكار الصغير (عشرون لفافة في العلب). لدي ما يكفيني لمصارعة الشياطين عدة أشهر.

لعلّ الشجاعة تكمن في النظر إلى الأشياء مواجهة: حياتي، العصر، الآخرون. الحنين والسوداوية وأحلام اليقظة كلها أشياء تمنح الأرواح الحاملة الوهم بمنفذ أخلاقي، وتعدّ طرقاً تجميلية لمقاومة القباحة، لكنها ليست سوى غطاء عورة للخسّة. ما عساي أكون؟ رجل جبان مذعور من العالم منطوٍ على نفسه داخل كوخ في مجاهل الغابة؟ جبان يتعاطى الكحول بصمت كي لا يخاطر برؤية مسرحية عصره أو مواجهة وعيه، يزرع الضفاف جيئةً وذهاباً؟

١٦ مايو

انقشعت السماء أخيراً. تصرفتُ على الطريقة الروسية. منذ أربعة أيام وأنا قابع خاملاً وراء النافذة. بقفزة واحدة اندفعت أنا والكلاب نحو الخارج بأقصى سرعة. حقيبتني فوق ظهري وفي داخلها مؤن تكفي لثلاثة أيام. ينظّم الروس حياتهم على هذا النحو: أيام طويلة من التراخي يتخللها

نشاط بدني للترويح عن النفس. لا يزال الجليد قاسياً. تجاوزت رأس الأرز الأوسط بهدف صعود الوادي النافذ إليه. قفزت فوق الصدوع متخذاً هامشاً يزداد عرضاً، إذ إن ثخانة الجليد تقلّ تحت حواف الشقوق. انهالت زخات من المطر، فالتجأت إلى غابة العصور الأولى فوق مخروط التجميع الذي تغذيه منذ ملايين السنين مياه النهر وأطمع في الوصول إليه. رحلت أغوص في الطحالب. شرائط الأشنيات تكسو الأرض تحت الأشجار كالمخمل. تبدو الغابة مثل المستنقع في كتاب والتر سكوت(90) أو قلب الغابة في رواية "العالم المفقود". ظهرت الشمس وألقت حزمًا من الأبخرة. تصطف أشجار البتولا مثل أروقة معابد عاجية. أزهار العصلة الوردية تطلق رائحة امرأة عجوز نظيفة، تقاطعها رائحة عفونة الجذور التي داستها الدببة. الغابة تطلق أنفاسها. كان الكلبان مذعورين من كل هذا الفيض وأصابتهما الحيرة. انفتح صندوق باندورا(91) قليلاً وتسربت منه الروائح. التايغا السيبيرية أدغال باردة. لو ظهرت الآن ملكة جنّ الغابات مع حاشيتها تبعدها ستائر الطحالب، لن أصاب بالدهشة كثيراً.

وراء شريط من أشجار الصفصاف المصطفة خطأ واحداً على نحو غريب، اكتشفت مسرباً زرعت فيه أشجار صغيرة. منذ عشرين عاماً، كان هناك طريق يصل بين مخيم يسكنه خبراء جيولوجيون والبحيرة. على علو سبعمائة متر، المركز المذكور على الخريطة لا يزال موجوداً: أربعة منازل ريفية مخلّعة وعربتان من الصفيح صدنتان بين الأشجار الكثيفة المعمّرة. تفتتح جهة الشمال على واد مزدوج يفصل بين قعريه جبل صخري حادّ. أرهقت من السير في أرض حجرية، تعيق حركتي أشجار الصنوبر القزم التي شكّلت أغصانها الزاحفة فوق الحجارة جداراً لدناً يصعب اجتيازه. نزلت إلى الوادي الضيق، انتعلت حذائي الشبكي وصعدت حتى قاعدة خط القمة الصخرية. على ارتفاع ١٠٠٠ متر تقريباً، وجدت منصة ملائمة للتخييم. هبت العاصفة وانسكبت كل مياه السماء على الشرفة الصخرية التي تنضدت فيها صفائح بركانية وجرانيتية. كنت قد خبأت عكازات الثلج والكلابات في الأسفل على عمق مئة متر. أخافت البروق أيكا وبيك، فتكوّرا متلاحمين تحت شجرة بتولا. تأملت بإعجاب هذين الكائنين الصغيرين اللذين ذهبا إلى الجبل سعيدين بالحياة، دون مؤن أو أي مخططات للعودة.

قطعت حزمًا من عيدان الصنوبر كي أفرشها فوق أرض المصطبة الصلبة. خلال ثلاث ساعات بكاملها حاولت إشعال نار بالحطب المشبع بالمياه. في النهاية نجحت بضع صفحات من كتاب «ابن أخ رامو» في إيقادها. هذه ليست أول مرة يشعل فيها ديدرو(92) الحرائق. ارتفع لهب واهن من كوم اللحاء الذي قشّرتة وجففته بيديّ. النار حيوان مسكين جرحته العاصفة. رحلت أزيدها غصناً بعد غصن. بدأت السنة اللهب ترتعش، أحسست كأنني طبيب ينعش قلباً. ها هي قد استعرت، لقد انتصرت. نفخت حتى أصابني الدوار وحصلت على نار متأججة. جاء الكلبان يتدفان على لظاها. في اللحظة التي نصبت فيها خيمتي انهمر المطر مجدداً. انكفأت تحتها قبل أن أتمكن من تمكينها. كانت حبات البرد تلمع كالماس في وميض البرق. انطوت الخيمة ولم تنهر، لكنها غرقت بالمياه. فيما كانت العاصفة تضرب بضراوة فوق الجبل وعلى جدران خيمتي النايلون، كنت أقرأ أن ديدرو كان يحب أن يرتاح كل مساء في نور القصر الملكي اللطيف. سكنت الرياح ومرت العاصفة. عادت

النجوم، وهمهمت الكلاب. جفت الخيمة رياح لطيفة، وأنا يا فرحي الكبير، اشتعل الجمر أخيراً. أجبّت النار وعدت إلى النوم، إلى جانب رأسي مشعل جاهز ضد الدببة في حال زارني أحدها. كان بيك وأيكا المتعانقان في الليل السيبيري يرسمان رمز ين ويانغ.

١٧ مايو

الشمس في كبد السماء. استقبلني الكلبان من أول يقظتي. كانا يأملان بالطبق اليومي، ولكن لم يكن معي سوى القليل من الخبز. حريّ بهما العودة إلى الكوخ إذاً، لكنهما لم يفعلا وبقيتا عند قدمي. لا شك أن الكلاب تظن أننا آلهتها وأمهات، أي أسيادها. طويت خيمتي ورحت أتسلق حرف الجبل الصخري لمدة خمس ساعات. بدأ الكلبان يئنان حين استوقفتهما هوة. وجدت أيكا حينئذ ممراً وقادت أباها الأقل براعة منها. انتصب الطريق مجدداً، وعلى ارتفاع ١٦٠٠ متر وصلت إلى طبقة الثلج الصلبة. جلست أيكا وبيك على صخرة كبيرة يتأملان البحيرة.

عند القمة، على ارتفاع ٢١٠٠ متر، البرد قارس. ينكشف من جهة الشرق قلب المحمية الطبيعية. وفي المقابل الثاني للقمة تنخسف سلسلة الجبال المحاذية للبايكال بشكل فجائي. يضيق المنظر نحو الشمال بموازاة الضفة. البايكال مثل حجر كريم رصع داخل إطار. من جهة الشمال يكشف تعاقب الهضاب والوهاد غابات الصنوبر الرمادية، تتناثر فيها البحيرات وأخاديد روافد الأنهار. المناخ المسيطر على تلك المناطق من التايغا أشد قسوة منه على ضفاف البحيرة. تنظر شركات التحطيب الآسيوية بعين الشهوة إلى عذريتها. لعلّ الصينيين يطمون بتملك تلك المخازن من الحطب والمياه، وربما تصبح منشوريا ثانية لهم بعد أن استنزفوا خيرات الأولى كلها. في تاريخ البشر، ما من تجمع ديموغرافي إلا وجاور مكاناً غير مأهول غنياً بالموارد لوقت طويل. على افتراض أن هناك لعبة الأواني المستطرقة بين الصين وسيبيريا، تلعب منغوليا دور الصمام بينهما. لو أن هذه التايغا صارت أرض معركة، ستكون قمتي هذه مركزاً ممتازاً لتطويق المراقبة. ربما يكون تعداد الصينيين وجوعهم لصالحهم، لكن الروس يتفوقون عليهم بخشونة أهل الأرياف وحقدهم تجاه كل من يهدد «مات رودينا» الوطن الأم. وضع الكلبان رأسيهما داخل فرائهما وناما بعمق.

عدنا للنزول عبر خانق الوادي الأبعد نحو الشمال. عند منتصف المنحدر تقاربت الجدران الصخرية، وأرغمني انكسار في ميل بلغ خمساً وأربعين درجة على نحت درج في الثلج. بدأ الكلبان يئنان غير قادرين على العبور. ثم ألقت أيكا نفسها على المنحدر متكلة عليّ كي أوقفها. تلقيتها، ثم منعت سقوط بيك. كانت التقنية التي تخيلتها الكلبة الصغيرة هي الطريقة الناجعة ووصلنا إلى قاعدة الجدار. في أسفل الوادي، تبعت آثار أقدامي من الأمس. كانت تقاطعها آثار عريضة لدبّ مرّ منذ وقت قريب. الآثار عميقة ويبدو أن الحيوان لم يبد أي اهتمام بأثري. عند أطراف الغابة كان قد تحرر الشلال. لسان الثلج الذي كان يغطيه انقطع وأطلق ماءه النقي المتدفق. أوقدت ناراً كي أجفف نفسي وأنام في هناء الشمس.

عدت إلى الكوخ عبر طريق الجيولوجيين. كانت الشمس والسحاب يلعبان الشطرنج. ينفلان بيادقهما فوق الرقعة الرخامية. تنتقل الجيوش البيض والسود بسرعة كأنها حملات خيالة.

عند منتصف النهار، غادرت الكوخ نحو أعلى «الوادي الأبيض». يقع هذا الوهد المنكسر الذي تنمو عليه أشجار الصنوبر ويشقّ الجبل، على بعد كيلومتر إلى الشمال من كوشي. انهالت من أعلى الحرف الصخري أكوام من الحجارة الصغيرة. واستطعت أن أقدر بالنظر حجم أضرار الربيع. لقد تم اجتياح البحيرة.

لبلوغ القمة التي تقع فوق الكوخ، كان يكفي أن أمشي على طول الحرف الصخري. تحت شمس كشمس لبنان، عبرت أمام أبراج أجراس صغيرة ورجال درك من الغرانيت من العصر الفحمي تأكل لَبْها. كانت قطع الحجارة التي عجزت أشجار الصنوبر القزمة عن تنضيدها فوق المنحدر تتدحرج تحت خطواتي وخشيت أن أسحق الكلبين. عند هبوط الليل، وبعد اجتياز خمسمائة متر من المرحلة النهائية التي تخللتها ممرات ثلجية، وصلت إلى القمة على ارتفاع ٢٠٠٠ متر. كانت أمامي أروقة سلسلة جبال البايكال الصمّاء يتوجها جبل تشيرسكي على مسافة مئة متر إلى الشمال. تناثرت النتوءات الصخرية في الجبال كالنجوم في كل الجهات. المسطحات التي ذابت فيها الثلوج مغطاة بالتوندر، الأشنة التي تفضلها الأيائل. عند الممر الجبلي الصغير المستدق، إلى العمق قليلاً، كان قد مرّ دبّ منذ بضعة أيام.

وقفت هناك على القمة مفتوناً أتأمل تلك الجبال التي ترقد لا مبالية، راضية بكينونتها. كلام هيغل «هكذا يكون» هو أدكى ما قيل أمام ما لا يُقاس. لطالما أحببت فكرة الصعود لاكتشاف الجانب الآخر لبيتي. بحيرة البايكال حوض مغلق يؤوي أنواعه الخاصة، وله مناخه الخاص. يعيش السكان على ضفافها كما يعيش أهل القرى حول ساحة القرية. غالبيتهم لم يصعدوا قط لإلقاء نظرة وراء أبواب حصنهم المنيع. البعض اكتفى بعدم الخروج من الحوض إطلاقاً، والبعض الآخر قرر الذهاب ليرى ماذا يوجد وراء الجبال.

في يوم بعيد، وصلت إلى تلك القمم جيوش إيفانوف القوقازية قادمة من الغرب. كانوا يحملون البنادق والخناجر، جثموا فوق البروز الصخري واكتشفوا بنظرة واحدة، تمتد إلى أبعد من أربع أو خمس ساعات من المسير، بحر البايكال الذي حدثتهم عنه قبائل التايغا من نهر ينسي...

عبر المنحدرات العسيرة والممرات المترعزة، وصلت إلى مسطح تنبت فيه أشجار الصنوبر القزمة على ارتفاع ١٦٠٠ متر، وأمضيت ليلة خلاصة بين الكلبين والبحيرة والقمم ونجوم نار تريد الانضمام إلى أشقائها في السماء.

كانت العودة سريعة. انزلقنا عبر الشعاب حتى وصلنا إلى أول أشجار «الوادي الأبيض». هبت من الشمال رياح عاصفة أثارت الكلبين. هناك عاصفة تتأهب. حين وصلت، كنت في أرجوحة نومي، السيكار بين شفتيّ، وكتاب «نشيد العالم» لجان جيونو تحت أنظاري. خلال بضع ثوان، نزلت العاصفة من الجبال وبدأت الرياح تنهش السهل الجليدي بشراسة. وفي غضون عشر دقائق

دمّر تقصف الجليد جهود الشتاء كلها كي يحكم العالم. لا شك أن الربيع استعراض يروّع جنرالات بروسيا، ذلك لأن روسياً هو من يحتفي بتتويجه.

الجليد ينفكك، تستعيد المياه حريرتها، تنحت القنوات الضيقة حواف الصفائح، أو تغمر قطع الجليد الطافية. لا يجد المطر طريقه إلى الأرض. تصعد إلى السماء سحب من المياه مع زوايع الريح. في ذلك الاضطراب العظيم، كانت أشجار الأرز مذعورة ترسل إشارات استغاثة. وجد بيك وأيكا ملاذاً تحت سقف المظلة. فتحات المياه المتحررة تقطع بسوادها الفاحم بياض الطوافات الجليدية المنهزمة. هبات الريح تشوش زخات المطر. ظهر قوس قزح، قاعدته عند آخر نقطة في رأس الخليج، وجد مسنداً له وسط البحيرة. تجمعت تحت انحنائه سحب سوداء كثيفة بلون الأبنوس متخذة شكل نجم الدب الأصغر. تتفجر البروق في اللحظة التي تدلهم فيها السماء. شعاع وحيد يضرح قمم البورياتيا مثل خيط يحمل قاعدة السقف الأسود. في غضون عشر دقائق، شهدت لتوي موت الشتاء.

تابعت العاصفة عملها التدميري باتجاه الجنوب. تستعيد البحيرة عافيتها. في الهواء البارد، تحت سماء لامعة، رفعت المياه العميقة المتحررة صفائح الجليد وراحت تتلاعب بها. شطايا الزجاج القديم تتفكك عند أقل احتكاك كأنها حرير خشن مدعوك. تقصف جليد البحيرة حرر نبضها. ركزت كرسى الصغير فوق طافية جليدية وأمضيت السهرة أنساق مع التيار على مهل. عادت المياه! عادت المياه! لا شيء سيكون كما كان عليه.

٢٠ مايو

في اليوم الأول الذي تحررت فيه المياه، انهمكت طيور الذعرة البيضاء بتمرير خادع للحواس. كانت تتفافز فوق قشور جليدية غير مرئية لا تتعدى ميليمتراً واحداً تغطي ثنايا المياه الحرة. نحو منتصف النهار، هطل المطر بغزارة وكان صوت قرعه فوق الدبال يبهج الحواس. الأرض تروي غليلها. تكاد تصل الأنهار إلى البحيرة. بقيت طية واحدة من الجليد تحجب مكان اتصال الشلالات بالساحل. بعد سنوات، بعد قرون، سوف تختلط تلك المياه التي أنهل منها بأموج البحر القطبي. لو تأملنا في رحلة إحدى ندف الثلج، من القمم إلى البحيرة، ومن البحيرة إلى البحر عبر طريق الأنهار، سيشعر المرء أنه رحالة تافه.

نزعت عن أيكا قرادتين كانتا تمصّان دمها. في الحياة ضريبة مقطوعة، والنباتات هي من تدفع عن العالم كله في آخر المطاف!

٢١ مايو

سوف تنتقل قطع الجليد المتشظية لمدة شهر على هوى الرياح والتيارات. وسوف تقوم الكتلة الجليدية بالكثير من الرواح والمجيء، وهناك احتمال في أن ينسدّ خليجي ثانية ذات يوم. هذا الصباح البحيرة سهل سائل. ما من قطعة ثلج على الزيت الأسود. ذهب مع الكلبين باتجاه نهر ليدنايا الذي يقع في منتصف الطريق بين كوكي وكوخ فولوديا كي أحاول صيد السمك.

فوق رمال الشاطئ، كانت أحداث الأيام الأخيرة قد أعتقت الحياة. النهار مليء بالذباب. أخذت

قبلولتي فوق الحصى الدافئة. على المنحدرات المائلة باقات شقائق النعمان تبرقش الرمال. تتهاوى طيور البط فوق السطوح المتحررة نهمة للحب والمياه الباردة. كانت قد شبعت من الطقس الجميل في الجنوب. حين يركض نحوها الكلبان، كانت ترتفع عن الأرض على نحو يثير الشفقة. في البداية قلد البشر الطيور لصناعة الطائرات، أما البط فإنه يقلد الطائرات الأولى. السواحل تعجّ باجتماعات جوية دائمة. صقور تحلق، أسراب إوز في دوريات استطلاع، نوارس توالي انقضاضها، وفرشات مذهولة بالحياة تتمايل في الهواء. ثمانية وأربعون ساعة كانت كافية للربيع كي يؤكد انقلابه.

ظهر في الغابة الدرب الذي ترك فيه الدب آثاره مع الأيائل. درب يحاذي الضفة على بعد بضعة أمتار من أطراف الغابة. لا يزال نهر ليدنايا مغطى بممر عريض من الجليد. بدأ الكلبان بالنباح فجأة. من الجانب الآخر من المنحدر الصخري. مدّ دبّ رأسه من بين أزهار العصل. أمسكت أيكاً من عنقها، أما أخوها فقد خرّ تحت ساقِي. حين حملت أيكاً، توزعت الشجاعة بشكل غير عادل. كلام الروس قطعي: في حال صادفت دباً، لا تهرب، لا تنظر إلى الحيوان، لا تقم بحركات مباغته، تراجع على أطراف أصابعك وأنت تهمس أشياء مطمئنة. تكمن المشكلة في الإيحاء. ماذا أقول للدب؟ لم أكن قد حضّرت شيئاً. تراجعت بهدوء، لم أجد سوى هذه الأغنية: «اغرب عن وجهي يا أرنبى الكبير!» نجح الإيعاز. انسحب الدب وهو يقبّل الأجمات.

أهداني الصيد سمكتي سلمون مرقط عند مضيق النهر. عدنا عبر الطريق الرملي. مشيت وببيدي أسهم الإشارة المحشوة بالذخيرة. كانت الضفاف ونضد الجليد الساحلي موشاة بآثار الدببة. لم أخف، كنت أعرف أنها لن تهاجمني. في حال الخوف، يكفي أن أستغرق في آخر صفحات من «روبينسون كروزو» حيث يصف ديفو الصمت اللامبالي لتلك الحيوانات: «كان الدب يتنزّه بكل هدوء دون أن يفكر في إزعاج أي كائن».

وصلت إلى كوشي، أصلحت قصبه الصيد، أطعمت الكلبين، وحضّرت السمكتين، رميت سكينتي إلى الجدار، ونمت مع «نشيد العالم». يطبّق جيونو عكس القيم السارية عند كل الكائنات المتحولة في قانون الطبيعة: يشخّص الأشياء ويضفي مظهر الطبيعة على الإنسان. الأنهار عنده لها أرجل، ولرجال الغابات الجوالين أجساد مثل الصخور.

٢٢ مايو

مجرى ماء حرّ بطول خمسمائة متر ينساب على امتداد الشاطئ الرملي. توزّع الرياح عليه صفعاتها. وراء خط المياه، تطفو حبيبات الجليد تدفعها الرياح الغربية. تتفتت صفائح الجليد مصدرة صوت نشيش كالسكر حين يذوب في الشامبانيا. تتطلق من البحيرة رائحة الجنس.

أولئك الذين يحفرون أو يتقبون أو يحطمون أو يدعون وينقبون، أولئك الذين يمتلكون ملاقط، أو يشغّلون حفاراتهم، وآخرون يستخدمون مكاشطهم أو مُتَكمهم أو مجسّاتهم. أولئك الذين يزحفون أو يمشون أو يطيرون، وأولئك الذين يجثمون فوق ظهر من هم أقوى منهم، وغيرهم ممن يموهون أنفسهم أو يبدلون سحناتهم، منهم من يخرج في الليل، ومنهم من يخرج في النهار أو عند المغيب، بعضهم يرى، والبعض الآخر يستشعر: جميعهم خرجوا من غفلتهم وجاؤوا لحضور تحرر المياه،

مثل أولئك الأصدقاء الذين يأتون لاستقبال سجين يوم خروجه من الزنزانة. على الرغم من نومهم الطويل، لم ينسوا الحركات وردود الأفعال. سوف يجتاح شعب الحشرات الغابة. أصبح شعوري بالوحدة أقل.

في الكوخ، يعيش المرء على توقيت الثورة المضادة. لا يخرب أبداً، يقول المعتزل، يقضم بأسنانه، لكنه يحافظ ويستمر. يبحث هنا عن السلام والتماهي وإعادة الروابط. يؤمن بأن هناك دورة للحياة. ما نفع القطيعة إذاً إذا كان كل شيء يمضي ثم يعود؟ هل للكوخ معنى سياسي؟ العيش هنا لا يقدم شيئاً لمجتمع البشر. لا تساهم تجربة الاعتزال بشيء من أجل البحث الجماعي عن وسائل العيش معاً. الأيديولوجيات مثل الكلاب، تبقى عند عتبة المعتزلين. في قلب الغابة، لا يوجد ماركس ولا المسيح، لا نظام ولا فوضى، لا مساواة ولا ظلم. أنى للناسك المنشغل بالحاضر فحسب أن يشغل باله بالتطلع إلى المستقبل؟

الكوخ ليس قاعدة هجوم، إنه نقطة سقوط.

ملاذ للزهد، وليس حياً عاماً لتحضير الثورات.

باب خروج، وليس نقطة انطلاق.

مربع سيثرب فيه القبطان آخر كأس من الروم قبل الغرق.

الحفرة التي يضمّ فيها الحيوان جراحه، وليس الجحر الذي يغرز فيه مخالفه.

٢٣ مايو

هذه الليلة في الثالثة صباحاً، استعجلني نباح الكلاب إلى خارج الكوخ وسهم الإشارة في يدي. دبّ يتجول فوق الضفة. عند الفجر كانت آثاره على الرمال الرمادية.

الماء مستمر في تحقيق انتصاراته. هذا الصباح امتد فوق عشرات الكيلومترات من عرض البحيرة ما بين قطع الجليد ووضفتي. تدفع الرياح الطوف الجليدي نحو الداخل. أضاءت الشمس نسيج البحيرة المنسول لكن الضفة ظلت معتمة. دخلت بواكير الأشعة وتراقصت فوق الأرضية الخشبية. ليس هناك منظر مبهج أكثر من هذا. الشمس تحتفي بي كما تفعل الكلاب. في النهار، تجمع العين تلك الغلال من الصور التي سيخبزها الحلم.

برأي كيركيغارد(93) في بحثه عن اليأس، يمرّ الإنسان بثلاث مراحل في عمره: مرحلة الفرح الجمالي والدونجواني، مرحلة الشك الفاوستي، ومرحلة اليأس. من الواجب أيضاً إضافة مرحلة الانطواء في الغابة كنتيجة استخلصتها من المراحل الثلاث السابقة.

أضع حول رقبتني صليباً أرثوذكسياً صغيراً يلمع تحت الشمس حين أقطع الحطب عاري الصدر. في حلم طفولتي، روينسون كروزو له لحية شقراء ولا يتخلّى عن صليب المسيح على صدره. أحب هذا الإنسان الذي كان يصفح عن النساء الزانيات، مشى على الدروب وفمه مليء بالأمثال التشاؤمية، هتف ضد البرجوازيين، ذهب إلى قمة الجلجلة وهو يعرف أن الموت بانتظاره

هناك. أشعر بمسيحيتي، في تلك المساحات التي قرر فيها الناس تبجيل إله يبشّر بالمحبة، وتركوا الحرية والحق والعدالة تحتاح مدنهم. ولكن ما يستوقفني هو «المسيحية»، هذا الاسم الذي أطلق على التلاعب بالكلام الإنجيلي من قبل الكهنوت، خداع سحرة بتيجان وجلابل حوّلوا كلاماً حارقاً إلى قانون جزائي. كان حرياً بالمسيح أن يكون إلهاً يونانياً.

٢٤ مايو

حلمت هذه الليلة بدببة تهاجمني. كانت تقفز فوق سطح الكوخ رشيقة كالقطط وممشوقة مثل الكلاب السلوقية الأفغانية، ومخيفة إلى حد ما. أظن أن رائحة الأعشاب النهرية التي انتشرت حديثاً هي التي تؤثر في أحلامي وتحملني إلى أماكن قروسطية.

حطّ سرب من الإوز الزرقاوي فوق فسحة من المياه محصورة بين ثلاث طوافات جليدية كبيرة. انطلق السرب بتشكيلة رائعة باتجاه منغوليا. وصل زوج من بط البلقش أحمر الصدر وطابت له الإقامة في خليجي. أمضيت ساعات أتأمل بالمنظار عريفهما الشبيهين بتسريحة شعور شباب البنك. جموع من البط المبرقش الغطّاس حطّت بأقصى سرعة في القناة الضيقة. طيور البط في أجمل حلّة لها، كأنها ذاهبة إلى حفل راقص، وحين تنطلق تبدو كأنها عارفة إلى أين تذهب بشكل يثير دهشتي.

في الثامنة مساءً، كانت أشعة الشمس تتسلل من خلال ثلم في القمم من جهة الجنوب وتبسط حزمة طويلة من النور الأصهب فوق الشجيرات المخملية الشائكة. قلما يهمني أن أعرف إذا كان الله أو المصادفة هما سبب هذا الجمال. هل يجب أن نعرف السبب كي نستمتع بالنتيجة؟

في المساء، تناولت عشائي في الخارج أمام نار أوقدتها على الضفة. ثم جلست أتأمل اللهب مع الكلبين، يداي دافنتان في فرائهما، إلى أن أعطى القمر من فوق الجبل إشارة بأنه ذاهب للنوم.

٢٥ مايو

أمضيت ساعات أدخل في أرجوحة النوم فوق قمة الرابية، والكلبان هاجعان عند قدمي. هناك في باريس من يظن أنني بين براتن البرد السيبيري، أزر بكل قواي فوق سندانني أقطع الحطب في رياح الشمال القارسة.

البحيرة لوح من الزجاج المكسّر ناصع البياض كالمرمر، تلونت حواف صدوعه بلون أزرق داكن. تنزلق حراشف الجليد نحو الجنوب. كنت أشهد وأنا مستلق في الهواء الدافئ قطعان الثلج ترتاد مراعيها الجديدة. ما بين كل قطعة من الجليد وأخرى، كان لون الماء يتغير ساعة بعد ساعة. أرى فوق تلك البقعة هناك بطتي شهرمان تطيران. هل هناك من يطاردهما بالنار، أم هما على موعد هامّ حتى تنطلقا بكل هذه العجلة؟ كيف يمكن للإنسان أن يجعل من الطيور هدفاً للبندقية عوضاً عن وضعها في عدسة المنظار؟

٢٦ مايو

الناس الذين يعانون من هروب الوقت لا يحتملون البقاء في مكان واحد، يطمنون بالحركة.

يمنحهم تغيير المكان الوهم بتباطؤ الزمن، لذلك يتحركون باستمرار، فتتخذ حياتهم شكل رقصة المجانين.

الخيار البديل هو العزلة.

لا أشعر بالملل البتة من تأمل تفاصيل المنظر أمامي. تعرف عيناى كل خفاياه، مع ذلك، تدققان فيه كل صباح بنهم كأنهما تكتشفانه للمرة الأولى. يبحث نظري عن ثلاثة أشياء: التقاط تفاصيل صغيرة في تلك اللوحة التي رأيتها ألف مرة، تعميق الفكرة التي خزنتها ذاكرتي عنها، والتأكيد على أن خيارى بالإقامة هنا كان جيداً. الركون يرغمني على تمرين المراقبة العذرية هذا. إذا لم أرغم نفسي عليه، فسوف تتسلل الرغبة إلى نفسي في الذهاب لرؤية مكان آخر.

لا يسأم المرء من الجمال أبداً، هذا مبدأ قديم عن الاستقرار في مكان واحد. فضلاً عن ذلك، ممّ أشنكي؟ إذ إن الأشياء أقل ثباتاً مما تبدو عليه. النور يلوّن الجمال ويعيد تشكيله. إنه ينمو، ويتجدد يوماً بعد يوم.

يحتاج الرحّالة المستعجلون إلى التغيير. لا ينظرون بعين الرضا إلى منظر بقعة الشمس فوق منحدر رملي. مكانهم في قطار، أمام التلفاز، وليس داخل كوخ. في النهاية، الفودكا والدببة والعواصف ومتلازمة ستاندال(94). والذهول أمام الجمال، هي الأخطار الوحيدة التي تهدد المعتزل.

٢٧ مايو

احتجت سبع ساعات من العناية فوق نتوء متفتت تغطيه أشجار الصنوبر القزمة والطحالب الإسفنجية وصفائح الصخر البركاني للوصول إلى قمة الـ ٢٠٠٠ متر التي تتوج أعلى «الوادي الأبيض». في الجانب الآخر، المقلب الثاني لعالمي، هناك دائماً وعد. نلقي عليه نظرة مثلما نرمي المرساة مع شبكة الصيد، كي نوهم أنفسنا باليقين أننا سنعود ونراه يوماً ما. ما إن ننزل من هناك حتى يبقى الوعد حياً في داخلنا. جزء من نظرتنا يبقى في الأعلى...

الكلبان مستقلقيان أحدهما إلى جانب الآخر فوق حصى القمة، يحدقان في المنظر. إنهما يتأملانه، أقسم على صحة ما أقول. هل هذه الكلاب الصغيرة «مساكين العالم» مثلما يقول الأستاذ هايدغير(95)؟ لا. ولكنهم مكتفون بالأحرى بما يعرفونه، يضمرون ثقة كاملة باللحظة ويزدرون أي فكرة تجريدية. تتلخص شجاعة الكلب بأنه ينظر إلى ما يظهر أمامه دون أن يتساءل إذا كان يمكن للأشياء أن تكون بشكل مختلف. أفكر في كل تلك الجهود التي يبذلها الإنسان كي ينكر كل معرفة عند الحيوانات. آلاف السنين من الفكر الأرسطوطاليسي والمسيحي والديكارتي قيدتنا داخل اليقين بأن هناك حدوداً لا يمكن تجاوزها تفصلنا عن الحيوان. هذا يخلو من الأخلاق. إذ تبدو أفعال الحيوان غير مقصودة، حتى تلك الحركات التي يظهر قدرته على القيام بها تجاه الآخر. ربما يعيش دون الشك بنهايته. وبما أنه متألم مع بيئته، فهو لا يستطيع الانفتاح على الواقع الشامل، ويبقى غير أهل لإدراك العالم. هو ليس أكثر من إرادة بانسة ليس لديها أفكار. مقيد بالحاضر، ولا يمكنه التعبير عن أي شيء، محروم من التاريخ والثقافة. ويتحفنا الفلاسفة بالقول إننا لم نر قط قرداً يستخلص

قراءة رمزية من منظر طبيعي، أو يعبر بطريقة جمالية.

مع ذلك، في قلب الغابة مشهد الحيوانات محير. كيف بوسعنا أن نكون متأكدين من أن رقص الذباب الصغير في أشعة المساء ليس له معنى؟ ما أدرانا بأفكار الدب؟ وفيما إذا كانت القشريات لا تبارك برودة المياه دون أي طريقة لديها لتعلمنا بذلك، ودون أي أمل لنا بالكشف عنه؟ وكيف بوسعنا تقدير انفعالات الجوامح حين تحيي الفجر فوق الأغصان العالية؟ ولماذا لا تعرف تلك الفراشات في ضوء الظهيرة جمال رقصتها الأخاذ؟ «ليس لدى العصفور الصغير أية فكرة عن البيض الذي يبني له العش، ولا أنثى العنكبوت الصغيرة عن الجدار الذي تنسج له شبكتها...» (شوبنهاور في كتاب «العالم»...) ولكن ماذا تعرف عن ذلك يا أرثر؟ من أين استنتجت معرفتك بهذا الخصوص؟ مع أي عصفور تحدثت كي تدعي يقيناً كهذا؟ كلباي الصغيران ممددان قبالة البحيرة يطرفان بأعينهما. يستمتعان بسلام النهار، لعابهما دليل امتنان. إنهما مدركان السعادة بالاسترخاء هنا على القمة بعد التسلق الطويل. هايدغير سقط في المياه، ومعه شوبنهاور. بوف! سقط الفكر. يؤسفني ألا يكون فيلسوفنا، وريث حركة الآداب الإنسانية القديمة (حركة استمئاء العقل) هنا يشهد على الصلاة الصامته التي يتلوها جروان بعمر خمسة أشهر أمام فالق عمره خمسة وعشرون مليون سنة.

٢٨ مايو

أمضيت النهار مع دليل علم الطيور من منشورات «ديلاشو ونستليه». «٨٤٨ نوع، ٤٠٠ رسم». هذا الكتاب أفضل ما يمكن أن تطالعه، مخصص لإظهار براعة الكائن الحيّ ونبوغ التطور اللانهائي، والاحتفاء بنمط العيش الراقى. حتى أكثر أهل المدن تكلفاً ممن يرون في الطيور أغبياء حركاتهم آلية ونظراتهم مهووسة ويخضعون لمهب الرياح، سوف ينحنون أمام ألوان ريش طير التدرج والترمجان وإوز الشهرمان. أحاول التعرف على كل واحد من زوار السماء. هذا يشبه التعرف على النجوم في الشارع بفضل مجلات «people». عوضاً عن أن تصيح: «أوه، هذه مادونا!»، تقول متعجباً: «بحق السماء، هذا غرنوق رمادي!».

٢٩ مايو

أخرج دوماً وبيدي سهم ناري في حال كان هناك دبّ يجول في الغابة. يبدأ عالم البراري حال تخطي باب الكوخ. أمام بيتي لا يوجد ممرّ أو حديقة. هناك عتبة بالتأكيد، وهي مكونة من صفيحة خشبية ومنخل يفصل بين العالم المتحضّر والغابة الخطرة. أيائل، قطط برية، دببة، كلها تصطاف بالقرب من الكوخ. تنام الكلاب وراء الباب، والذباب ينز تحت المظلة الخارجية. الممالك تتجاور. الكوخ مجرد جزيرة صغيرة لإنسان ناج في أرض فردوسية وليس موطناً لأحد الرواد المكرسين لتحسين الأرض. أنشأ فرسان القيصر القوقاز أثناء غزوهم لسيبيريا معسكرات محصنة بالخنادق. تضم هذه المعسكرات كنيسة ومخزن أسلحة وبعض المباني وراء سياج من أشجار الصنوبر المقلمة كالأوتاد، وأعطوا لتلك المراكز اسم «أوستروغ». كان السور يحميهم من العالم الخارجي الذي لم يخسر شيئاً بالانتظار. إذا جاؤوا إلى هنا، فذلك لأنهم كانوا يحلمون بتغيير التايغا. في البيت الريفي المنعزل، يكتفي المرء بالبقاء في أخدار الغابة. للنوافذ غرض استقبال الطبيعة بذاتها، وليس الحماية

منها. نتأملها، نأخذ منها ما يلزم، ولكن لا نعلل النفس بالطموح لإخضاعها. يوقر الكوخ للناسك مكاناً مريحاً، لكنه لا يمنحه أي مركز. إذا قمت بدور المعتزل فذلك لأنني لا أدعي الريادة.

يقبل المعتزل بالأ يتقل على سير العالم، وبألا يكون له وزن في سلسلة المسببات. لن تعيد أفكاره تشكيل مجرى الأمور، ولن تؤثر في أحد. لن يكون لأفعاله أي معنى. (ربما يبقى عرضة لبعض الذكريات) يا لها من فكرة خفيفة! وبما أنها فكرة تمهد للتجرد التام، أقول: لا يشعر المعتزل بأنه حي إلا وهو متجرد من العالم!

تسلق القمر الأحمر وجه الليل. ها هو يعكس فوق الطوف الجليدي البراق قرباناً من الدماء على المذبح الجريح.

٣٠ مايو

كتبت اليوم بضع كلمات على جذع شجرة البتولا. «يا شجرة البتولا، أستودعك رسالة: اذهبي وقولي للسماء إنني أهديها تحية». اللحاء تحت قلبي ناعم كورق القزيم(96). بعض سجناء الغولاغ السيبيري أودعوا ذكرياتهم فوق لحاء تلك الأشجار. في وقت لاحق، رحلت أزج الحصى على سطح المياه. ثم حاولت أن أحسن أدائي في رمي السكين على لوح خشبي قديم.

مع كل ذلك، كم هو رائع أن يكون لديك أوقات فراغ!

٣١ مايو

ينحدر الجبل الذي يبلغ ارتفاعه ١٥٠٠ متر بالتدرج حتى قعر البحيرة. يقع كوشي عند انكسار صغير في ميل المنحدر، بالتحديد في منتصف الطريق لهذا الخط الذي يصل طوله ثلاثة كيلومترات. أسكن متوازناً بين جدار الجبل وغور البحيرة.

شقّت مياه النهر أخيراً سطح الجليد فوق الضفة الرملية. تمت عملية الالتحام بنجاح. تتدرج شلالات المياه نحو البحيرة. إنه صوت الحياة ينزل إلى الاحتفال. الأنهار طعنات في الغابة.

زوج من بط العيدر يأخذ حماماً قبالة الرأس. حين تصل إليه طافيتان جانحتان تهددان بالإطباق عليه كالكماشة، ينطلق نحو بقعة أخرى حرّة. هذه صورة عن المنفى.

أحياناً يتوقف نظري فوق صفحة مياه خالية يحطّ عليها بغتة زوج من البط، كأن حساً داخلياً عثر على استجابة لصلواته. مثلما يحدث عندما تكتشف العين عبارة في كتاب كان ينتظرها العقل منذ زمن طويل دون أن يفلح في صياغتها.

وصلت أولى الخنافس. تطير بتناقل في الفسحة وتخبط فوق سنادين الحطب. أشعر بالعطف تجاه تلك الحشرات، قرون استشعارها السوداء الطويلة المحنية نحو الخلف تلامس دروعها السوداء الفاحمة. تجري خرقاء فوق قشور أشجار الصنوبر. «أحبب قريبيك كنفسك». أليس الحب الحقيقي هو في حب من كان مختلفاً عنا بشكل سافر؟ لا أقصد القول أحد الثدييات أو الطيور القريبة جداً منا نحن البشر، إنما حب حشرة، أو باراميسيوم وحيد الخلية. أشمّ في الثقافة الإنسانية رائحة «نقابة»

تستند إلى مبدأ الإلزامية بحب كل ما يشبهنا. الإنسان ملزم بحب الإنسان، كما يحب طبيب الأسنان الجراح أطباء الأسنان الجراحين الآخرين. في الفسحة عكست الآية وحاولت أن أحب الحيوانات بشدة تتناسب مع درجة بعدها البيولوجي الذي تتبناه عني. الحب هو التعرف على قيمة ما لن نستطيع التعرف إليه أبداً، وليس الاحتفاء بانعكاس صورتنا في وجوه أشباهنا. أن تحب جدك أو جارك أو طفلاً، لا شيء أسهل من ذلك. ولكن أن تحب إسفنجة، أو أشنة، أو واحدة من تلك النباتات التي تعبت بها الرياح! هنا تكمن الصعوبة، أن تبدي عاطفة لا متناهية تجاه النملة التي ترمم مدينتها.

أمضيت فترة قصيرة من بعد الظهر في رأس الأرز الأوسط أراقب الإوز الذي حطّ فوق البركة الداخلية. في طريق العودة، وجدت آثار دب حديثة اختلطت مع آثار قدمي. لم تكن هناك عند ذهابي. لم يبذ الكلبان أية ردة فعل. مررت مجدداً من أمام بقايا كوخ أحد الرفضين. هل يجدر بالمرء اللجوء إلى الغابات إذا كان رافضاً لعصره مهما كلف الثمن؟ يمكن للإنسان أن يعثر على السكنية تحت قبابه الداخلية أيضاً. يمكن أن يغمض عينيه، الجفن هو أكثر الحواجز فعالية بينك وبين العالم.

حدثني ف. إي من زافاروتنو مراراً عن المنشقّ الذي كان يعيش هنا، ووصفه لي كرجل لطيف. حين أفكر في حياة تلك الروح النبيلة التي انسجمت مع الجمال القاسي لهذه البقاع، أرى كوشي عطوفاً للغاية. تخيلت المسكين البائس يقطف البصل البري كي يطبخه مع سمكاته، يتحدث إلى الطيور ويترك بقايا السمك فوق رمل الضفة لتتصرف بها الثعالب. أعرف في باريس فقط مثقفين يكتنون الإعجاب بالأوغاد ويجعلون من المجرمين أبطالاً. إنه الخطأ الذي فضحه فارلام شالاموف (97) في كتابه «بحث في عالم الجريمة: يبدو أن كل الكتاب سدوا حسابهم لهذا الطلب الفجائي على رومنطيقية الجريمة وراحوا يصفون الأشرار بهذه الشاعرية المحمومة...» المجرمون ليسوا ذئاباً أبطالاً، والأكواخ التي أوتهم لا تتسع بهالة القداسة.

جعلني الضغط العالي المتراكم عند سفح الجبل أغرق في الخمول لباقي النهار. ساعات كئيبة من الضجر وأنا مضطجع في أرجوحتي.

حتى القراءة، لم أكن أقوى عليها. كنت أهوّم تحت شجرة الأرز حين هبت عاصفة وطردتني إلى الكوخ. حينئذ، حلّ في داخلي شعور عميق بالأمان أحدثه مشهد فنجان الشاي الذي يطلق أبخرته، فيما كانت السماء تزمجر في الخارج. غليان من جهة الغرب. لقد خلّق المطر كي يشعر الإنسان بالسعادة تحت السقف. الكلبان تحت مظلة الكوخ أمام الباب. السيكار والفودكا رفيفان مثاليان لتلك اللحظات من الانكفاء. الناس البسطاء، الناس الوحيدون، لا يبقى لديهم غير ذلك. وتريد جمعيات خبراء الصحة منع هذه النعم! هل يطلبون منا أن نصل إلى الموت ونحن بصحة جيدة؟

مرّت العاصفة وجفف الهواء الغابة. لمحت بالمنظار دباباً واقفاً على بعد مسافة مئة أو مائتي متر فوق الضفة الجنوبية. بقي ساكناً. ثم أدركت أن الصخور تهتز في هواء المساء. كنت قد بدأت أرتجف أمام سراب.

في المساء، صنعت خبزاً. تركت العجين يختمر طويلاً. ما من ملمس أكثر رقة من ملمس العجين ليد الوحيد. أفهم اللغة التي تدور بين العجين والجسد. الخبازات رموز للشهوة الجنسية، فهن يهيجن

شبقفة صءفة؁ وردفة؁ لءمفة. أءلء رءففف وأنا أءبر نفسف على الكفف عن الففكفر فف الءبازاء؁ إذ بقف لف شهران أعفشهما فف هءه الءفرة.

## يونيو الدموع

١ يونيو

أتفرج على عروض الإوز والبط الجوية، جالساً أمام طاولة الشاطئ مثل أحد أعضاء لجنة تحكيم التزلج الفني المستعدين لرفع لافتاتهم.

عشق جغرافي. أنا أفضل شواطئ الحصى التي يرتجف فيها الناس بكنزاتهم الصوفية على الشواطئ الرملية المشمسة التي تغطيها الأجساد المدهونة بزيت الاسمرار. شواطئ البايكال الحصوية تصنف في المصاف الأولى.

طوافات الجليد المهروس التي كانت تسدّ مجرى الخليج منذ بضعة أيام، أبعدتها العاصفة. طوال الليل، كانت هبات الريح تعبث بالكوخ البريء.

٢ يونيو

عند رهبان الزن، يسمّى النوم حتى الضحى «النسيان في النوم». تركني النوم منسياً حتى منتصف النهار.

قمت بتركيب قاربي الكاياك الأزرق، بيد أن افتقاري للحس التقني أبطأ عملي. تشير التعليمات إلى مدة التركيب: ساعتان. أمضيت خمس ساعات، وهذا بحد ذاته نصر كبير. عند حلول المساء، أزلت القارب إلى المياه. ببضع ضربات من المجذاف، استرجعت ما حرمني إياه تقصف الجليد، إمكانية إحاطة الجبل بنظري. لقد أصبح أخضر. عادت أشجار الأرز واكتست أثوابها. أيكاً وبيك كانا حائرين لا يعرفان كيف يلحقان بي، حين وصلت المياه حتى زورهما بدأ يئنان بصوت حادّ. ثم فهمت أيكاً أنني سأعود إلى اليابسة في النهاية ويكفي أن يسيرا بمحاذاة الشاطئ الرملي في الاتجاه الذي أجدّف فيه.

«لا تتجاوز المئة متر أبداً»، هكذا أمرني فولوديا حين كنت عنده في إيبيلوشين. مياه البحيرة باردة جداً بحيث أن السقوط فيها مميت. لا يمكن لأحد أن يصمد في مياه درجة حرارتها ٣° ونرى صيادين يغرقون وهم على مرمى الصوت. غير أن جول فيرن(98) نشر في روايته «ميشيل ستروغونوف» أسطورة البايكال: «لم يغرق فيها أي روسيّ قط».

هناك الماء، وهناك الرياح، وكلاهما غدار. رياح السارما التي تنشأ من الجبال، تستيقظ خلال دقائق وترفع الأمواج إلى ثلاثة أمتار، تجرف القوارب نحو عرض البحيرة وتقلبها. يُسدد الحساب للبحيرة رجالٌ مقابل ما يؤخذ منها من أسماك. الموت إبراء من الدين. فقد فولوديا ابنه في حادث غرق منذ خمس سنوات. علمت ذلك مؤخراً وأدركت لماذا يطيل النظر في ضياء زجاج النافذة. أحياناً نحقق في المنظر ونحن نفكر بالناس الذين أحبوه، لأن ذكرى الأموات تنتقع في جوه.

يسيل لعاب الكلبين فرحاً بعودتي إلى الضفة. أسراب تخطط السماء. انعكاس الصورة يقدم للمرء متعة تأمل روعتها مرتين.

٣ يونيو

كتب رينيه ماريا ريلكيه(99) في رسالته المؤرخة ١٧ فبراير ١٩٠٣م التي يوجهها إلى الشاعر الشاب فرانتز كزافيه كابوس: «إذا كانت حياتك اليومية تبدو لك فقيرة، لا تلق باللائمة عليها. لم نفسك لأنك لست شاعراً بما يكفي كي تستدعي إليك كنوزها». وجون بوروز(100)، في فن رؤية الأشياء يقول: «اللهجة التي نتحدث بها مع العالم، هي اللهجة التي يستخدمها معنا. من يعط الأفضل، ينل الأفضل». نحن وحدنا المسؤولون عن كآبة حيواننا. العالم كئيب بسبب فتورنا. هل تبدو الحياة دون رونق؟ غير حياتك، التحق بالأكواخ. في أعماق الغابات، إذا بقي العالم كئيباً والمحيط غير محتلم، فهذا حكم قطعي: أنت لا تحتمل نفسك! شد الرحال إذا!

أمضيت ساعة في نشر جذع شجرة أرز ميت في فسحة المنزل. الخشب لا يزال سليماً ودوائر الزمن واضحة عليه تماماً. صبغت الشمس لحاء الشجرة وجعلته شهباً. هناك أشياء لا يحق للعين البشرية أن تراها. يعرض الإنسان للضوء أجزاء صغيرة لم تكن مهياً لاستقباله، إنه يحطم المحرم ويغير الكتابة. كتب ميشيما(101) في «المعبد الذهبي» عن غابة مقطوعة: «لم تكن مهياً لتلعب فيها الشمس والريح». نحن نقطع الأشجار ونقطع الأزهار. هل سندفع ذات يوم ثمن تلك الحريات الصغيرة التي نأخذها في سياق الأشياء الطبيعية، تلك التغييرات الطفيفة في المقطوعة الموسيقية البدئية؟ رداً على أحد التلاميذ، كان يعرض على كونفوشيوس حفر قنوات ري في البستان، أجاب: «من يعلم إلى أين سيوصلنا ذلك؟» الميزة في الكوخ، باستثناء قطع جذع شجرة بين الحين والآخر، أنت لا تغير الشيء الكثير في النظام العام.

كنت أجدف بهدوء منزلقاً فوق الحرير... لم ينن الكلبان حين ذهبت باتجاه عرض البحيرة، وها هما الآن يهرولان نحو الجنوب. يتمايز لون بيك الأبيض بين أزهار الأزاليا فوق المنحدر. فولوديا على صواب: بعد ربع ساعة من الحيلة والحذر، حسبت المسافة بين رؤوس الخلجان ووجدت نفسي على بعد أكثر من كيلومترين من الضفة جالساً في قارب من القماش يدعمه هيكل خشبي ركبته مستباحاً لنفسى بعضاً من الحرية في التعليمات. عدت إلى طوف الجليد البعيد عن الساحل. كانت قطع الجليد الصغيرة تتلاطم وتطنطن تحت الشمس. مكثت ساكناً فوق الزيت البارد. على بعد مترين من مقدمة قاربي أخرجت فقرة رأسها وحدقت بي. ليس لها أيد ولا أرجل، ولكن ثمة كهولة في عينيها، نظرة أكثر عمقاً من مسكنها. تحدثت إليها، أصغت إلي، نظرت إلي نظرات حسيرة، ثم غطت.

٤ يونيو

في كل صباح، عندما أستيقظ، أودي التحية للبط. تزداد الأعداد التي تنهاوى فوق البحيرة بعد أن طارت باتجاه الشمال لأيام على خط الطول ١٠٥ شرقاً. في قاموس الرموز، نتعلم أن البط عند اليابانيين رمز الحب والوفاء. أما أشجار الأرز التي تحيط بي فهي تمثل العذرية والطهارة في مذهب

الباطنية الأوروبية. يمكن تصنيف إقامتي هنا تحت شفاة الفضيلة إذاً.

يعود سبب وجودي هنا إلى ذلك اليوم من شهر يوليو قبل سبعة أعوام، حين اكتشفت ضفاف البايكال. ساورني شعور داخلي باليقين أنني سأرى تلك البقاع ثانية. على طريقة أولئك الباطنيين أتباع رينيه غينون (102) المهوسين بتحقيق «العصر الذهبي»، نحن بضع أرواح هائمة نبحث بشتى الوسائل عن تجديد لحظات الانفعال القوية في حياتنا. البعض يراها في طفولته، وآخرون يجدونها في القبلية الأولى تحت جسر المحافظة، بالنسبة لآخرين أيضاً، هي مرتبطة بإحساس بالفرح لا يمكن تفسيره، في أمسية صيف، في صرير زيز الحصاد، وبعضهم الآخر يراها في ليلة شتاء تدفقت فيها الأفكار السامية والفاضلة. بالنسبة إليّ، إنها هنا عند ضفة المنحدر الرملي المطل على البحيرة.

يقول ميشيما في «المعبد الذهبي»: «... ما يمنح المعنى لسلوكنا تجاه الحياة هو الوفاء لإحدى اللحظات، والجهد الذي نبذله لتخليد هذه اللحظة...» كل ما نفعله يتولد من إلهام عابر يتعذر لمسّه. جزء من الثانية يعلّل الوجود. يسمّى البوذيون تلك اللحظات التي يستشف فيها الوعي شيئاً ما «ساتوري». نحاول على غير هدى استرجاعها. نريد إحياء الإحساس الذي غاب. تمضي الأيام ونحن نتلمس الطريق ليغدو العيش تيهياً. نمضي وبيدنا مصيدة الفراشات، نتوق لاصطياد ما فرّ منا. تلك المحاولة التي نعيدها ألف مرة، وألف مرة تعاكسنا في العيش مرة ثانية لحظة التجلي تلك، تغدّي قوانا إلى أن يحررنا الموت من هوس إحياء كل ما اضمحل ومضى.

واحسرتاه، نحن لا نستحم في النهر نفسه مرتين، ولحظات الإحياء لا تتكرر أبداً. الإلهام ذو استخدام لمرة واحدة فقط، مثل قطع حلوى المادلين، فهي لا تُؤكل إلا طازجة. وضاف البايكال بالنسبة إليّ الآن أليفة جداً، بحيث أنها لن تستدرّ مني دمعة واحدة.

٥ يونيو

في نهاية بعد الظهر جدّفت نحو الشمال، علّقت قصبتي على الجانب العلوي للقارب. تمتد داخل الخلجان شواطئ من الحصى الوردي. المياه نقية بحيث تظهر الصخور تحتها، والشمس تكشف أماكن في البحيرة وتضيئها. عبرت أمام طوافة جليدية تقف عليها ثمانية نوارس تأخذ حمام شمس. شاهدت من داخل البحيرة الجبل الذي تغيّر. خط أشجار الصنوبريات الأخضر الرخص يسند شريط أشجار الأرز البرونزية، يكلله إفريز أخضر يانع من الصنوبر القزم. تتناثر بقايا الثلج الخفيف مثل علامات الفاصلة. تتمايل الجبال مهزومة. الظلال أجمل من الواقع، إذ إن المياه تخصّب الصورة بعمقها وغموضها، والارتعاشات على سطحها تجعل الرؤية عند تخوم الحلم.

أمام مقدمة القارب ينطلق البط بمشقة كبرى (يمكنني وأنا أجدّف الاقتراب من الحيوانات دون أن أخيفها). رسوت فوق رمال شاطئ بالقرب من شلال تمتزج مياهه الغزيرة بالبحيرة. أجبرتني العاصفة على الوقوف تحت شجرة أرز، وانضمّ إليّ الكلبان. بدت البحيرة كقميص من الفانيلا الرمادي الداكن موشى بطوفان من أوراق الأشجار الإبرية. خلال خمس دقائق، انقشعت السماء. تحت قوس قزح، جلست كالضفدع أصطاد في التيار. جاءت بعض طيور البط تلامسني. حزم من أشعة الشمس تزيين الغابة ببقع ذهبية. ثمة تدبير متكامل في توزيع الأدوار هذا، بين الجبل والضفة

والماء والحيوانات.

علقت السمكات بسرعة وكأنها كانت تتجه إلى الهدف. خلال عشرين دقيقة، اصطدت ست سمكات سلمون مرقط. وفيما كان النور يجاهد لاخترق السحب، كنت مستلقياً على الضفة أمام نار الحطب والكلاب بلصقي، وقاربي قد جنح نصفه إلى الرمال. كنت أصغي إلى موسيقا الموج وأنظر إلى سمكاتي تشوى مشكوكة في عيدان خضر، وأنا أفكر بأن الحياة لا يمكن أن تكون غير ذلك: تكريم يقدمه الإنسان البالغ لأحلام طفولته. قاومت إغواء التقاط صورة.

الشمس كالمعتاد، اختارت البورياتيا كي تغيب هناك.

٦ يونيو

هذه الليلة بقيت مؤرقاً. بسبب عذابي خرجت إلى الشاطئ وبيدي السهم الناري. كان القمر في طور المحاق. سوف يعود، نحن على يقين من ذلك. المراهنة على النجوم خير لنا من انتظار (المسيح المخلص). في الصباح، كان الهواء مبهجاً مثل لوحة من لوحات دوفي(103). صوت الأمواج اجتاح حياتي. الموج ينشد فرحاً بحريته.

فوق أعلى المنحدر، جذوع الصنوبر والأرز توطر مياه البحيرة التركوازية المسطحة. تنزهت طويلاً فوق الضفة الزرقاء.

قارب الكاياك مكوك نسيج ينساب فوق حرير البايكال.

بعد أن جذفت كي أصلح الدفة المخلخلة، نصبت أرجوحتي في الفسحة الأمامية. حين أرفع رأسي أرى سهل المياه الذي صار مرآة لأنوار السماء التي كانت تجرّب كل ألوانها. «أحسست بإحساس غريب وأنا أرى كيف تمنح الأرض ملاذاً لألوان السماء بأصغر تفاصيلها»، ميشيما، «المعبد الذهبي». قرأت بضع رسائل لشيشرون. بما أن الأخبار اليومية لا تصل إلى المعتزل، فعليه أن يبقى على اطلاع على أحداث روما القديمة. في كتاب «ألف ليلة وليلة»، وسط أشجار النخيل والروائع، هناك عبارة لها وقع مزعج: «هذا السخاء الذي تخدعني به، لا شك أن له سبباً». أفضل تكريم المجانية في كتاب «جيل»، عبارة هي شعار المعتزل: «كلما قلّت أهداف الحياة، ازدادت معانيها».

٧ يونيو

أكتب على طاولة الخشب، الكلبان نائمان فوق الرمل الدافئ. كل شيء هادئ، مسترخ ومضيء.

على أطراف الشاطئ، تفتحت شقائق النعمان. الدبابير والنحل سكارى بها. لماذا الله اللامتناهي الحكمة لم يحتط مسبقاً ويجعل الإنسان يؤمن به بكل سذاجة، دون وسائل ودون أسئلة؟ هو الذي خلق هذا الشيء الذي لا يمكن تفسيره على الإطلاق، تلقح الأزهار من قبل غشائيات الأجنحة، ونسي أن يعطي إشارات محسوسة لوجوده. أي إهمال هذا!

٨ يونيو

عند الساعة الخامسة صباحاً سمعت نباحاً. اندفعت إلى الخارج على الفور. كان صوت محرك يقترب من البعيد. هناك قارب قادم من الجنوب. تعرفت بالمنظار على أحد قاربي سيرجيه الألمنيوم الصغيرين. بعد ربع ساعة رسا برفقة يورا ذي العينين الحزینتين. كان الشاي يسخن على الموقد، ووضعت على الطاولة فطائر البلیني التي حضرتها أمس. حين دخلا كنت جالساً وكل شيء في مكانه. لا يبالغ سيرجيه ويتحدث عن «انضباط الناس الذين يقرأون». ها قد قمت بما يرفع من شأن فرنسا بأقل التكاليف! كان الكوخ لامعاً مثل مركز رصد بروسي. لم يكن يعلم أنني لولا نباح الكلاب لكنت لا أزال أشخر. لا شك أنني كنت صاحب مطعم صغير في حياة سابقة. خدمت ضيوف في متبرماً بعجالة صباحية. كل زيارة غير متوقعة هي بمثابة انقلاب وفرح في الوقت نفسه. كان الرجلان قد غادرا بوكوينيكي مساء البارحة وسارا بقاربيهما ينعطفان بين جزر الجليد المكسر باتجاه إيلوشين. هذه السنة، هما أول من يبحر بعد تقصف الجليد. راح سيرجيه يروي لي قصص طعنات الخيانة والأحقاد التي تدور بين مفتشي مراكز الحراسة. نظرية الجفاء الاجتماعي الخطيرة التي وضعها كل من عالمي الاجتماع إيميرسون وإيلول، وزاد عليها الباحث الفلسفي جوليان كوبا(104)، وأولئك الذين يتوقون إلى رابط الجماعة المشترك، تلك النظرية لم تعد صالحة. ليس الازدحام في حظيرة المدينة هو الذي يجعل الإنسان شريراً، ولا التوتر الناجم عن ضغط السوق هو الذي يحوله إلى جرد مشاكس، ولا منافسة التمويه من التجاور هي التي «تفرض على الإخوة أن يكرهوا بعضهم البعض» (جوليان كوبا في مجلته Tiqqun). في البايكال، يفصل بين البشر عشرات الكيلومترات من السواحل، ويعيشون في الغابات الرائعة، لكنهم يمزقون بعضهم البعض كأنهم جيران طابق واحد في مدينة سوقية. حتى وإن تغيرت البيئة، فإن طبيعة «الإخوة» تبقى نفسها. جمال الأمكنة لا يؤثر فيها. الإنسان لن يصطلح.

قال لي سيرجيه أجمل مديح يمكن أن أسمعها في حياتي: «وجودك هنا ردع الصيادين المخالفين. لقد أنقذت أربعة أو خمسة دبية». كنا نظري الأجواء بتلك العبارات اللطيفة مع زجاجة فودكا. لم يكن يورا البري يقول شيئاً، ولم يشرب، بقي على حدة يزدرد بين الحين والحين بصلة أو سمكة مدخنة. رحلا إلى إيلوشين لإنهاء عملهما، وأعطيتاني موعداً في المساء في زافاروتنو حيث سيمضيان الليلة.

كنا قد أفرغنا الزجاجة نحن الثلاثة، ولكن التجذيف لخمسة وعشرين كيلومتراً في قارب الكاياك يشكل تمريناً يبطل كل صداع. جذفت على مهل، ألهو دون استعجال بين الخلجان. كنت أتقدم مثل ثعلب الماء وصدر القارب يشقّ ساعات الصمت. بيك وأيكا نقطتان بيضاء وسوداء عند آخر الدروب. فوق قمة شجرة دردار صقر سلاب يتقصاني. طيور بط البلقش تضحك هازئة. تجاوزت الرؤوس على بعد كيلومترين من الشاطئ. بعد ست ساعات من التجذيف، وصلت إلى زافاروتنو. كان سيرجيه ويورا وبعض الصيادين يقفون أمام نار كبيرة بالقرب من كوخ صديقهم ف. م.

بقينا حتى الثالثة صباحاً نزكي النار ونزدرد السمك المدخن ونفرغ زجاجات الفودكا، بينما كانت البحيرة تخلد إلى النوم والحيوانات تستكين. لكم وددت أن أرتمي في دفء الكوخ، لكن روسيا علمتني ألا أرتقب أي تعويض بعد الجهد والتعب. يجب أن أكون مستعداً دائماً لتدمير نفسي بكؤوس

الفودكا بعد أن أرهقتها بقطع العديد من الكيلومترات.

كان أحد الصيادين واسمه إيغور لا يحتمل الفودكا. ما قدمته له من كحول أعاده لي بكاء ونحيباً. تهاوى بين ذراعيّ وهو يحكي لي عن الطفل المنتظر. سأذكر ما حبيت دموعه الغزيرة طوال الليل وهي تمتزج مع صرخات النوارس الواصلة إلينا. كان قد لجأ مع زوجته إلى مساعي وسيط روجي متخصص بالخصوبة، ويريدان الآن السفر للإقامة في معابد التيببت حيث يمكن لقوة البوداساف (105) أن تخصّب أحشاءهما. لم أجرؤ على مواساته بالقول له إن قرية النمل البشرية مليئة وتكاد تنفجر، وإن كلود ليفي شتراوس (106) يصف مليارات البشر المتراكمين فوق كرة ضيقة جداً بـ«ديدان طحين»، ويؤكد أننا في طور التسمم. وإن الأستاذ العجوز القلق من رؤية الضغط الديموغرافي الذي يجعل الأرض تحت خطر الانفجار «بممتنع عن أي نبوءة عن المستقبل»، هو الذي ولد في عالم أقل كثافة بست مرات. وإن مونتيرلان (107) وضع على لسان الملك في مسرحيته «الملكة الميتة»، حين اكتشف أن ابنته حامل: «هذا لن ينتهي أبداً إذا!» وإن إلقاء وليد في جبّ الأسود ليس أكثر الأشياء حكمة نفعله. وإن الرغبة في الأبوة تستكين بلا عناء إذا حافظنا على قدر ضئيل من التساؤم.

٩ يونيو

كنت قد أحضرت معي كتاب «حياة رانسيه»، عازماً على قضاء نهار ممتع في زافاروتنو برفقة سيد الاعتزال الروحي، ولكن عند منتصف النهار، وبدافع الندم على ترك الشمس تقوم بدورها وحيدة، وجدت نفسي في قلب الضوء أنتزه ثملاً فوق الصخور البركانية في منجم زافاروتنو القديم. حتى انهيار الاتحاد السوفييتي، كان هناك «رجال أحرار» يشقون الجبل بحثاً عن الكوارتزيت الناعم (108). تركوا فوق المنحدرات طريقاً متعرجاً (أفعاونياً، كما يقال بالروسية)، حسب التعبير الفرنسي العائد للقرن الثامن عشر، تتراكم فيه هياكل المحركات والجرارات الحفارة المزنجرة. كنت رثّ الملابس، منفوش الشعر، مريض النظرة، وأنفاسي كحولية. حتى الكلاب بدت بحالة يرثى لها مرهقة من هرولة أمس. تهاوينا فوق الدرب نحن الثلاثة، الواحد بعد الآخر على التوالي وتركنا فوتونات الشمس تعيد شحننا. على ارتفاع ١٠٠٠ متر، وصلنا إلى انقطاع في الميل كانت قد أحدثته حافة الحوض الجليدي للوادي القديم. يخيم على هذه الحلبة التي حرثتها أسنان الآلات جو فاسد مثل أي منجم مهجور. تابعت الصعود حتى ٢٠٠٠ متر وأنا أبصق حثالات اللبلة الماضية. هناك في الأعلى، المنظر في المقلب الآخر للبحيرة يدعو إلى المغامرة. الحياة هي المضي قدماً، فهناك نوع من الهزيمة في العودة على أعقابنا. عاودنا النزول ونحن نتعثر عبر ممرات الثلج الطري. لم تكن أجسامنا بحاجة إلى التسلق حتى ارتفاع ١٥٠٠ متر اليوم. كان ينبغي عليّ قراءة شاتوبريان وأنا أشرب الشاي الأسود، أمام رقصة بط العيدر وهو يمخض قشدة البحيرة السوداء اللذيذة.

في الساعة العاشرة مساءً، قدّم لي ف. م. المحاط بكلابه العشرة العشاء في منزله، وهو بالأحرى وجار كلب أكثر منه بيت ريفي. الأرضية صمغية من كثرة الدهون، وفوق الفرن تبقي على مهل قدور واسعة مليئة بقطع من لحوم أحشاء الفقمة وقطع أخرى من لحم غزلان الألكة: حساء الكلاب. يظن المرء أنه مرجل خيميائي من كورلاند في زمن الإمبراطورية اللوثرانجية (109).

- كيف كان المنجم اليوم إذاً؟ قال ف.م.

- جميل جداً، هناك في الأعلى، قلت.

- والكلاب؟

- لحقا بي، الشقيان.

- في الماضي، كانت هذه القرية حية، كان عندنا مطعم صغير. اليوم إنها خراب.

- هل تحنّ إلى الاتحاد السوفييتي يا رفيق؟

- لا، العاطفيون لا يأسفون إلا على شبابهم.

١٠ يونيو

قدم لي ف.م. على الإفطار مكمور لحم الفقمة. هذا اللحم شحنة نووية تنفجر في الفم وتنبض قوتها في أفنية الجسم.

- أيها الرفيق، أعطني فقمة، أعطني دبابة، واتركني أغزو بولونيا! قلت.

- هذا ليس مثلاً روسياً.

- يمكن أن يصلح كمثّل روسي.

- بالتأكيد.

الآن صديقي يطعم كلابه العشرة، يحتل عليهم كمصارح حرّ. يخترق الجمع النابح حاملاً صفيحة، يقذف الحصى في القصات وهو يدفع عنه الكلاب الهاجمة. كان كلباي يقاتلان جيداً وسط الجمع العدائي. من لا يحارب لا يأكل.

أثناء العودة، كنت ممتناً للحم الفقمة الذي مدني بالقوة. بسبب رياح معاكسة وأمواج متقطعة، لزمني سبع ساعات من الجهد لاجتياز خمسة وعشرين كيلومتراً في البحيرة. غلبنى ألم عضلي. لا شك أن التجفاف سبب ذلك. تفرض روسيا على السكارى أن يعيشوا عيشة رياضيين! كانت الضفة تنساب أمامي وتظهر فقمت، والكلبان يأخذان قيلولاً فوق الصخور المُلس بانتظار وصولي.

رسوت ونمت ساعة فوق الحصى الدافئة بين كلبيّ بالقرب من نار كانت حرارتها تُخرج العناكب من مخابئها.

في الساعة الخامسة، وصلت إلى ضفتي في اللحظة التي كان فيها مركب صيد يدنو ويغرس حيزوم قاربه الفولاذي في الحصى. سألني القبطان إذا كان بوسع المسافرين الهولنديين النزول لوقت قصير.

إيروين شاب يعمل في مدينة ساكالين الروسية لصالح شركة نفط. زوجته تتحدث الفرنسية بشكل ممتاز. الولدان أصهبان وأكثر تعقلاً من كلبيّ. لا شك أن الكوخ بدا لهما مثل الحلم، مصيّف بياض

الثلج يسكنه أحد الأقرام السبعة. شربنا الشاي بطريقة حضارية، وقوفاً على الشاطئ. مكثوا ربع ساعة والتقطوا صورة. هذا ما نفعله عادة حين لا يكون لدينا ستة أشهر أمامنا. من أعلى سلم القارب صاح إيروين:

- معي صحيفة Herald Tribune ، هل تريدها؟

- نعم، قلت.

- تاريخها الأسبوع الماضي.

- قريب جداً.

رماها لي وقلت لنفسني: أن يتم إيصال صحيفة Herald Tribune لي إلى النايغا من قبل موزع هولندي في قارب روسي، أمر يستحق العيش من أجله حتى بلوغ الثامنة والثلاثين.

الأخبار: فتيات أفغانيات صغيرات السن تحرش بهن أقرباؤهن، ثم رجمن من قبل أمهاتهن. نساء يجلدهن الملاً (صورة). عراقيون شيعة فجرؤا تجمّعاً من السنّة وبعض الشيعة من أهلهم، لأن العبوة الناسفة المرتجلة ليست متقنة الصنع (صورة). الأتراك يستدعون دبلوماسيهم بسرعة من إسرائيل (تحليل). علماء ذرة إيرانيون يختالون فرحاً لأن برامجهم تتقدم بخطى جبارة. عند الصفحة الرابعة، فكرت بالبقاء أربعة أشهر أخرى هنا بكل سرور. أوراق Herald Tribune تصلح لتغليف السمك السيبيري بشكل ممتاز.

١١ يونيو

«رانسيه» نسخة معدّلة بتصرف عن القديس أنطوان المصري. عاشق لله دون كثنان رملية أو عقارب. في القرن السابع عشر، كان رانسيه رجلاً ثرياً يحمل العديد من الألقاب النبيلة، قرر أن يتخلّى عن العالم. في السابعة والثلاثين من عمره، ترك كل شيء واتجه نحو الخلوات «دون ذكريات ودون ضغينة». صورة رانسيه التي رسمها شاتوبريان مخيفة. دون أية مقدمات، ترك زخارف القصور الفخمة، تبرأ من حياته، ودخل في تجربة التكفير عن الذات. اتخذ كلام الإنجيل حرفياً. وفي دينة للفقراء، ثم أسس فوق هضبة بيرش رهينة «الوجرة»، أخوية دينية بنظام تقشفي صارم، «إسبارطة مسيحية». كان في خلوته يتناوب على الصلاة والكتابة والتأمل، ويُنزل بجسده المريض العذاب بالتقشف. عاش سبعة وثلاثين عاماً معتكفاً، مشلولاً من الألم، حبيس حجارة ديره الكئيبة. سبعة وثلاثون عاماً من الاحتفال، مقابل سبعة وثلاثين عاماً من الصمت: دين ووفاء. بهوس محاسب، دفع رانسيه دينة للشيطان. استمد «قواه الأخيرة» من «نقائصه الأولى». في رسالة إلى أسقف تورنيه، لخص كل شيء: «نعيش كي نموت». هروبه يدهشني بقدر ما يثير نفوري. تطرفه يبهمني، لكن دوافعه تثبط عزيمتي. يوجد في هواجس رئيس الدير حماسة طفل مذهول بالسماء. «أريد المطلق، وعلى الفور!». شوقه هذا نافذ الصبر رائع جداً، لكن ناره مرضية وتلتهم كل ما لا علاقة له بالرجاء في ما وراء الموت. كتب عنه شاتوبريان في الكتاب الثالث: «تسيطر عليه كراهية مشبوبة للحياة». يوجد في هذا التنكر للحياة الأرضية «عدمية مسيحية»، تلك التي يبغضها نيتشه في

«عدو المسيح».

في التايغا، أفضل قطف لحظات الهناء على الانتشاء في الإله، يدغدغي أريج زهور الأزاليا بعذوبة أكثر من رائحة البخور، وأوثر الركوع أمام التويجات المتفتحة على أن أجتو أمام السماء الصامتة. وبالنسبة لما تبقى: البساطة، التقشف، النسيان، التخلي وعدم الاكتراث بالراحة، هذه أشياء تعجبني وأرغب في أن أعيشها حتماً.

١٢ يونيو

صباح ضبابي. العالم ملغى. إنه وقت حوريات البحر. حين تبدد الزغب، ذهبت أصطاد السمك من رأس الأرز الشمالي. في الصيد، ننال سمكة، ولكن نخسر الوقت. هل نحن رابحون؟

تركت الطعم ينزلق في التيار وحصرته بين فرعين، على عمق متر ونصف. هنا تتجمع الأسماك كي تقتات غذاءها من مصب الأنهار. اشتعل حماسة حين تغوص قطعة الفلين، هذا يعني أن لدي عشاء الليلة. عندما أقتل أسماك السلمون المرقط، تسري رعشة فوق جلدها. تنسحب الحياة بتفريغ شحنات كهربائية. يغدو الجلد كامداً. الحياة هي ما يمنحنا اللون.

١٣ يونيو

في كتاب «حياة رانسيه»، هذا الاقتباس من مرثيات تيبولوس (110): «كم هو عذب سماع الرياح تعصف وأنا في سريري». الرياح تعصف كل يوم، وأنا أستعذب الحياة مثل تيبولوس.

١٤ يونيو

تلطم الأمواج الصخور وتغسلها. مشيت بخطوات حذرة كي لا أنزلق. تخاف الكلاب الأمواج التي تعض اليابسة بأسنانها. اختفت أطراف رؤوس الخلجان تحت الزبد، وأحدثت الريح صخباً عنيفاً داخل الغابة المظلمة. التايغا تتفجر. أحيانا ينطلق نورس. فقس الذباب بالملايين فوق الحصى وغطى سطوحاً بكاملها من الشاطئ. كان الكلبان يلتقطانه بلسانيهما. لا يعيش الذباب سوى أسبوع واحد، إنه مشتته الحيوانات لأنه يؤمن لها البروتين بسعر بخس. الرمال موشاة بآثار مشي أخصية. نزلت الدببة إلى الوليمة.

لا يستطيع الكلبان عبور نهر ليدنايا. قفزت أيكا إلى صخرة في وسط التيار وانتظرت أن آتي لأخذها. ظل بيك يئن حتى الموت ظاناً أننا نتأمر على تركه. عبرت مجدداً كي أجلبه فوق كتفي. من أجل تخطي المنطقة المنحدرة عمودياً جهة شمال النهر، ارتقيت المنحدرات التي حززتها الانهيارات. تلك الجروف لها طريقة في الهمس إليّ: «تعال يا حبيبي الصغير، تعال من هنا». كان غضب الريح الساطع يمنحني أجنحة.

وصلت إلى النهر الذي كنت أتشوق إليه. يوجد شلال هادر على بعد ثلاثة كيلومترات شمال نهر ليدنايا. المكان هناك مليء بالسمك، ولكنني أحتاج إلى ثلاث ساعات للوصول إليه. نبش الكلبان لبرهة ثم ناما تحت غطاء شجيرة رندرة وردية. تعجبني قدرتهما على الإغفاء عند أقل استراحة.

شعاري الجديد: تقليد الكلاب في كل شيء! البيونيك(111). علم أساسه الاستلهام من الابتكارات الحيوية لتطبيقها في التقنية. يجدر بنا تأسيس مدرسة طبائع البيونيك. سوف نستوحي من سلوك الحيوان كي نصلح أفعالنا. في اللحظة الحاسمة، عوضاً عن أن نطلب النصح من أبطالنا: ماذا كان ليقرر مارك أوريل، أو لانسلوت، أو جيرونيمو؟ سنسأل: «والآن، ماذا كان سيفعل كلبتي؟ أو الحصان؟ أو النمر؟ أو حتى القوقعة (كنموذج عن الوداعة)؟» قد تصبح كتب الحيوانات دليلاً لسلوكنا. سوف نمنح علم الطبائع ترقية في علم الأخلاق. انقطع حلمي حين شددت سمكة سلمون فلينة الصيد نحو العمق. هذا المساء، جلبت معي إلى الكوخ أربع سمكات. ثم افترستها، لأن الحيوانات هكذا تفعل.

١٥ يونيو

يتقاطر ذباب الصخور من الجذوع والجروف كالسحب الحريرية. إنه المنّ المقدّس. حين تحتاج الحيوانات لكل طاقتها كي تتزاوج، يشكل شهر حزيران مشكلة في دورة الحياة. كيف السبيل لتأمين غذاء الحيوانات ما بين اليقظة في شهر مايو والوفرة في شهر يوليو؟ احتاطت الطبيعة بالذباب، فهي تقدم تلك الحشرات البائسة قوتاً. إنها مكرسة لتزويد الطاقة خلال أسابيع الخصاصة. بعد خمسة عشر يوماً، تختفي ما إن تنجز مهمتها. تحيا حياة قصيرة، لأنها أضحية للصالح الحيوي العام، غير أنها لا تنسى أن تعيش. عند ظهور أصغر شعاع، تبدأ بالحراك، تهتز بارتعاشات خفيفة وتتزاوج. انهماك شبيه بانتفاضة فرح قاتلة. إنني معجب بها حقاً، حتى إنني أوشكت أن ألوي كاحليّ محاولاً تفاديها فوق حصي الشاطئ.

١٦ يونيو

ثم انهار كل شيء. على هاتف الأقمار الصناعية الذي أحتفظ به للحالات الطارئة، ولم أستخذه حتى الآن، تظهر خمسة سطور موجعة أكثر من ضربة بالحديد المحمّي. المرأة التي أحب تبليغي بإنهاء علاقتنا. لم تعد تريد رجلاً كالقشة في مهب الريح. أخطأت بهروبي المتكرر، بزوغاني، وبهذا الكوخ.

حين عادت إليّ منذ ثلاثة أعوام، بعد سنوات من الغياب، كنت راحلاً للعمل على ريبورتاج عند ضفاف البايكال. ها هي تتركني وأنا أمام الضفاف نفسها. همّت على الشاطئ ثلاث ساعات. تركت السعادة تطير. يبدو أن الحياة تقتضي أن نشكر ونحمد القدر على أقلّ نعمة بلا انقطاع. السعادة هي أن يعرف المرء أنه سعيد.

إنها الخامسة مساءً والألم يتدفق أمواجاً. يتركني أرتاح لأوقات قصيرة. استطعت إطعام الكلبين، لا بل اصطدت السمك. لكن الألم كان يعود دوماً وينبعث حياً من داخلي، رصاص يذوب في عروقي.

حلمت ببيت صغير في الضاحية، مع كلب وزوجة وأطفال، يحميهم سياج من أشجار التنوب. على الرغم من ضيق أفق البرجوازيين، إلا أنهم أدركوا هذا الشيء الأساسي: يجب أن نمنح أنفسنا

إمكانية أقل قدر من السعادة.

محكوم عليّ أن أبقى وراء هذا الباب المغلق المليء بطيور البط الحمقاء، وأواجه شقائي.

يجدر بي التركيز على قواي حتى أستطيع الوصول إلى الساعة القادمة. استغرقت في قراءة كتاب. ما إن أترك المطالعة، حتى تصرخ تلك السطور الخمسة داخل رأسي.

أغلقت الكتاب وبكيت فوق وبر الكلاب. لم أكن أعلم أن فراء الحيوانات تمتصّ الدموع هكذا، في حين تنزلق فوق جلد البشر. الكلبان عادة يتقافزان في كل مكان في مثل هذا الوقت. هذا المساء، بقيا هادئين تحت سيل دموعي المنسكبة، يوليوان عنقيهما قليلاً. ليس عندي سوى مسدس سهم فوسفوري واحد لأفجر فيه رأسي. حتى إن النتيجة ليست مضمونة. ظهرت فقمة فوق سطح الماء، أمام الشاطئ تماماً... قلت لنفسني: هذه هي، جاءت تبتسم لي. يجب أن أحصل على الإذن بالتحدث إليها مرة أخيرة. نحن دائماً متأخرون عن العيش. الزمن لا يمنح فرصة ثانية. الحياة لعبة لمرة واحدة، وأنا فررت إلى الغابة تاركاً إياها ورائي.

قرأت إلى حد الإنهاك، لأنني لو أشحت عينيّ لكان الألم سيخنقني ويرغمني على النهوض. في الليل، ظننت أنني أسمع سفناً. إنهما أذناي تطلقان طنيناً.

١٧ يونيو

أقفلت على نفسي في جنة عدن التي بنيتها. السماء صافية لكنها سوداء. غريب كيف يسحب الزمن منك صداقته. في أمس فقط، كان ينساب حريراً. كل لحظة الآن هي بمثابة شوكة موجعة.

أنا في الثامنة والثلاثين من عمري، موجود هنا على شاطئ، أجدّف وأنا أسأل الكلب لماذا ترحل النساء.

لولا أيكاً وبيك، كنت سأموت. قطّعت الحطب من الرابعة والنصف حتى السادسة والنصف، حتى لم أعد قادراً على الإمساك بالفأس. «وحدها أنقى القلوب يمكنها أن تصبح قاتلة بسبب الآخرين»، كتب جيم هاريسون (112) في كتاب «دالفا». عادت موجة الحزن. حبست دموعي احتراماً للقراءة. في الأفلام، تتراجع الذئاب أمام نار المشاعل.

أغرقت سفينة حياتي، وأيقنت ذلك حين وصلت المياه إلى شفيرها. سؤال: الساعة الآن السابعة، كيف السبيل للوصول إلى الساعة الثامنة؟ الأمسية جميلة، فيها غيوم وردية وملونة غريبة بعض الشيء، مثل سجع ستائر العجائز المزودة بشراشيب مخملية. تأتي الأسماك لتتنفس على سطح المياه، تقبل الموجة تاركة دوائر تتسع وسرعان ما تمحى.

خربشت طول النهار في دفاتري السوداء الصغيرة. كتبت أشياء تافهة كي لا أتألم. تلك الدفاتر الصغيرة شخصيات مليئة بالذكريات والنكات والأفكار. قرأت «الرواقيون». وجدت في ممارساتهم ما يشدّ العزيمة، خطوة أولى نحو العزاء. أرغب في أن أبكي ألماً في هذه الغابة التي لا تعرف شيئاً عن الحزن. الحياة في كل مكان: طيور بط، فقعات، دبّ أراه بالمنظار في أسفل الراية هناك حيث

أحب الذهاب للاسترخاء. إنه المساء، الساعة التي يعود فيها كل واحد إلى بيته ويتوجه بالشكر الأخير لهذا اليوم الجديد من الحياة.

يضغط الألم على جسدي. ترى هل يمكن أن تحدث ضغوط الحزن العالية وذمة في القلب؟

بريق أمل وحيد، أتوقع غداً وصول بيرتراند دو موليس وأوليفيه ديفو، وهما رسامان صديقان يسافران عبر روسيا وعداني بالزيارة. لا بد أن يوصلهما سيرجيه بقاربه. تقودهما المصادفة إلى هنا في توقيت أصبحت فيه منهاراً مثل بركة من القطران فوق الشاطئ.

لن أحكي لهما شيئاً. سوف أخفي عنهما دموعي، وأستفيد من وجودهما كي أبقى على قيد الحياة.

١٨ يونيو

يجب أن أتماسك. وكي أتماسك، أستمد القوة من صلابة كلبّي الصغيرين اللامتناهية. الطبيعة مبتهجة بعد أن نالت حقها في الانتفاع من الصيف الجديد. عند الساعة السادسة، أيقظني من غفاتي صوت محرك. نقطة سوداء في الجهة الجنوبية: إنه خلاصي. استقبلت ميوليس وديفو كمن يستقبل النعمة. سوف يلهيانني عن رقصة الموت. عاد سيرجيه دون حتى أن يشرب كأساً، فقد كان الموج يعلو. أجلس صديقي الرسامين إلى مائدة الخشب أمام البحيرة، وبدأت أخرج من حقيبتيهما المأكولات التي أحضراها من إيركوتسك. نبيذ، بيرة، فودكا، وجبن جاف. شربنا حتى الثمالة، وراح الكحول يعيث خراباً في عروقنا. أقله سوف يجرف معه كل حزن.

١٩ يونيو

تدوم السعادة برهة. حين نستيقظ عند الفجر، ثمة لحظة هائلة، تماماً قبل أن يستيقظ الوعي وينقبض القلب.

منذ يوم القيامة في ١٦ يونيو، قرأت مسرحيتين لشكسبير، ودليل إبيكتيت(113)، و«أفكار» مارك أوريل، و«المغامرون» لجيوفاني، ورواية «إيفا» البوليسية للكاتب تشيز(114) التي يصف فيها الكاتب رجلاً سافلاً شخصيته تجفف كل شيء أينما تمر وتخلق صحراء. هذا الشخص هو أنا. بعد أن تفتت قلبي، كانت يدي التي تحركها قوة غامضة تبحث في الرف عن الكتب التي يجب أن أقرأها. مارك أوريل ساعدني. جيوفاني أظهر لي ما كان علي أن أكون، تشيز صور لي ما أنا عليه. تنجدك الكتب أكثر مما يفعل المحللون النفسيون، فهي تقول كل شيء، وعلى نحو أفضل من الحياة. داخل الكوخ، تمتزج الكتب بالصمت، وتشكل مزيجاً تحليلياً رائعاً.

نحتت الفودكا وجوهنا الثملة بمسحجها. عند منتصف النهار، كان ميوليس وديفو قد شربا حد الثمالة وغفوا على أرضية الكوخ الخشبية. كي نرشح السمّ، ذهبنا نمشي باتجاه نهر ليدنايا، وتغدنا فوق المسطحات العاشبة التي اجتاحت الجرف الأيمن للنهر. كان الكلبان يعدوان وراء البط. كم هذا مفرح!

رسامان يرتديان الأبيض غرسا حامليهما على الشاطئ، يعملان فوق لوحتيهما بضربات

ريشتيهما المتأنيّة، الكلاب مستلقية عند أقدامهما في هواء أمسية سيبيرية ليكية. مشهد له أجمل وقع في النفس. لا أملّ النظر إلى ميوليس وديفو البتة. يسافران منذ شهر في سيبيريا ويرسمان «في الهواء الطلق» كما يقولان، في أنقى أشكال تراث روسيا المقدسة للرسامين الجوالين. ينقلان الفضاء إلى سطح لوحاتهما بمساعدة الضوء والقليل من الوقت. أكتب هذه السطور بينما ينجزان رسميهما. صار الكوخ أشبه بمشغل فنان، تحوّل إلى فيلا من فيلات عائلة ميديشي الفلورنسية في نظر فلاح روسي.

٢٠ يونيو

استسلمت عند الفجر لجلسة استرخاء أمام طاولة عملي. نصب الرسامان الجوالان حامليهما داخل الكوخ. يشبه ميوليس شاعراً من شعراء ألمانيا الجوالين في العصور الوسطى، وديفو راعياً سويسرياً. يجيد ديفو تقنية حكيمة، فهو يرسم برفق واجتهاد بضربات صغيرة دوماً. بينما يعمل ميوليس بطريقة غير منتظمة أكثر. قد يخفق في رسم لوحته أحياناً، لكنه ينتج بين الحين والآخر نثرات من الذهب. هذا الصباح، كانا يرسمان رجلاً محطم القلب. من السهل إخفاء ما يؤلمنا، مثل «قرى بوتميكين» (115) التي أنشأها وزراء روس في الريف على عجل. واجهات مطلية ومرممة بسرعة كي تخفي الأكواخ القذرة البائسة. كان القيصر يتفقد أملاكه، ولم يشاهد سوى ديكورات الكرتون. عاد إلى قصره راضي القلب.

ميوليس المرح وديفو اللطيف جعلاني أحميد قليلاً عن حزني، لولاهما كان سيفترسني سرطان اليأس.

في يوم واحد، رسما الكوخ والكليين والشاطىء. يلزم الكثير من الجراة للدعاء بجمع جمال هذا المكان داخل لوحة، أكثر مما تستلزمه عشر كلمات لصياغة استعارة.

٢١ يونيو

هذا الصباح، عبرت سفينة كبيرة في عرض البحيرة. بعد عشر دقائق، وصلت موجة عبابها لتضمحل على الضفة. استقبلت هذه الموجة كأنها طفيلي غير مستحب من العالم الخارجي دخل أرضي العذراء.

يمضي الرسامان نهارهما في التقاط الأنوار التي تعبرها طيور الإوز البرية. يقفان أمام حامليهما كأنهما أمام نافذة. يبقى عليهما ابتكار المنظر الذي يُشاهد منها.

صعدت إلى قمة تلّ من ركام الصخور مع الكليين كي أتغدى. هناك في الأعلى، راحا يحدقان في البحر مستغرقين في التفكير ولعابهما يسيل. منذ خمسة أيام، مدّ لي هذان الصغيران قوائمهما وأنقذاني من الغرق.

في المساء، ذهبنا إلى الصيد. اصطاد ديفو عشاء يكفي لثلاثة أشخاص وكليين. كان خياله يرتسم تحت شجرة المرّان الكبيرة عند الرأس وهو منحني فوق المياه، بينما كان ضوء النهار فوق

المنحدرات يتكمش في مهاميز الجروف الصخرية يرفض النزول. لمع طرف الخيط بوميض فضي ولفظت البحيرة ثمارها. الكتابة والرسم والصيد، ثلاث طرائق لتأدية واجباتك للزمن.

٢٢ يونيو

حطّ فوق البحيرة غبار طلع وغبّن الساحل بطيّات صفراء زاهية. طففت فراشات ميتة على السطح. في كل لحظة تخرج فقعات رؤوسها وتحّدق في الشاطئ. تراقب ما إذا كان العالم لا يزال في مكانه، وتتأكد من أنها أحسنت صنعاً حين اختارت الأعماق.

ليس هناك أي صوت، ليس هناك أي همس، أحياناً تمر فراشة.

«الصمت، زينة العزلة المقدسة» (حياة رانسيه).

تتعاقب لوحات ميوليس وديفو واحدة بعد الأخرى كتقدمات مكرسة لروح الأماكن. ثمة سمو لا حدود له للوحة يتفوق على الصورة. الصورة تسرق هدفاً محدداً في لحظة من مجرى الزمان وتلقي بها فوق سطح الورق. لم تخطئ الشعوب الأولى حين رأّت في الصورة الفوتوغرافية سرقة. أما اللوحة فهي تقدّم تأويلاً تاريخياً للحظة ما، سوف تعيش طويلاً تحت جفني من يتأملها، وهي لا تقاطع مجرى الزمن. عملها بحد ذاته سلس، ولكي تكتمل، تُنجز على مراحل زمنية طويلة.

٢٣ يونيو

رحلنا قبل الفجر بقليل. مشينا ست ساعات على امتداد الضفاف.

ميوليس وديفو يعودان إلى إيركوتسك. كانا قد اتفقا على موعد مع طاقم سفينة تنهياً للإقلاع هذا الصباح من زافاروتنو التي تقع على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من الكوخ. كنا نبدو مثل ثلاثة رسامين يهود فارّين على طول نهر فيستولا (116). بعد أن ألقوا بكل محتويات محترفاتهم في خراجهم. كانت حقائب الظهر هائلة الحجم تسحقنا، فيها خمسة وعشرون كيلوغراماً من أنابيب تلوين الغواش ومحاليل الأكريليك وموسوعات عن الرسم الروسي، تعلوها حوامل الرسم. عندما وصلنا إلى رأس الأرز الأوسط، ألقينا التحية على شبح الناسك. بالقرب من المستنقع المجاور لخرائب الكوخ المهتمّ عثرنا على جثة دب. وبجوار شجرة دردار عظيمة في رأس الأرز الجنوبي، شاهدنا قرية نمل تعجّ بالحياة، ملايين الهياكل تشكل جميعها جسماً واحداً. أسراب إوز قطبي تنطلق نحو الشمال بسرعة كبيرة، تكاد تنفصل رقابها عن أجسادها. أضعت الوقت في البحث عن طريق الجيولوجيين القديم الذي حدثني عنه ف. م. طريق يمتد مئة وخمسين متراً ويطل على البحيرة، لكن الدرب غزته أشجار معمرة اعترضت مسيرنا أكثر مما فعلت حصى الضفة.

في زافاراتنو، قفز ميوليس وديفو إلى السفينة التي كنا نسمع محركها الديزل يدور مستعداً للإبحار قبل ساعة من وصولنا إلى المحطة. بالكاد كان لدينا الوقت لمصافحة بعضنا البعض. كم أحب تلك الأشكال من الوداع، إنها تشبه السقوط!

في المساء، وصلت إلى زافاروتنو فجأة سفينة فيها سيرجيه، ويورا صاحب العينين الحزيبتين،

وساشا ذو الأصابع المبتورة. أعددنا وليمة من السمك المدخن وكبد سمك البربوط والكافيار مع البصل البري ولحم الغزال المشوي. أرى في الطريقة التي يفرغ فيها هؤلاء الروس كؤوسهم ويمسكون قطع اللحم الكبيرة بقبضاتهم، اعتزازاً بالنجاة من أي قيد تجاري. إنهم يحصلون على مؤنهم من موارد الغابة حصرياً. أن تعيش وأنت تستخرج ما يلزمك من الغابات شيء يبعث على السعادة. أولئك الرجال مستقلون بذواتهم بطبيعة الحال، لكنهم يظنون على ارتباط بتراث آبائهم. يقفون على طرف نقيض من المفكرين الأحرار الذين تخلصوا من روابطهم مع الله والحكام، لكنهم متعلقون بالمدينة وبخدماتها كي يتغذوا وينتقلوا ويتدفؤوا. من منهم على صواب؟ الفلاح الروسي الذي يسلم روحه للسماء ولا يدخل إلى البقالية بتاتاً، أم الملحد العصري المتحرر من كل قيد روحي، لكنه مرغم على أن يرضع من ثدي النظام ويخضع للأوامر التي تفرضها حياة المجتمع؟ هل ينبغي قتل الله مع الخنوع للتشريعات، أم العيش حراً في الغابات وأنت تستمر في الخوف من الأرواح؟ ممارسة الاستقلال الذاتي مادياً لا تبدو غزواً أقل نبلاً من الاستقلال الذاتي الروحي والفكري. «نحن ننسى أن الخطر يكمن بشكل خاص في إخضاع البشر للتفاصيل. أميل إلى الاعتقاد أن الحرية أقل ضرورة في الشؤون الكبيرة منها في الأقل شأناً...»، كتب توكفيل (117) في فصل «الديمقراطية في أميركا» المخصص لـ «أشكال الاستبداد التي يجب أن تخشاها الأمم الديمقراطية». هذا المساء، وبعد أن أفرغنا الزجاجات، رجال غابات التايغا وأنا، اخترت معسكري: أنا مع الآلهة والأمراء والحيوانات، وضد قانون العقوبات!

فجأة قال سيرجيه: «سوف نوصلك!» وسارعنا إلى هذا التمرين الذي يبرع فيه الروس: رفع نخب، وشدّ الرحال على عجل، إلقاء الحقائق في القارب، والضغط على دواسة المسرع إلى أي وجهة. أي وجهة، شرط أن تشتد الرياح، ويتمايل العالم، ويأخذ السكر معه كل شيء، محتفظاً بالأمل بشيء جديد في آخر الطريق.

ما من مكان في العالم يلائم التأمل أكثر من قارب يتهدى فوق بحيرة يلقها الضباب. أحياناً كان حدّ أحد الجروف يفلح في شقّ ستارة الضباب، فتظهر نتف من الضفاف ثم تتوارى. أكره التجليات، باستثناء تجليات الجمال. هذه الرحلة البحرية شبيهة بمراحل التفكير، يشقّ الذهن الطريق داخل زغب قطني، فجأة تفتح ثغرة وتتيح رؤية شيء ما. انقشاع يسمح بالتلصص على الظلال.

أوقف سيرجيه المحرك كي نشرب كأساً في الصمت الرطب. نحن نجرع الكحول منذ ساعات وعلى وشك أن نصبح سكارى. ارتميت فوق البراميل وشبكات الصيد، أسحب الدخان من سيكاري، مسافر فوق قارب يسير في الضباب، يقوده ربان ثمل. شعرت أن الطمأنينة عادت إليّ. بعد أن خسرت امرأتي، لا شيء أخسره بعد الآن. المأساة تحلّ حبل المركب. السعادة عقبة أمام الصفاء. السعادة؟ أخشى أنني لم أعد سعيداً.

٢٤ يونيو

من أجل عيد القديس يوحنا، قدّمت السماء عرضاً من المشاهد الخلابة. طول النهار، كانت السحب التي تحملها رياح الفون الدافئة تلتف فوق القمم، تزيّن رؤوس الجبال وتغطي الغابة مثل يد

لطيفة تريد إخفاء الحيوانات فاقدة الحياء وهي تمارس الحب.

من أرجوحتي الشبكية أدرس حركة الغيوم. «التأمل» كلمة أطلقها الناس الدهاة على الكسل لتبريره في نظر الحانقين الساهرين على «أن يجد كل شخص مكانه في المجتمع الناشط».

٢٥ يونيو

يوم آخر أنظر فيه إلى السماء. سحب من الحشرات في غبار الشمس. في وقت لاحق، قمر برتقالي يطلع في مساره الليلي ليذهب ويبيض في مهد من الغيوم بيضته الوحيدة العملاقة. بكلمات بسيطة: إنه قمر مكتمل ونازف.

٢٦ يونيو

مشهد الفراشات الغارقة يهزّ مشاعري. تطفو المئات منها على وجه البحيرة. لا يزال البعض منها يجد القوة للانتفاض. جعلت من قاربي الكاياك دورية إنقاذ، وجمعت برفق الحشرات واحدة واحدة. أزهار السماء البائسة سقطت في حقل الشرف. بعد وقت قليل، كان هناك ثلاثون فراشة تزين قاربي الأزرق مثل نجوم رخوة. أنا ربان سفينة نوح مختص بغشائيات الأجنحة.

٢٧ يونيو

ذهبت إلى إيبيلوشين والهواء خلفي. كان الطقس يميل إلى العاصفة ولا يبشّر بأية شمس. بدت لي إيبيلوشين مثل محطة كنيية. كنت على موعد مع ميخايل هيبوليتوف مفتش المحمية الذي وعدني بالقيام بجولة تفقدية إلى كوخ يقع وراء القمم على بعد مسافة يوم من المسير.

عند الظهر، كنت أرزح تحت حقيبة وزنها خمسة وعشرون كيلو غراماً (الفودكا وعلب الطعام المحفوظ). وجدت مشقة في اللحاق بهيبوليتوف المعتاد على التجوال في التايغا. ارتقينا المنحدرات الحراجية الواقعة فوق التلّ. راح هيبوليتوف يسير مثل قذيفة المدفع الكروية، يتمهل، ثم يقرر استراحة قصيرة، ثم ينهض ويصبح بعيداً عني مائتي متر في الأعلى. تحت الممر الصخري الضيق، على ارتفاع ١٣٠٠ متر، وبينما كانت زوابع الهواء تحمل معها رشقات المطر، كان صديقي يريد التوقف لشرب الشاي لا محالة. أصبح الوضع روسياً بامتياز: وسط زخّات المطر، استلقينا تحت سعف الصنوبر ننتظر النار الصغيرة كي تسخن الماء بين صفائح الحجارة البركانية.

هناك طيطان محدبتان تنبسطان عند القمة، يغطيهما حصى الغرافيت الأسود وتوصلان إلى هضبة سبخية مرتفعة. اشتد وابل المطر. انتظرنا مرور العاصفة العنيفة ونحن مستلقيان وراء نتوء صخري. السير لمسافة كيلومترات فوق الأشنيات الإسفنجية لذيد للغاية، تشعر كأن حجلاناً تقوقئ تحت أقدامك. يحلم المرء بأن يكون عاشباً. قرون مرت والرياح تعصف هنا حتى صار للصنوبر القرم أشكال أسطوانية ملتوية. حوالق من الطحالب تقطر من الأشجار. وفي السبخات، كان قانون الجاذبية يؤثر على الغطاء النباتي أكثر من عامل النمو نحو السماء. في الوادي الذي وصلنا إليه شجرة أرز معمرة عرفت أزمنة جحافل المغول، كانت تبسط أغصانها. عبرنا غابات صنوبر

وروافد مياهها بلورية، ومسطحات اجتاحتها الحشرات، وأراضٍ موحلة غاصت فيها أهديتنا كلياً. عند نقطة N54°36.106'/E108°34.491 وصلنا إلى كوخ هيبوليتوف الذي كان قد بناه منذ سنتين عند حدود المحمية الطبيعية تحديداً. ملجأ بطول ثلاثة أمتار وله العرض نفسه، مبني على خاصرة الوادي يتعرج بقربه نهر. أمامه جبل مخروطي شائك بالراتنجيات يسدّ الأفق. يتكاثر الراوند والبصل البرّي وثوم الدببة بوفرة، ومعهم سحب البعوض التي تؤمّن الحراسة. نحن في إحدى تلك الأماكن التي أوتّرها، تلك التخوم التي يتلاشى فيها نور المساء بعذوبة أكثر من أي مكان آخر، كأن الشفقة تملكته.

قام ميخائيل بتكريمي. حضّر سلطة من الأعشاب البرية بالمايونيز، فودكا بالبهارات، وحساء شحم الخنزير. أخرجت من حقيبتني زجاجة جعة بحجم ثلاثة لترات، أفرغناها قبل أن يتسنى لها الوقت ليطير غازها.

٢٨ يونيو

الوادي الذي سعدنا إليه مشياً على الأقدام يصطخب بالنباتات. مشينا مترنحين مثل سكرانين قررا تسلق الشعاب الجبلية أثناء عودتهما من الحانة. في كل خطوة، كنا نعلق إما في حجارة متدحرجة، أو في جذور متشابكة، أو في حفرة موحلة. كان النهر يمضي لا مبالياً، أمامه طريق طويلة يقطعها قبل أن يبلغ المياه القطبية الشمالية عبر نهر لينا العظيم. على ارتفاع ١٢٠٠ متر، منحت الغابة أشجار الصنوبر القزم مطلق حريتها فغطت الصخور كلها. وفاء للمبدأ الروسي الذي لا يمكن أن يفوت ساعة الشاي (لا حرب ولا نزوح جماعي)، كرّسنا ساعة لإشعال بعض عيدان الحطب المشربة بالمياه. استلقينا وسط بركة صغيرة تحت المطر نحتسي الشاي الفاتر ونحدث بمتعة:

- هل كتبك مترجمة؟

البعض منها.

- إلى أي لغة؟

- الفنلندية، الإيطالية، الألمانية.

- والروسية؟

- لا.

- هذا طبيعي. نحن لا نزال بدائيين.

كانت شجيرات الورد البرية تعيق طريقنا، وكان علينا الدفع بأجام أزهارها كي نتمكن من العبور. عند ممر جبلي، اعترضنا مستنقع صغير وتضاعف هطول المطر. اقترح هيبوليتوف الغوص فيه، لكنني لم أتخيل نفسي أغوص في غابة من الأعشاب النهرية كي أتموّه بقية النهار في زغب مبلل. تسلقنا منحدرات تصل إلى هضبة تغطيها نباتات التوندرا المستوطنة. قوام الأشنيات

فيها إسفنجي أكثر من سجاد الموكيت في بيت ثريّ من حديثي النعمة الروس. رأينا بالقرب من الثلج الجليدي أربعة أيائل رنة كانت ترعى، فحاولنا الالتفاف مثل الكومانشي (118). على بعد مئة متر من الحيوانات المتخفية وراء شجيرات الورود البرية، لاحظنا أننا لسنا الوحيدين. كان هناك دب بني يقترب. اكتشف وجودنا وتجمد في مكانه. الشعور بأنك تنافس دباً في وقت وجبته أمر غير مستحب على الإطلاق. نزعت صمام السهم الفوسفوري، ولقّم هيبوليتوف بندقيته بخرطوش الـ ٧.٦٢، أرعبت طقظة مغلاق السلاح الرنات اللواتي كن يمرحن هناك. لا شك أن الدب لعننا، لكنه لم يخاطر بأية حركة، بدا كأنه تمثال غطّى قاعدته. ثم وقف على قائمته. كان علينا الانتظار بضع لحظات قبل أن نعرف ما إذا كان سيختار الهجوم أو الاستدارة. في ذلك اليوم، لم يكن هناك حاجة لإطلاق النار. من فوق الشجيرات الكثيفة، حدّقنا طويلاً في تموج فرائه الناعم وهو يبتعد.

لزمنا ساعتان من السير للعثور على الرافد الذي نزلنا منه البارحة. كان لدى هيبوليتوف خطة: منذ عام، كان قد أحضر موقداً من الحديد الصب إلى هنا، ويريدني أن أحمله حتى الكوخ. لم ينلني من ذلك سوى ساعتين من سباق العوائق، أحمل ثلاثين كيلوغراماً، وزن الموقد الذي كانت زاويته السفليتان تشقان ظهري في حين تعلق زاويته العلويتان في الأغصان منزلة عليّ عند كل خطوة طوفاناً من المياه القارسة. لا شك أنني كنت أشبه بأولئك الحمالين في جبال الهماليا الذين ينقلون عبر أدغال النيبال أكثر الأشياء تفاهة: حقيبة جلدية، جهاز حاكي من خشب الأكاجو، وحوض استحمام لأحد الضباط...

٢٩ يونيو

إذا أرسلوني ذات يوم في كبسولة فضائية، سأعرف ماذا يعني قضاء يوم كامل مستلقياً فوق سرير حديدي إلى جانب رفيق من المجرة. أحضرت معي كتاب «بحث في اليأس» لكيركيغارد الذي لا أنصح بقراءته لأيّ كان عليه أن يبقى حبيس كوخ في جو مطر. كان ينطلق من مذياع هيبوليتوف الصغير سيل متواصل من أخبار حرب ١٩٤١-١٩٤٥م، مع أغان شعبية. والمطر مستمر. يا له من نقص في مخيلة السماء المحيطة.

- ميخائيل

- ماذا؟

- لسنا محظوظين مع المطر.

- ولكن قلّ البعوض كثيراً.

- آه، نعم.

كان هيبوليتوف قد نسي كتابه في إيبيلوشين، وها هو ينظر بهيئة شاردة إلى السقف، كأن الروح ستدب فيه ويظهر له صوراً رائعة. في الرابعة من بعد الظهر، استحوذت علينا فجأة الحماسة. استبدلنا المدفأة القديمة بالجديدة، ثم شربنا في دفنها العذب ثلاثة كؤوس من الفودكا وفقاً للتقليد الذي يفرضه الاحتفال بأول دخان للمدفأة. في الساعة السادسة، عقب المطر رذاذ خفيف. ذهبنا نتسلق

الرابية الهرمية التي تقع على جانب الحافة الشرقية للوادي. عاد المطر مجدداً في اللحظة التي شرعنا فيها بالمشي. بدت الأشنيات ستائر شفافة تقطر منها المياه، وكانت الطحالب تبتلع أذيتنا. لم يجد البعوض فضاء يطير فيه. احتجنا ساعة لتسلق مسافة ٣٠٠ متر تتوجها أشجار أرز هرمة عمرها ثلاثمائة عام. عند أطراف جحر دب قديم، كانت أزهار الجريسات الخمرية البرية تضيئ شيئاً من البهجة إلى هذا الجو الكئيب.

استيقظت في الليل على فأر دخل إلى كيس نومي. إنه يخيفني أقل مما لو كان عنكبوتاً، لكنه كان أكثر حركة من راقصة في مدرسة كيروفا(119).

٣٠ يونيو

من يرى هيبوليتوف بشعره الأشيب في أحد شوارع إيركوتسك يظنه رب أسرة بسيطاً يعيش حياة مستقرة. في كل عام، يمضي هيبوليتوف بضعة أشهر في الغابة وحيداً، يزور أكواخه السنّة القائمة على امتداد مئة وعشرة كيلومترات، يجدد العهد مع يقين يتشاركه مع بعض الروس، وهو أن العيش في المدينة لا يمكن أن يكون سوى فاصل قصير أساسه الحياة في الغابات.

عدنا والمطر مستمر. كانت الشجيرات الصغيرة ترتجف، وتبدو كأنها تحلم بتايلاند. بينما كنت متخفياً في قلنسوتي، تذكرت المرات التي تسلقت فيها جبال بروفانس الكلسية وروائحها. السير تحت المطر يستدرج الذكريات.

في الأدغال الاستوائية، تساعد الحرارة والرطوبة على وفرة الحياة. النماء في التايغا لا يمكن أن يستفيد من تلك الظروف كحاضنة بيولوجية. الأدغال الحارة تنتج دون انقطاع، بينما التايغا تحفظ. النمو النباتي هنا بطيء، لكن التفسخ لا ينظف قلب الغابة بالسرعة نفسها كما ينظف المناطق قليلة الارتفاع. تتطلب شجرة أرز سيبيرية سنوات كي تتحلل. في الحالتين، تحدث فوضى نباتية تتراكم فوق الأرض، فاكهة هناك من غزارة الثمار، وغياب الحتّ هنا بسبب الغطاء النباتي الدائم.

عدت إلى إيبيلوشين للقاء كلبّي الصغيرين، وتغديت مع فولوديا وإيرينا وهيبوليتوف فطائر بلّيني ببيض سمك السلمون المرقط. لا يوجد ما يكفي من الكافيار دائماً، ولكن هناك الكثير الكثير من الفودكا.

ثم، وبضربات كبيرة من ملعقتي في قهوة البحيرة، هربت إلى كوشي.

## يوليو السلام

الأول من يوليو

يوم في الصيد. يخضع أكل السمك الذي يحصل على غذائه من البحيرة لتحولات نفسية وفيزيولوجية. تتغذى خلاياه بالفوسفور، وتنتشر طباعه بخلاصة السمكة. ما يفقده من قوة في دمه، يكسبه وداعة وصمتاً ومهارة وخفة يد واحتراساً.

اصطدت ثمان سمكات أو مبل. عيون الأسماك مذعورة كأنها شاهدت أشياء محرمة. أيكاً وبيك سرقا مني ثلاثاً من غنائمي. لم أفق حتى على لومهما. لو كنت أربي أطفالاً، لانتهى بهم المطاف زعراناً.

٢ يوليو

الهواء مثقل بالحشرات. يرتفع في الجو أزيز منذ أنوار الصباح الأولى ولا يفارقه حتى الليل. تتسلق خنافس الجعل دعائم الكوخ، تستعمر رفوفي حشرات مدرعة. ذبابت النعرة ذات العيون المرعبة تناكد الكلبيين. لو كان وزن هذه الذبابت خمسة أو ستة كيلوغرامات كما كانت في العصر الكربوني، ربما كان البشر أقل خبثاً.

٣ يوليو

أفرج الربيع عن المياه.

الشلال حرّ.

تندفق المياه متسربة عبر مضيق يكال رأس الجدار الصخري الذي يرتفع نحو خمسين متراً. كانت غلالات المياه تغطي الصخور البركانية كأنها شلل من الخيوط الحريرية البيضاء. قمت بحركة بهلوانية فوق نتوء مائل في الجدار يصل حتى القمة، وبلغت رأس الشلال. كان منظر الدفق البلوري الذي يصبّ في الفراغ مدوخاً. ماذا لو كانت تلك الشلالات تلقي بنفسها من أعلى الجبال بدافع اليأس؟

في المساء، تصارع الكلبان. تضاربا بأسنانهما كأنهما في مبارزة بالسيوف. هذا الشاطئ يُفقد الصواب. هل هناك حلبة أجمل منه لمشاهدة مصارعة ساموراي، أو للتجوال بحثاً عن كلمة، أو لإنشاد قصيدة؟ أعيش عند تخوم غابة، أمام سهل من المياه، فوق خط جيولوجي منحدر، جذره على عمق ١٥٠٠ متر، ويلامس السماء عند ارتفاع ٢٠٠٠ متر. يقع كوشي عند نقطة التقاء الفضاءين.

٤ يوليو

ما هو الترف؟ أربع وعشرون ساعة تنبسط أمامي، مهداة لرغبتني وحدها كل يوم. الساعات

فتيات شقراوات يقفن في الشمس لخدمتي. لو أردت البقاء ليومين مستلقياً فوق سريري أقرأ رواية، من ذا ينعني؟ لو تملكنتي رغبة عند هبوط الليل في الرحيل إلى الغابات، من يثنيني عن عزمي؟ لدى معتزل الغابات عشقان: الزمان والمكان. الأول يملأه على هواه، والثاني يعرفه كما لا يعرفه أحد.

ما هو المجتمع؟ اسم نطلقه على تلك الشبكة من التيارات الخارجية التي تثقل على دفة مركبنا لتمنعنا من قيادته إلى حيث يبدو لنا أفضل.

بقيت في أرجوحتي تحت شمس حارقة (+٢٢!). حين أكتب على الشاطئ، تأتي الكلاب على مهل تستلقي عند قدمي. نسخة من بحيرة الباكال عن لوحة القارئة والكلب الإسباني المستريح عند قدميها في البيت الريفي الإيرلندي.

أشعة وغلالات رطبة تلامس سطح البحيرة بكل رقة.

٥ يوليو

تتحرك الحشرات بحساسية مؤشر الزلازل عند أقل ارتفاع في درجة الحرارة. ما إن تبلغ حرارة الهواء ثلاث درجات مئوية، حتى تفقس بالملايين وتشوش الهواء بطيرانها المجنون. حشرات الخنافس المعدنية تتسافد. تتلامس بقرون استشعارها وتتزوج الحشرات في جمود كالتمثال. لم أكن لأمانع زيارة صبية سلوفانية تدرس علم الحشرات تأتي لدراسة هذه الظاهرة. طيور البط أيضاً، تُظهر ثبات الطريقة البرجوازية. تعبر أزواجاً أزواجاً بأجمل حلّة، تحيي الأزواج الأخرى بإحناء رأسها قليلاً.

العالم الذي أطأه كل يوم من الفسحة الجرداء وحتى ضفة المياه يؤوي كنوزاً. داخل العشب وتحت الرمال تنهمك جيوش، جنودها جواهر. يرتدون الشكاك والخوذ البراقة، الدروع الذهبية، زروداً خضراء بلون حجر المالاكيت البديع، أو اللباس المخطط. في أرز الشمال، مشيت دون أن يراودني الشك بأنني أمشي فوق الجواهر، حجارة ألماس، أحجار كريمة منقوشة، خرج بعضها من مخيلة جواهريّ من تيار الحركة الفنية العصرية اشتغل مع خيميائي فاوستي (120). عفريت لابتكار مشابك وتحف زاهية خارجة من الفرن.

الاهتمام بالحشرات يمنح الغبطة، حين تولع بتدابير متناهية في الصغر لكائنات عادية إلى أبعد حدّ. بالنسبة لعاشق الحشرات، تصبح بركة المياه بحيرة تنغانيقا (121)، ويتخذ كوم من الرمال أبعاد صحراء تكلامكان (122)، ويتحول دغل صغير إلى ماتو غروسو (123). اختراق جغرافيا الحشرات، هو بالنتيجة إعطاء الأعشاب أبعاد عالم بحد ذاته.

٦ يوليو

حين تكون البحيرة زيتية، تنعكس الصور فيها نقية صافية، حتى إنني أنخدع ما بين المنظر الحقيقي وانعكاسه. يحمل الهواء النقي صدى مجدافيّ إلى الغابة. الخيال صدى الصورة، والصدى

صورة الصوت.

بينما كان يجتاح الضفة ضباب من ذلك الذي نراه في الصور الآسيوية المطبوعة، اصطدت سمكة أوميل وزنها ثلاثة كيلوغرامات. أقرأ باشلار (124). بالقرب من النار: «جميلة كالغموض، ساكنة كالحم، خاطفة كالحب». (التحليل النفسي للنار).

٧ يوليو

ليلة أرق. داخل قفصي الصدري هموم وحسرات ترقص رقصة السحرة الصاخبة. في الرابعة والنصف حين عادت الشمس، قام النور بطرد خفافيش الليل وغفوت أخيراً.

هل هذا بسبب التعب؟ حين استيقظت عند منتصف النهار، كنت أطفو داخل خبل عذب. ثمة أمل بالهناء هذا اليوم: لا شيء جديد يحمله إليّ، لا أحد يلوح في الأفق، وليس هناك أية مهمة أقوم بها ولا أية حاجة أرضيها، وما من شخص أرد له السلام. ربما بعض تحيات التبجيل عند الغروب لفقمة الساعة السادسة والنصف، ولسرب بط العيدر.

الكوخ مكان لا جوار فيه. إنه ملاذ الفراغ، حيث لا ترغم على الردّ على كل شيء. كيف بوسعي تقدير راحة هذه الأيام المعتقة من الردّ على الأسئلة متأهباً؟ أدركت الآن الطابع العدائي للمحادثة. يأتي المتحدث مدعياً الاهتمام بك ليصدّع هالة صمتك، يتدخل عند ضفة الزمن ويجبرك على الردّ على أسئلته رغماً عنك. كل حوار هو بمثابة صراع.

يقول نيتشه في كتابه «هذا الإنسان»: «يجب على الإنسان أن يتجنب ما هو عرضي وما هو باعث خارجي بقدر الإمكان. حين تحيط نفسك بالجدران بطريقة ما، فذلك نوع من أوائل الحذر المسبق الغريزي للاختمار الفكري. هل أسمح لأي فكر غريب بالتسلق سراً على هذا الجدار؟» ويذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً، في مديح اللامبالاة الباردة: «أرى مستقبلي، مستقبلاً فسيحاً، كما لو كان بحراً هادئاً، ما من شوق يقلق هدوءه. لا أريد ولو في سبيل أي شيء في العالم، أن تصبح الأمور غير ما هي عليه، أنا نفسي لا أريد أن أكون مختلفاً».

على نحو غامض، تخلصت من كل شوق في اللحظة التي بلغت فيها أقصى حد من الحرية. تنمو داخل قلبي مناظر من البحيرة. لقد أيقظت في داخلي العجوز الصيني.

٨ يوليو

في المساء، أوقدت ناراً على الشاطئ وشويت سمكاتي هناك.

المساء حلم يحتضر. نحو الساعة الثامنة، كانت كل مكونات أحلام اليقظة الرومانسية تنبسط أمام مسكني: المياه الغافية، مزق الضباب، نسمات عابرة مصطبغة بألوان الباستيل، الطيور التي تعود إلى مأواها محلقة. تقارب الطبيعة ديكوراً رديء الذوق دون أن تضع فيه شيئاً من ذاتها.

اليوم تخلّيت عن الكتب. أصابني تحذير نيتشه في كتابه (هذا الإنسان): «رأيت ذلك بعيني: موهوبون بالطبيعة، أغنياء و«ميالون إلى الحرية»، «منهكون من القراءة» مذ كانوا في الثلاثين من

العمر، يصبحون مجرد عيدان ثقاب، يكفي أن تفركها فقط حتى تعطي شرارات، «أفكاراً». المطالعة القسرية تنفذ من شجن السير في غابة التأمل بحثاً عن الانفراجات. كتاباً بعد كتاب، يشعر المرء بالرضا بالتعرف على صياغة الأفكار التي كنا نغذي بها الحدس. تقتصر المطالعة على اكتشاف التعبير عن الأفكار التي تطفو في داخلنا، أو أنها تكتفي بحياكة نسيج من الصلات بين مؤلفات مئات الكتاب.

يقول نيتشه عن تلك العقول المتعبة: إنها لا تفلح في التفكير إلا إذا «استندت إلى المراجع». وحدها قطرة الحامض تستطيع إيقاظ المحارة.

ومن هنا يأتي إشعاع أولئك الأشخاص الذين يطرحون على العالم رؤية متحررة من كل مرجعية. لا تقف ذكريات مطالعاتهم حاجزاً بينهم وبين جوهر الأشياء.

كان في حياتي فتاة تعرف كيف تنسى ما قرأت وتضمّر في داخلها خشوعاً لكل أشكال الحياة. كنا ذات مرة في منطقة الكامارج في الجنوب الفرنسي نجدّف في المستنقعات المالحة بين القنوات على طول البحيرة الشاطئية، وكانت أسراب طيور البشروش تطير وسط ريشها في الشمس الغاربة. عند المساء في المخيم، كانت هناك سحب من البعوض. كنت أسحقها وأرثها بالمبيدات. أما هي فكانت تقول: «أنا أحبه. إنه يقرص، لكنه ضروري للجميع. بالإضافة إلى أن هناك مناطق عاث فيها الخراب، حُميت بفضل من الإنسان واستطاعت بقية الحيوانات أن تعيش بسلام». هجرتني هذه الفتاة منذ اثنين وعشرين يوماً.

عند أول المساء وصل صديقي توماس غواسك وبيرنار هيرمان ترافقهما سفينة سيرجيه إلى الضفة. وفقاً لتقاليد أرز الشمال، رحنا نشرب على الشاطئ نخب الحب الذي دفنته والصدّاقة المتجددة. جاء غواسك يعمل هنا كصحفي لصالح إحدى المجالات، وهيرمان ليقوم بما يكرس حياته له كحكيم زن منذ عشرات السنين، التأمل في ظلال النور على وجه العالم. يشبه عقيداً في الجيش الهندي بسترتة القطنية البيضاء ونظارته الصدفية. بسبب شاربه الأشقر ونظرة الملياردير الروسي بوغاتشيف، كان الروس يظنونه قائداً قوقازياً في الجيش الشعبي. وكان يجيبهم بمزيج لغوي ورثه من رحلاته إلى روسيا في زمن بريجينف وخروتشيف أنه إذا كانت لديه جينات كريلوية (من شعب جزر البحر الكاريبي) ويهودية ولسنتية وبلطيقية وإسبانية وتيوتونية(125)، فهو لا يعرف إن كان لديه أي جدّ قوقازي.

٩ يوليو

ترك سيرجيه البارحة مؤونة من دهن الفقمة. جدّفت مع غواسك باتجاه الجنوب كي نضع قطع اللحم كريمة الرائحة فوق الصخور على أمل أن تجذب دباً ما. من طاولتي على الشاطئ، سأتمكن من مراقبة المشهد بالمنظار. رحت أمضي الساعات موعوداً بالدبّ.

أقمنا معاً أنا وغواسك وهيرمان بكل مودة. نصطاد، نطوف الأبحار الشاطئية، نتماحك حول الفرق بين نظرية العدمية(126) الروسية والقبول البوذي وطمانينة القلب الرواقية. أحياناً كان غواسك

وهيرمان يستعيدان ذكرياتهما عندما كانا في الجندية. ينوس الحديث حينئذ ما بين شعر الشوي (127). حين يكون عن تانغ (128)، وعمليات وكالة الاستخبارات الخارجية الفرنسية حين يصبح الآخر أحد أفراد المظليين النخبويين في القوات البرية الفرنسية.

١٠ يوليو

السماء أكثر سخاء بحيواناتها من الغابة. لم يأت أي دب إلى الموعد ليلتقط الدهن نتن الرائحة. عديدة هي مأموريات الإوز القطبي والبلقش والبط الزرقاوي والعيذر. وصل من الشمال عند حلول الليل مجدفو قوارب كاياك ألما. نصبوا مخيمهم عند رأس الشاطئ على بعد خمسمائة متر من كوشي، ثم جاؤوا كي يشحنوا أجهزتهم من بطارياتي الشمسية. كان عليهم رؤية صورهم وأفلامهم وتبادل عناوين من الأنترنت. اليوم حين نلتقي أحدهم، بعد المصافحة مباشرة ونظرة سريعة، نسجل أسماء المواقع والمدونات. لقد حلت الجلسة أمام الشاشات محل المحادثات. بعد اللقاء، لا نحتفظ بذكرى الوجوه أو بنبرة الأصوات، إنما ببطاقات عليها أرقام. لقد نجح المجتمع البشري بتحقيق حلمه: تحتك قرون الاستشعار على شاكلة النمل. يوماً ما سوف نكتفي بأشتمام بعضنا البعض.

١١ يوليو

رحل الشباب الألمان بعد أن جهّزوا قواربهم الكاياك على أكمل وجه. في اللحظة نفسها، ظهرت جماعة من أربعة مجدفين في خليجي. كان أولئك أقل حظاً بكثير، إنهم روس. تجهيزاتهم مرقعة، أكياس قمامة تقوم مقام العازل مكان جلوس المجدّف، ويرتدون بلوزات الأسطول البحري المخططة. لكنهم رحبوا بكؤوس المشروب الثلاثة التي رفضها الألمان بحجة أن الوقت صباح الألمان والروس، الأولون يحلمون بتنظيم العالم، والآخرين لا يعبرون عن عبقريتهم إلا تحت تأثير الفوضى.

آخر زيارات النهار جديرة بمدرسة سينما البلقان من سنوات التسعينات. طوف قادم من الشمال أعلن عن وصوله بقرعة المحرك، لوائح عائمة فوق إطارات هواء لشاحنة من الأورال كانت تتجه نحو ضفتي. وسط هذه الجزيرة العائمة المحمولة على الخشب المتشابك والمثبت بالحبال المعدنية تتصدّر سيارة، نزل منها فوق الحصى ثلاثة رجال روس سحنتهم كالقتلة بلباس المعركة الكامل. «اسم طوفنا الجسور!». كانوا يلبسون قمصان رجال الغواصات المخططة ويعلقون في أحزمتهم الخناجر. استخدموا الناقل الحركي للسيارة بعد أن أخرجوه من محوره وأحنوه عشرين درجة وجهّزوه بمروحة للدفع. على مركب الهلاك الكونتينيكي (129). هذا، كانوا ينزلون باتجاه إيركوتسك، يتناوبون على قيادة السفينة وراء مقود السيارة. في الخلف، كانت تشتعل داخل صفيحة معدنية من صفائح الورش نار حطب تقوم مقام المطبخ. عند رحيلهم، كانوا يسحبون وراءهم خيطاً من الدخان ينطلق من فوهة مدفع نقال. رحت أتأمل هذا الطوف الذي يشبه الحياة في روسيا: شيء ثقيل، خطير، على وشك الغرق، خاضع للتيارات، ولكن يمكن تحضير الشاي عليه باستمرار.

في المساء، عند شلال المياه، بينما كان هيرمان يحرس الكوخ الصغير، نجحت مع غواسك في

العبور إلى الضفة الأخرى للشلال. وصلنا إلى خط القمة الغرانيتي الذي اكتشفت فيه هذا الشتاء منصة للتخييم. استغرق تسلق آخر خمسين متراً ساعة من الزمن، كانت تعوقنا أشجار الصنوبر القرم وتمسك الأغصان بخطواتنا.

أوقدت النار فوق المنصة. هذا النتوء في الجدار الصخري يشبه زنزانة السهرة الأخيرة. أحد تلك الأماكن التي يتصالح فيها المرء مع نفسه قبل الإعدام. هذا النوع من المواضع، تبعاً لحالتك النفسية، إما أن يكون اليأس الأكثر قنوطاً، أو السعادة التي تشرق على محياك. رحنا ندخّن سيكار الروميرو الصغير. الليل ساج، القمر رحب. لماذا هذه الرغبة في إعادة تشكيل العالم في اللحظة التي يخبو فيها؟ تجمعت سحب فوق بعضها البعض وحجبت أفق البورياتيا. الشمس الغاربة كالنار تنضج السحب. العناصر الأربعة تعزف مقطوعتها. الماء يستقبل شذرات القمر الفضية، الهواء يتخلله رذاذ، الصخر يرتعش من تراكم الحرارة. لماذا نعتقد أن الله موجود في مكان آخر غير الغروب؟ الكلبان يتكوران على بعضهما تحت الصنوبر. ارتفعت النار وهبط الليل فالتقيا.

فجأة انتفضت أيكا وسارعت نحو المنحدر مكشرة عن أنيابها، في حين بقي بيك منبطحاً تحت الصنوبر مثل كلب منزلي تائه في التايغا. كانت كلبة الحراسة السوداء الصغيرة تنبح في الليل، ونحن تخيلنا دباً يحوم حول مخيمنا.

١٢ يوليو

ذهبت مع غواسك وهيرمان إلى رأس الأرز الأوسط. مشينا بصمت على رمل الشاطئ. شاتوبريان في «حياة رانسيه» المسحوق تواضعاً، يتذكر أنه سار على طريق «تحت ثقل روحه».

عند نقطة الرأس، وقفنا لحظة خشوع أمام كوخ الهارب من زمن روسيا الشيوعية وانتهى به المطاف متفسخاً فيه. هيرمان: «عاش هنا دون أن يعرف غي لوكس(130)». داخل دغل من شجيرات الصنوبر القرم، فوق زنار من الحصى يفصل البايكال عن المستنقعات الداخلية، اكتشف الكلبان بطة تحضن البيض. توجب علينا ردهما كي لا يلحقا الأذى بالبيض. لكن بايكا نجح رغم ذلك بقرمطة فرخ صغير أمام ذهول هيرمان الذي يراعي منذ أربعين عاماً غذاء نباتياً صارماً.

حوّلت شمس الساعة السادسة المستنقعات إلى رقع مياه في غابة أسطورية. غلّف السطح بخار سحري وفتح فيه ثغرات تنشقّ عنها آلاف التفرعات. مشهد يصلح لكاتب من العصر القوطي الفيكتوري. في رواية خيالية من نهاية القرن التاسع عشر، تصبح اليعاسيب مطايا مجنحة للجنيات، ويريق الضوء فوق المياه قبيلات حوريات البحر، والضباب أنفاس الجان، وتتخذ العناكب مكان حرس أبواب الريح، والمياه النائمة تؤوي مدفن إله حارس، وسيول أشعة الشمس المتسربة من بين القمم ترمز إلى طريق مرصوف بالذهب نحو مملكة السماء. لكننا لا نعدو أن نكون أكثر من بشر في عالم الذرات ويجب أن نعود قبل الليل.

١٣ يوليو

يتابع الأوروبيون إنشاء مفاعلات نووية مضغوطة من الجيل الثالث، وأعادوا إطلاق مشروع

ترانسجرين المخصص لجلب الطاقة الشمسية المنتجة في المنشآت الأفريقية، وشهدوا مستنقعا أسود في عرض بحر فلوريدا. أقرأ هذه العناوين عن الإنسان «خالق الكون» في الصحف التي أحضرها معه غواسك.

الحياة في كوخ هي إشهار بالإيمان بالطاقة يقف على نقيض فكرة بطولة بروميتيوس التاريخية. فأس الحطاب واللوح الشمسية يؤمنان النور والدفء. هذا التقشف في الطاقة لا قيمة له، وفرحك حين تدرك أنك مكثف ذاتياً لا أثر له، وكذلك شعورك بالخشوع لأنك تستفيد من عطاء الشمس الجزيل. تلتقط ألواح الطاقة الضوئية زخات الفوتونات المتساقطة من السماء، أما الحطب، أحفور نور الشمس، فهو يحرر طاقته في النار.

مصدر كل وحدة حرارية الصيد أو القطاف. كل فوتون ضوئي يتمثل في الجسم يُنفق على الصيد والقطاف وسحب الماء وتقطيع الحطب. رجل الغابة آلة إعادة تدوير للطاقة. اللجوء إلى الغابة لجوء إلى الذات. بسبب غياب السيارة، الناسك يمشي. لعدم وجود متجر التموين، يصطاد السمك. ولأنه لا يملك مرجلاً للتسخين، يقطع الحطب بذراعه. مبدأ «اللا توكيل» يسري على العقل أيضاً: بسبب حرمانه من التلفاز، يفتح كتاباً.

ماذا يشبه النفط واليورانيوم؟ ماذا يوجد في قلب المفاعل النووي المضغوط؟ ممّ تتكون الطاقة التي تنفجر من صنوبر (BP) شركة بريتيش بتروليوم من عمق ٤٠٠٠ متر؟ من يحول تلك القوى ويسيرها إلينا على شكل استطاعة؟ تعتمد شيوعية الكوخ على رفض كل الوسطاء. يعرف الناسك من أين يأتي حطبه وماؤه واللحم الذي يأكله وزهرة النسرين التي تعطر مائدته. مبدأ الجوار يرشد حياته. هو يرفض العيش في التقدّم المجرد واستنزاف طاقة لا يعرف عن مصدرها شيئاً. أن يكون المرء عصرياً معناه أن يرفض السؤال عن أصل أفضل التقدّم.

تحدثت أخبار الصحافة الأخرى عن قضايا فساد موظفي الدولة الفرنسية. تنمّ تلك الأخبار أحياناً عن طيش ممتزج بإخفاء الرذيلة. قباحة أولئك الموظفين المتأنقين وفقر تعبير أولئك الناس أشد مكرراً من اختلاساتهم.

١٤ يوليو

رفعت الشمس ألوانها في الرابعة صباحاً، وأنا رفعت ثلاثة أخرى بعدها بقليل. الراية الصغيرة -سما، تلج، دم- تخفق على الشاطئ، معلّقة على عصا الصيد. من أجل الوطن، أفرغنا أنا وغواسك ثلاثة كؤوس من الفودكا الصباحية. كرمنا ذكرى معركة بورودينو (131). نظمت حفلاً شعبياً راقصاً وعلمت بيك الفالس. أيكا الكلبة رفضت الرقص. هل غرس علم فرنسي فوق الأرض الروسية عمل شرعي؟ هل هذه حركة هجومية؟ أفكر في سؤال أحد القانونيين إذا مروا بقواربهم الكاياك من هنا؟

١٥ يوليو

غواسك وهيرمان رحلا هذا الصباح. حضورهما المحبب وتعاقب وصول الرياضيين المستمر في الأيام الأخيرة حطّم ساعتى الداخلية. سوف أحتاج إلى بضعة أيام لاستعادة الإيقاع الذي كان

أساسه الوحيد مراقبة مسير الشمس حول الفسحة الجرداء أمام الكوخ.

١٦ يوليو

الحياة في الكوخ ورقة من زجاج. تصقل الروح، تعزي الكائن، تعيد الذهن إلى حالته البرية، تجعل الجسد كالأدغال، لكنها تبسط في أعماق القلب حُليمات أكثر حساسية من الأبواغ. يكسب الناسك وداعة ما يخسره من حضارة. «لعل جدنا كان أكثر رقة أمام المتعة وأكثر وعياً لسعادته، نسبة إلى أنه كان أقل حساسية للألم». كتب باشلار في التحليل النفسي للنار.

إذا أراد الناسك المرمي على ضفة الحفاظ على سلامته العقلية، ينبغي عليه أن يمتلك اللحظة. ليبدأ في رسم الخطط، وإلا سيقع فريسة للجنون. الحاضر قميص يحميه من إغواء المستقبل.

سحب المساء، وضعت قطنسات النوم القطنية فوق رؤوس الجبال الناعسة.

أزهار النسرین تطوق قواعد الأشجار عند أطراف الغابة، وتميل بتوحيجاتها نحو آلهتها الشمس. أتذكر وصف حديقة شارع بلوميه في رواية البؤساء. جان فالجان جعل الأرض البور تزهو، وفيكتور هوغو أعلن عن إيمانه بمذهب وحدة الوجود: «كل شيء يعمل من أجل الكل... يوجد بين الكائنات والأشياء علاقات عجيبة... ما من مفكر يجرؤ على القول إن أريج الزعرور غير نافع لمجموعات الكواكب...»

دعوني أستفيض في فكر هوغو: من بوسعه الادعاء أن ارتداد الموج على الشيطان لا معنى له في أحلام صغير الطبي، وأن الريح لا تحسّ بشيء لدى ارتطامها بالجدار، وأن الفجر غير حسّاس لشقشقة طائر القرقف؟

١٧ يوليو

أحسب اليوم لقراءة «إعصار»، وتقطيع مؤونة من الحطب، وصيد أربعة أسماك، وإطعام الكلاب، وإصلاح عوارض خشبية في المظلة خربتها العاصفة. ماكفير الشخصية الرئيسية في رواية «إعصار» لجوزيف كونراد هي نقيض الكابتن أشاب في رواية «موبي ديك» (132). فهو يقف على عتبة القدر، يتقبل الإعصار ولا يبحث عن مفر من المحتوم. لم الاضطراب من شيء لا ينجم عن إرادتنا؟ لا يستحق أي حوت أبيض أن ننفعل. حين يُدفع بالبشر إلى أقصى الحدود، تمنحهم اللامبالاة مظهراً عنيداً، ويتخذ ماكفير بقلم كونراد ملامح الرجل الفظ. يمكن لهذا الربان أن يكون بطلاً روسياً بامتياز. في روسيا، كي يعتبروا عن لا مبالاتهم، يقولون: «منيفيغو». ويسمّون ذلك *pofigism*، أي تقبل كل شيء برضى وقبول. يتباهى الروس برضاهم الداخلي لمجابهة اضطرابات التاريخ الكبرى، وقفزات المناخ الفجائية، ودناءة زعمائهم. حالة الرضى والقبول هذه ليست مقتبسة من التسليم لدى الرواقيين، ولا من التخلي عند البوذيين. مذهب لا يطمح إلى أن يوصل الإنسان إلى فضيلة سينيكا (133)، ولا أن يورّع فضائل الكارما (134). الروس يطلبون ببساطة أن ندعهم يفرغون زجاجة اليوم لأن الغد سيكون أسوأ من البارحة. التسليم والرضى حالة من الاستكانة الداخلية تقومها قوة حيوية. إن هذا الازدراء العميق لكل رجاء لا يمنع الاستكانة من أن

تجعل المرء يعبّ ما أمكنه من ملذات اليوم الذي في طريقه لأن يمضي.

وضع المساء حدوداً لأفقه. قد يكون ماكفير المتعرق فوق جسر سفينته بانتظار الإعصار مؤمناً بتلك الكنيسة التي لا رجاء لها.

١٨ يوليو

داهمني الضباب بغتة بينما كنت أجدّف في قاربي الكاياك عبر الرؤوس والخلجان. نجحت الشمس في بسط انتصاراتها التي تزيّن تلك الثغرات التاجية الشبيهة بقنافذ بحرية ساطعة. لقد آن أوان هجوم وحش البايكال. رسوت أمام الكوخ المهجور، وتوغلت داخل الغابة نحو المستنقعات بحثاً عن البصل البرّي والراوند وثوم الدببة. هاجمني البعوض. كم أود أن أجرر إلى هنا أولئك الذين يكتبون التعليمات على عبوات المحاليل المضادة للبعوض كي أعزيهم وأحثهم على التقليل من المديح فوق ملصقاتهم. كانت السبخات الصغيرة تصدر نشيشاً. الورود البريّة تضيء البهجة على الضفاف، وأشجار الأرز تعتمها. عدت إلى الكوخ محملاً بالأعشاب العطرية. صارت البحيرة وردية والسماة رخامية، تغطيها رقائق بنفسجية مخططة بالأزرق. يجب أن تكون طبيباً شرعياً كي تقدّر غروب الشمس في البايكال.

١٩ يوليو

حمّام على الشاطئ. كنت أستحم بمياه وفيرة سخنتها في الدلاء حين أرسى فولوديا قادمًا من إييلوشين بقاربه الصغير ومحملاً بالسّمك المدخّن. جاء يحدثني بمسألة يولع بها الروس. «هناك فتن في مدنكم! إنها ثورة العرب! كل شيء يحترق». لم يكن عندي الكلمات الكافية كي أشرح لفولوديا أن الأمور أقلّ خطورة، لكنها أكثر تعقيداً من ذلك. ولكن، هل هي هكذا حقاً؟ يجدر بي أن أشرح له أن تلك الحركات هي تعبير عن الغضب الاجتماعي، وأن السبب العرقي لفاعلي هذه المظاهرات، إذا كان يروّع الروس إلا أنه غير مذكور في التفسيرات الفرنسية. يجب أن أقول له إن هذه ليست ثورة. تلك الاضطرابات التي أخلّت بالنظام الاجتماعي لا تهدف إلى قلب العالم البرجوازي، بل إلى الدخول إليه. هل سمعنا الشباب يطالبون بالحرية والسلطة والمجد؟ لماذا يحرقون السيارات في دوائر اليؤس هذه؟ هل يفعلون ذلك من أجل انتقاد أضرار سلع التكنولوجيا والسوق على المجتمعات، أم لأنهم مستأوون لعدم امتلاكهم أجملها وأكبرها؟

أذكر تدخلاتي في الأحياء الحساسة (أطلقنا تلك الصفة على الأماكن التي يسود فيها شيء من العنف). كان أولئك الصبية الصغار مفعمين بالطاقة وأسعدوني بالاهتمام بما كنت أحكيه لهم، لكنهم كانوا يسخرون من لباسي المضحك، ويهزأون من طريقتي في الكلام. استنتجت من تلك اللقاءات أنهم يدفعون ثمناً باهظاً للاستطلاعات الخاصة بالملابس، تنمو عندهم عقلية الحيّ والتقليدية في السلوك، يحبون الأشياء غالية الثمن، وينمو لديهم هوس مرضي بالمظاهر، يؤمنون بقانون الأقوياء، ليس لديهم أي فضول تجاه الآخر، ولديهم اصطلاحاتهم اللغوية. بالمحصلة: لديهم كل علامات العقل البرجوازي الفارقة.

يا آلهة الغابات، أعيش هنا وأجلب العار لتلك الجبال بانشغالي بتلك القضايا! ما إن أدار فولوديا محركه للرحيل حتى سارعت إلى طرد تلك الأفكار، وعدت إلى حراثة الكتب والغابات.

٢٠ يوليو

اليوم تسلقت إلى ارتفاع ١٦٠٠م، ونزلت المسافة نفسها. هذا هو الإحصاء. قررت أن أتسلق القمة الواقعة وراء الكوخ. في البداية كان الصعود طويلاً وشاقاً في التايغا. خرجت كالوليد من تحت أشجار الغابة على ارتفاع ٨٥٠ متراً. تشكل حدود الغابة العليا عتبة للعالم من الأعلى. كانت الحجارة المقتلعة من القمم قد تدرجت حتى سور الأشجار وساد صمت كأني في مدرّج. وقف الكلبان يلهثان من الحرارة، فارتويانا من مسارب مياه الشلال. مع ازدياد الانحدار قسوة، وجدت أيكاً وبيك عناء في الصعود. جلست قرب دغلة من شقائق النعمان الجبلي أنظر إلى تدرّج انحدار السفوح الحجرية والغابات نحو الضفة.

يبدو أن هناك رجالاً ينظرون إلى أرداف النساء لمعرفة ما إذا كنّ ولّادات في المستقبل، وآخرون يحدقون في العيون كي يحزروا ما إذا كن سيصبحن عاشقات بارعات. ورجال آخرون يقيسون طول الأصابع لتكوين فكرة عن شهوانيتهن. والبعض يرمق بالنظرات نفسها جغرافياً الأمكنة.

تلك الجبال لا تقدّم شيئاً سوى فيض من الأحاسيس يغمرك على الفور. لن يجعلها الإنسان أفضل أبداً. في هذا المنظر المجاني فائض الجلالة، سيخيب أمل رجال المال. لا شيء سيخضع هذه الطبيعة. إنها تستريح هنا بفضل تقدير الأرواح المتحرّرة من كل الأطماع. التايغا ليست منذورة لأحلام التخصيب. أيها المنظم، يا من تستصلح الأراضي! أكمل طريقك وعُدْ إلى توسكانا(135)، هناك تحت السماء معتدلة المناخ، تنتظر المناظرُ الإنسان كي يعيد تشكيلها أريافاً. هنا في هذا المدرّج، تسود العناصر إلى الأبد. كانت هناك معارك في العصور الصحارية. الآن، إنه الهدوء. المشهد استراحة جيولوجية.

على ارتفاع ١٧٠٠ متر، مررت بردم وركام في طريقي نحو القمة. هناك في الأعلى، عند الخط الفاصل ما بين حوض البايكال ونهر لينا، تعديت مع الكلاب ثلاث سمكات مدخنة وبصلة برية. ومشيت ساعة أخرى فوق أشنيات الليشن الجافة نحو القمة التي تعلو ٢١٠٠ متر. غفوت هناك فوق الطحالب يعانقني الكلبان. البعوض يطاردنا، إنه حرس المرتفعات المكلف بعدم السماح لأي دخيل بالجلوس. الطبيعة عبقرية، ليس بنشر جيوش من كلاب الحراسة المتوحشة يمكن أن يصيبها رصاص البنادق، إنما بإطلاق محاقن طائرة أزيها يفقدك صوابك.

انسحبنا متراجعين فوق المنحدر الشمالي الشرقي، ونزلنا نتدحرج فوق أرض حجرية، تنهار الحجارة مع كل خطوة تحت أقدامنا. وصلت إلى خشيف ثلجي يميل بزواية قدرها ٤٠° استخدمت رقاقتين رائعتين من الصخر البركاني لنحت درجات في الثلج القاسي. عوى الكلبان قبل أن يُدعنا للدوران حول العائق. كان الميل يخفّ ونغوص في الثلج. على ارتفاع ٩٠٠ متر، اشتبهت في وجود انفكك صخري تحتي، غادرت غريزياً الثلج الجليدي وعدت إلى الأطراف الصخرية. ظهر أمامي مجرى مياه دائبة. انكشف النهر الذي يغطيه الثلج قليلاً قبل أن ينهال في هوة عمقها ثلاثون متراً.

٢١ يوليو

ما من عصفور لا يغرد. ما من تجاعيد تعكر سطح البحيرة. الضباب ابتلع العالم.

٢٢ يوليو

فوجئت بوصولهما. كانا قد وصلا إلى الشاطئ الرملي بهدوء، ولم أنتبه إلى وجودهما إلا من صوت جرّ قاربيهما الكايك فوق الحصى. عملاقان حليقان لهما ابتسامة اللواحم المفترسة ونظرات في غاية الرقة. كانا يتجهان نحو جزيرة أولخون، بمعدل خمسين كيلومتراً في اليوم. طلبا مني كأساً من الشاي، وبينما كان الماء يغلي، باحا لي بأنهما من أتباع الشيفاوية(136). ويبحران على طول الساحل للكشف عن أماكن مقدسة. قد تكون البحيرة المهد الأصلي لإلههم شيفا. المضحك في الأمر أن لهما وجوه مرتزقة من القوات الخاصة.

ساعدتني بقايا قديمة من الصبر الذي تمنعت به لعشر سنوات في مدرسة الرهبان على تحمّل غليان ساشا الروحي، راح يكشفه لي لساعة من الزمن وهو يحشو استعراضه بالكلمات السنسكريتية. كان قد وصل إلى نتيجة أن جبال البايكال مرتبطة بجبل ميرو، وأن جنوب الأورال نقطة من العالم يصل فيها التجلي السلتي الكوني إلى أقصاه، وأن زراداشت شيّد كورغانات(137). السهول الهندية الساراماتية(138). أنظر بإعجاب إلى أولئك المتيقنين الذين يحدثونك عن تلك الأمور بكامل الثقة وكأنهم كانوا يحتسون لتوّهم كأساً من البيرة مع الله في الكوخ المجاور. منذ أن انهار الاتحاد السوفييتي، لاقت نظريات العهد الجديد نجاحاً باهراً لدى الروس. كان هناك حاجة لسدّ الفراغ الروحي الذي تركه انهيار العقائد الاشتراكية. الروس يحبون التفسير الباطني للعالم، ولن يتأفّفوا البتة من الإيمان بإحدى تلك النظريات التي لم يعد ممتهنو العلوم الباطنية في أوروبا الغربية يجرؤون على الادّعاء بأنها حقيقة. الروس ليسوا أبناء راسبوتين عن عبث.

يالها من فكرة جميلة أن تجول وأنت تحاول التعرف في أشكال المنظر عن نسخة تجسد أسطورة ما! هذا الإغواء الروحي والرمزي للجغرافيا يجعل النظر في حالة من اليقظة. كان صديقي يجذّفان فوق المياه، يرصدان الإشارات، يلاحقان التماثلات. يريان في إحدى الروابي قضيب شيفا، وفي تضاريس إحدى القمم حربته الثلاثية، وفي كوخ بعيد نقطة شراعية تلتقي فيها القوى.

بعد العشاء، جلس ساشا وتلميذه متخذين وضعية اللوتس على الشاطئ، وتليا صلاة المانتر(139). الهندوسية. كان ساشا ينفخ في محارته التيبية، فأيقظ صوت النزيب بيك وبدأ يعوي.

- كلبى لا يجب صوت المحارة، قلت.

نظر ساشا باستغراب:

- لعله ليس كلباً...

ثم قال لي إن كوخ الأرز الشمالي يقع في «عقدة للطاقة» عالية الشدّة. ورحلا نحو الجنوب. ثلاث نفخات في المحارة تدوّي في البعيد.

٢٣ يوليو

جذّفت نحو نهر ليدنايا. كانت تفوح من البحيرة رائحة جثة. لقد عاد الضباب. الغابة تلوح وتختفي، ثم تعود للظهور. هناك فوق الصخور، اصطدت وتغديت من نتاج صبري. سهرتي هذه الليلة أثيرية. المياه تطيطب، جاءت البرية لتموت فوق حدّ جرف صخري يميل فوق المياه الساكنة، يضع أشجار دردار تحميني من النسيم، الأسماك تُشوى على النار والكلبان ينتظران حصتهما، بينما القمر -وكان بلون حلوى كاليسون داكس(140)- يتمرغ في أحضان الضباب. دخنت سيكار بارتاغاس. هذي أماكن يُشعل فيها السيكار للتقديس! ذاكرتي جغرافية، فهي تحفظ المناخ وروح الأمكنة أفضل مما تحفظ الوجوه والأحاديث.

هذا المساء، لا ينقص سوى امرأة أحلامي.

٢٤ يوليو

صوت محرك عند الفجر. إنه فولوديا، جاء يرمي الشباك عند مصب ليدنايا. ناديته من أعلى الجرف. تحدثنا لمدة ساعة ونحن نتشارك أقراص البندورة فوق غطاء القارب. فلاديمير جانكيليفيتش(141)، في مقابلاته على قناة إيميديا، تحدث عن مقدرة الروس على البقاء لساعات طويلة جالسين أمام المائدة، متعلقين بأطراف جزيرة عامرة بالخيرات، ومن حول المائدة يمتد العالم العدائي والقاسي، حيث يجدر الغطس عاجلاً أم آجلاً للوصول إلى مائدة أخرى أبعد قليلاً.

عدت مبحراً في الضباب. كان الشريط الساحلي دليلي. بعد ساعتين من عودتي إلى الكوخ، حسمت العاصفة الأمور.

٢٥ يوليو

سوف أفترق عن الكلبين. أنظر إليهما نائمين عند عتبة الكوخ. لماذا يؤول كل شيء إلى الانتهاء؟ ليس هناك سوى وسيلة واحدة لتجنب المحتوم.

٢٦ يوليو

«أرحل وأشجار دردار فتية تحفّ الطريق، بالكاد تجاوزت أولها»...

سيأتي سيرجيه ليأخذني بعد غد. نوصل الكلبين إلى إيبيلوشين ويمكننا هناك بانتظار العثور على سيد جديد في كوخ من أكواخ المحمية.

جئت إلى هنا دون أن أعرف إذا كنت قادراً على البقاء، أرحل وأنا عارف أنني سأعود مرة أخرى. اكتشفت أن الإقامة في الصمت فتوة وشباب. تعلمت شيئين أو ثلاثة، كثير من الناس يعرفونها دون اللجوء إلى العزلة. عذرية الوقت كنز. مرور الساعات يحرك أكثر من اجتياز المسافات. العين لا تسأم النظر أبداً إلى منظر مهيب. كلما ازدادت معرفتنا للأشياء تزداد جمالاً. التقيت كلبين، أطعتهما، وفي أحد الأيام، أنقذا حياتي. تحدثت إلى أشجار الأرز، وطلبت الصفح من سمك السلمون المرقط، وفكرت في أهلي. كنت حراً، ذلك لأن الحرية دون الآخر لا تعرف حدوداً.

تأملت في قصيدة الجبال، وشربت الشاي بينما كانت البحيرة تتحول إلى اللون الوردي. قتلت الشوق للمستقبل. تنفست أنفاس الغابة، وتبعثت قوس القمر. تعبت في الثلج، ونسيت التعب فوق قمة الجبال. تأملت بإعجاب الأشجار الكهلة، ألقت عصافير القرقف، أدركت بطلان كل ما لا يكرّم الجمال. ألقيت نظرة على الضفة الأخرى. عرفت أسابيع من الثلج الهادئ. أحببت ذلك الإحساس بالدفء داخل كوشي بينما تطلق العاصفة جنونها. احتفلت بعودة الشمس وطيور البط البري. نزعت لحم السمك المدخن، وأحسست بطعم دهن بيض السمك المرقط يطري حلقي. قالت لي امرأة وداعاً، لكن فراشات حطت على جسدي. عشت أجمل ساعات حياتي إلى حين تلقيت رسالة، ورسائل أخرى أكثر حزناً فيما بعد. سقيت الأرض بدموعي. سألت نفسي إذا كان بالإمكان الحصول على الجنسية الروسية، ليس بالدم إنما بالدمع المنسكب؟ مرغت وجهي بالطحالب. أفرغت لترات من السمّ درجة كحوله ٥٤٠، وأردت أن أبول أمام البورياتيا. تعلمت الجلوس أمام نافذة. ذببت في مملكتي، شممت رائحة أشنيات الليشن، أكلت الثوم البري، صادفت دببة. نبتت لحيتي، وحلّ خيطانها الزمن. تركت مدافن المدينة وعشت ستة أشهر في كنيسة التايغا. ستة أشهر كأنها حياة.

كم يطيب لي أن أعرف أن هناك كوخاً في إحدى غابات العالم فيه شيء ممكن، كوخ ليس بعيداً جداً عن العيش السعيد.

٢٧ يوليو

قيلولة فوق حصى الشاطئ مع الكلبين الذين استلقيا فوقي. أيكاً وبيك، يا معلمي القدرية، يا من حملنا لي العزاء، صديقي اللذين لا ينتظران شيئاً سوى ما تقدمه لهما اللحظة في قصعة الحياة، أحبكما كثيراً.

شمس حادة، بحيرة زرقاء، رياح في جبال الأرز، أمواج تتلاطم على الضفة، وأنا في أرجوحتي ظاناً نفسي على ساحل البحر الأبيض المتوسط. داخل الغابة، رفعت نخباً أخيراً لحياة روبنسون كروزو. لمحت قرية نمل، ربت على قمتها بيدي. دافعت الحشرات عن نفسها وقصفت راحتي بحمض النمليك (142)، فلمع جلدي بسائل براق. حقنت نفسي بجرعة من الفودكا في التجاويف. روائح انبعاثات النشادر واخزة. تزدان الغابة بألوان لا تخطر على بال.

فككت قارب الكاياك، رتبت حقائبي. خلال ستة أشهر، انبسطت حياتي هنا. وها أنا أطويها. لطالما عشت داخل أكياس. حقائب مؤني فارغة. أكلت السمك. انتهى كل شيء. غداً العودة.

٢٨ يوليو

زيارة أخيرة إلى أعلى الرايبة كي أقول وداعاً للبحيرة. هنا طلبت من روح المكان أن تساعدني على عقد السلام مع الزمن. أثناء نزولي، اكتشفت أيكاً أنثى عيدر راحت تخفق جناحها الأيمن في المياه متظاهرة بأنها جريحة. انساق بيك إلى الوقوع في الفخ وتبعها إلى أن فقد السيطرة على نفسه.

كانت أيكاً تبحث عن العش، ذبحت أفراخ البط الستة قبل أن أتمكن من التدخل. أنهيت حياة الأجساد الصغيرة بضربها بحصاة.

استمر نحيب البطة طويلاً فوق الشاطئ.

كانت تبكي على آلاف الكيلومترات التي قطعتها دون جدوى، تبكي صغارها الضائعين. تقتضي الحياة أن نحتمل بثبات موت الأحباء.

كان يكفي ضربات أسنان أيكما المفترسة الصغيرة كي ينهار ضياء لا حدود له في معتزل أرز الشمال.

جلست على المقعد الخشبي بانتظار قارب سيرجيه. الشمس قوية. الحقائق والأكياس مكدّسة. الكلبان نائمان فوق الرمال. وتلك البطة التي تبكي في النور.

للصباح طعم الموت، طعم الرحيل.

رفع الكلبان رأسيهما. وعلا صوت هدير، ثم تأكّد. إنه القارب.

نقطة تكبر عند الأفق. نقطة انتهى.

كنوت هامسون: (١٨٥٩-١٩٥٢م) كاتب نرويجي حائز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٠م. واحد من أعظم الكتاب الذين عرفهم العالم خلال القرن العشرين.

هنري دومونتيير لان: (١٨٩٥-١٩٧٢م) روائي وكاتب مسرحي وأكاديمي فرنسي. إيركوتسك: مدينة روسية في سيبيريا الوسطى، تبعد ٦٠ كيلومتراً عن بحيرة الباكال. جيمس دين: (١٩٣١-١٩٥٥م) ممثل أميركي يعتبر أسطورة في عالم السينما. الموردور التولكيني: مملكة الظلام في العصر الثاني.

بيتر بروجيل: رسام ونقاش من هولندا الإسبانية (١٥٢٥-١٥٦٩م). غابات التايغا: وتلفظ بالروسية التايغا وتسمى أيضاً غابات الشمال القطبية، وهي أحدها المناطق الحيوية على سطح الأرض تكثر تطار تباطاً شديداً بالمناخ السيبيري. تتصف باحتوائها على الغابات المخروطية التي تتألف من شجر نيسمان الصنوبر والتنوب الأرزبية. ورق أرمني: نوع من الورق المعطر بالراتنج يحرق مثل البخور.

اليورت: هو منزل لقبال للتقاليد البيكالمحاط بطار من الخشب المقوسكانت تستخدمها من جانب نبتة كمانيقبال لبدوو حلفيسهو بأسيا الوسطى. هينغل: (١٧٧٠-١٨٣١م) فيلسوف ألماني. يعتبر أهم مؤسسي المثالية الألمانية. كان فلسفتها أثر عميق على معظم الفلسفات المعاصرة. ميخائيل بورغيتشليز منتوف: (١٨١٤-١٨٤١م) أحد أهم الشعراء الروس بعد وفاة الكساندر بوشكين. يُدعى أيضاً شاعر القوقاز. اللورد بايرون: (١٧٨٨-١٨٢٤م) شاعر بريطاني من واد الشعر الرومانسي. كانت قصائده تعكس معتقداته وخبرته.

يصر اللورد بايرون على حرية الشعوب. إرنست يونغر: (١٨٩٥-١٩٩٨م)، كاتب ورائي ألماني. فريدريش فيلهلم نيتشه: (١٨٤٤-١٩٠٠م) فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر وملحن لغوي وباحث في اللاتينية واليونانية. كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتأثيره يخالف الفكر الحديث. أرتور شوبنهاور: (١٧٨٨-١٨٦٠م) فيلسوف ألماني، معروفاً بفلسفتها التشاؤمية، فمايرها الحياة ما هو إلا شر مطلق، فقد جلا لعدمو قدر فيكتا بال عالم الإدق فكرة. الرواقيون: الرواقية مذهبٌ تركز الفلسفة الرواقية على التناغم مع الطبيعة وتأخذها بالفضيلة. الإنسان المنتصب: يعتقد العلماء بأن الإنسان المنتصب قد تطور من الإنسان العامل.

بعض الأداساتو الأحافير أثبتت أن هذا الإنسان عاصر الإنسان الحالي وما يعر في اسم الإنسان العاقل. غاستون نباشلار: (١٨٨٤-١٩٦٢م) من أهم فلاسفة القرنين، وهناك من يقول إنها عظم فيلسوف ظاهري، كرسجراً كبيراً منحياتهم عملهم فلسفة العلوم.

بورياتيا: هي إحدى الجمهوريات الروسية التي تحكم ذاتياً، تقع في جنوب المنطقة الوسطى من سيبيريا على طول لانشاطا لشر فيلجير تبايكال. شانتيي: مدينة فرنسية في مقاطعة لوز، تقع في غابة شانتيي. ميلي-٨: مروحية نقلتسو فيتيي تعد الأكثر إنتاجاً علمستوي العالم بتعداد يصل إلى ١٢٠٠٠ طائرة. هويسمان: كاتب ناقد فنير نسي (١٨٤٨-١٩٠٧م).

سوتشي: مدينة تقع على ضفاف البحر الأسود في إقليم كراسنودار كراي، وتعتبر حالياً منتجاً روسياً فاجراً. إيليز يهر يكلو: (١٨٣٠-١٩٠٥م) عالم جغرافيا ومن دعاة الحرية ومؤمن بالاشمولية. بروسشار لشتاوين: كاتب يري طانييكتي قصصاً سفار (١٩٤٠-١٩٨٩م). ترو: فئة من الكائنات في الأساطير النوردية الفلكلور الاسكندنافية التي سكنها الصخور المعزولتو الجبال والكهوف. روبرتوبول: (١٨٥٧-١٩٤١م) ضابط في الجندية البريطانية مؤسساً لكشفة في العالم. يدينايا روسيا: روسيا الموحدة. هو أكبر حزب سياسي في روسيا الاتحادية. ديرس أو الزلا: صيادو دليمنسكان سيبيريا الأصليين للمستكشفالروسيفلاديمير أرسينييف. فيزاس: شاعر وروائي نرويجي (١٨٧٩-١٩٧٠م) يعتبر من أهم كتابالقرن العشرين بعد الحرب العالمية الثانية. غولاغ: أو معتقل سيبيريا هو الاسم الذي كان يطلق على معسكرات الاعتقال السوفييتية. يرجع تاريخها لعام ١٩١٨ من معاصر ستالينالدموي. معقلا لانتهاك حقوق الإنسان.

سينيكا: فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي ورومان، ولد في قرطبة في بداية أو لقرن ميلادي. ألدوليوبولد: (١٨٨٧-١٩٤٨م) عالم بيئة أمريكي. أول من نادى بحماية البيئة في أميركا. تيريز بيللينو وليونيلدا: شخصيات نسائية من كتاب مذكرات كانوفا. القيوط: نسل البراري من سلالة الذئاب أصغر منها حجماً تعيش في أميركا الشمالية. غورغونا: في الأساطير اليونانية، امرأة تكسور أسها الأفاعي كما تمنظر إليها تاجر. السارماتيون: مجموعة من القبائل الإيرانية في الفترة ما بين القرنين الخامس قبل الميلاد والرباع الميلادي. غيز: بلدة فرنسية تقع في إقليم أيني من منطقة أوتو فرانس.

سفيناندر سبيدين: مستكشف ومصور وجيولوجي سويدي (١٨٦٥-١٩٥٢م). قام بأبحاث في آسيا الوسطى.

جانجونيونو: (١٨٩٥-١٩٧٠م) كاتب نرسيتتصفاً أعماله بالبعد الإنسانوي الأخلاقي.

جانفر انسو اكوبييه: رجل سياسة قفر نسي.

الجبال السماوية: سلسلة جبال تقع في آسيا الوسطى، تمتد لأكثر من ٤٠٠ كم.

هضبة استجور: تقع في أوزبكستان وكازاخستان وتتكون أساساً من صحران حجرية.

صحراء جوبي: صحراء مترامية الأطراف تقع في الجزء الشرقي من وسط آسيا.

أو كوساي: رسامونقاشيابانيتتر كأكثر من ٣٠٠٠٠ رسماً.

هيبيريون: أحد الآلهة الإغريقية الأساسية.

شوبنهاور: (١٧٨٨-١٨٦٠م) فيلسو فآلماني كان لها الأثر الكبير على أدباء وفنانين وفلاسفة خصوصاً كتابه (العالم ادة وفكرة)

السايدلية أو إيداعه لوسياو إيداعه لشفلنفس، هي ثقافة مضادة تظهر تفتيتاً للقرون العشرين، في الأدب الموسيقو الفنوال بصريه،

ارتبطت باستكشافات جبالها وتحسين إدراكية الدخول لفتحاً للتنفسية تحت تأثير عقار اتمخلة بالفسلأ هدا فإيداعية.

ماندالا أو الدائرة: هيمجموعه منالرموز استعملت لقبلاً للهندوسيين والبوذيين للتعبير عنصوره الكونالميتافيزيقي.

يستخدم هذا التعبير للدلالة علىالتبا عدينبشخصين،

وهو مستوحى من تماثيل خزفية لكليبيو ضعاً حدها مقابلاً لآخر متبا عديلتز بينفوالمدفأة أو طاوله المكتب.

كليرتون:

تكنة عسكريه للجنود المكسيكيين معانلاتهم على جبر كليلير تونتر كوا منسبينها كعبعد الثورة المكسيكية و حينما اكتشفوا وجودهم في العام ١٩١٥ فضال

حاكم المكسيكي عودتهم بعد أن مات منهم العديد بسبب نقص الغذاء.

فاسيلبيروف: فنان روسي (١٨٣٤-١٨٨٢م) يعتبر من مؤسسي الواقعية.

البيتيك: كلمة مبتكرة لها دلالات عديدة من بينها التعلق الشديد بالمناطق الشاسعة والطبيعة والروحانيات حيث يتوحد الإنسان مع الكون.

(باخوم، أنطون، رانسيه): رهبان أسوا أديره في مصر (حوالي ٣٠٠م).

رومانغاري: (١٩١٤-١٩٨٠م) ضابط طيار ودبلوماسي وروائي وكاتب سيناريو ومخرج سينمائي قفر نسيمناً صر وسى.

الجسبات: رتبة من الحيوانات اناتتضم الفيلو فر سالنهر ووحيد القرننتميز بقسو وجلودها.

عشيقا الليديشاترلي: رواية للكاتب الانكليزي دي. إتش. لورنس.

بروميثيوس: فيالميتولوجيا الإغريقية، العملاقالذيسر قالنار منجبلأولمبلبقدمها للبشر.

مكسيم غوركي: (١٨٦٨-١٩٣٦م) أدبىوناشط سياسيماركسي روسى، مؤسدمدرسه الواقعية الاشتراكية التي تجسد النظره الماركسية للأدب.

تمتر شيهه: مرانلحصو لعلجانز توبلفيا للأدب.

يوجد صندوق الصو تقيم عظمالات التورية (مثال للعود) وهو حجره مفتوحه في جسم الآلة يعزز استجابة الأداء للنگمات المنخفضة.

مقاطعة تقع في الجنوب الأوسط من الصين، المنطقة جبلية بشكل عام.

والتويتمان: (١٨١٩-١٨٩٢م) أحد أهم شعراء أمريكا وأكثرهم تأثيراً في القرن التاسع عشر، شكلت أشعاره علامة فارقة في الأدب الأمريكي.

تجربة بيا فوف: تجربة علمية قام بها العالم الفيلو فعلاً الكلبا استحدثهم حفز مشروطاير نينالجر سمعتقد يما الطعام.

وكانت الاستجابة للمحفز وحده كافية لجعل العالبا الكلب يبدون تقديماً للطعام.

بياض الثلج: snowwhite قصة للأطفال.

بليز ساندرا: (١٨٨٧-١٩٦١م) كاتبة شاعر سويسريتنصوياً عملها تحت عنوان أدبالمغامرات والحالات والاكتشافات في تخلفها الواقعية الخيالي.

الطاقة المجدسة: هي طريقة حسابية هدفها إيجاد مجموع الطاقة اللازمة لدور حياة كاملة منتجماً.

بيكار أولورينا وتوارانجو: مناطق محلية في فير نسا.

كاشا: حساء روسي يصنع من الحنطة السوداء.

تلميحا بالديسينا العموديين الذين كانوا يقضون حياتهم يتعبون فوصخرة أو عمود بعيداً عن البشر في أنحاء سوريا في القرن الرابع والخامس الميلادي.

الجائنية: ديانة هندية قديمة، وتعني المنتصر وتشير النظره بقالنصر بعد تجاوز تيار الحياة والانبعاث من جديد من خلال حياة أخلاقية وروحية.

مركزية الإنسان: الاعتقاد أن الكائنات البشرية هي الكيان الأكثر أهمية في الكون.

تتميز صخور النايس بظاهرة التورق، وغالباً ما يكون هناك تباين في المناطق الداكنة والفاتحة اللون.

توبوليف ١٤٤: هي أول طائرة تجارية نقلت الركاب في العالم أسرع من الصوت. صممت وصنعت في الاتحاد السوفياتي.

جوزيف كونراد: (١٨٥٧-١٩٢٤م) أدبىانجليزىيولندي الأصل. أغلبرواياتها علاقة بالبحر ويرويها بحار عجوز.

كريتياندوتروا: شاعر فرنسي شاعسمه فيأواخر القرن الثالث عشر الميلادي. يعتبر من أعلام أدباء القرن والوسطى. وخصوصاً فيأفانوفارسالأسد.

غاسبار دافيد فريريش: (١٧٧٤-١٨٤٠م) أهر سامالمانيم المدرسه والر ومنسية أهملوحاته: بحر الجليدومسافر يتأملبحر الغيوم.

أنتونوف: شركة أوكرانية متخصصة في صناعة الطائرات أنتجت أكبر طائرة في العالم وهي أنتونوف إيه-٢٢٥

ميرسيالباد: (١٩٠٧-١٩٨٦م) كاتبة مؤرخة فيلسوفة وماتيكانيك تبيخمس لغات وألمنأسسلعلمتار يخالديان الحديث.

سالاردو أيوني: هو أكبر مجمع محفيا العالم المقفيمر تفعاتاً للتيبلانو جنوب غرب بوليفيا.

غولوم: شخصية خيالية تلمسخ في ملحمة سيد الخواتم للمؤلف ج. ر. ر. توكين.

الريشاركو: (١٨٦٧-١٩٣٦م) طبيب ومستكشف رياضي نسيما تفيالبحر. يروى أحجار تهكيفا أطلقا لنور سقبلغرفالسفينة.  
بر ايتون: مركز استجمام فيجنو بلندن يقع على البحر يتم تعيشا طحوصو جميل.

البير يستر ويكا: «إعادة الهيكلة» هبير نامجلإصلاحاتالاقتصاديةأطلقهر نيسالاتحادالسوفييتي، ميخائيلغورباتشوف.  
يطر حالعضا نللكالسياسة أدتإلإلتهيار الاتحادالسوفييتي وتفككه سنة ١٩٩١.

الرافض (Refusenik):

غير رسمي لليهودالسوفييتالذي يتم رفضهم لإذنبالهجرةإلإلبحار جمنجان بسلاطالاتحادالسوفييتي السابق غير هاماندو لالتابعة للكلتة الشرقية.  
ومعمور الوقت، دخلتالكلمةإلإلغةالإنجليزية العامية لإشارةإلإلشخصالذي يرفضالقيام بشيء، خصوصا منخلالالاحتجاجو التظاهر.  
إيليار بيين: (١٨٤٤-١٩٣٠م) منأعظم ساميالتيار الواقعيالروسي، عرفقوةالملاحظةوالقدرةعلنتجسيدمالمحاناسو عواطفهم،  
وتمكنفيلو حاتمنا للاحاطة حياةالشعبالروسيكلمعقور هافهتس.

بولموراند: (١٨٨٨-١٩٧٦م) كاتبفرنسيودبلوماسيو عضو فيالأكاديميةالفرنسية.

القشرة الحديثة: هيجزءمنالقشرة المخية، سميتبالقشرة الجديدةكونها فيأعلمرا اتبالتطور فيالتصنيفالعاموهو ما يميز الأنسانعنباقيالكانات.  
عيدالظهورالإلهي:

عديحتفاللمسيحيونفيالسادسمنكانوالثانيينبار منكلعاملذكر معموديةيسوعينهر الأردنعليديو حناالمعمدان.

رقاصالإيقاع: أداتعظمتكتكةأو علامتجزئة، عددهاتابتقيالذقيقةالواحدة.

السيرو والترسكوت: (١٧٧١-١٨٣٢م)  
روائيوكاتبمسرحيوشاعرأسكتلندي.

لاتز الأعمالعقروأفبالعصر الحالبياوروبوا أمريكاشماليةأستراليا.

صندوقياندرورا: فيالأسطورةالإغريقية، إذافتحهذاالصندوقتخرجكلالشرور والمصائبإللعالم.

دنيسيديرو: (١٧١٣-١٧٨٤م) فيلسوفوكاتبوموسوعيفرنسي، منقادحركةالنتوير. رئيستحرير أولموسوعة حديثة.

سورينكيركيغارد: (١٨١٣-١٨٥٥م) فيلسوفدنماركي، ولاهوتي، وشاعر، وناقدا اجتماعي، ومؤلفديني،  
ويُعتبر علنطاقواسعأولفيلسوفجودي.

متلازمةستاندال: مرضنفسيفيأصابهبعضالأشخاص، ويتسببفيتسار عضرباتالقلب، والدوار، والارتباك، والإغماء،  
وأيضاًالهلوسة عندما يشاهدالشخصأيصورةجماليةفنيةترقية.

مارتنهايدغر: (١٨٨٩-١٩٧٦م) فيلسوفألمانيوجها اهتمامهاالفلسفيالمنشكالتالوجودوالتقنيةوالحريةوالحقيقةغير هامانالمسائل.  
وفيمايخصأيهبالحيواناتيقول: إنالحيواناتليس لها علملهاذاعتها بالمسكينة.

ورقالقضيم: ورقرقيقيصنعمنجلودالحيوانات حديثةالولادة قديماً. ويعنيأيضاً الورقالصقيلالممتاز.

فالارمشالاموف: (١٩٠٧-١٩٨٦م) كاتبسوفييتي.

جولفيرن: (١٨٢٨-١٩٠٥م) كاتبفرنسيبتتناولمعظمأعمالهمغامر انتستحضر التقدمالعلميفيالقرنالتاسعةعشر.

رينيهمارياريلكيه: (١٨٧٥-١٩٢٦م) شاعر نمساويوهيميرومانسجدائي، ويعدواحدأكثر شعراءالألمانيةتميزاً  
ركز فيشعرهلعصوبةالتواصلفيعصر الكفر والعزلةوالقلق العميق.

جونبوروز: كاتبوعالمأمريكياختصفيدراسةالتاريخالطبيعي، وكانمنالناشطينفيحركةالحفاظعلناالبيئةفيالولاياتالمتحدة.

يوكيوميشيما: (١٩٢٥-١٩٧٠م) روائيوشاعر وكاتبمسرحيومتلومخرجأفلام. رشحميشيماالحصولعللجانز تبولفيالأديتلاتمترات.

رينيهغينون(١٨٨٦-١٩٥١م): ألدوجوهالثقافةالفرنسيةفيالقرنالعشرينكتبعنالميتافيزيقياوالمزيميةانتقدالعالمالحديث.  
اعتنقالإسلاموماتفيالقاهرة.

راؤولدوفي: (١٨٧٧-١٩٥٣م) رسامفرنسيومصمماًقماشتهوسجّادونقاشوساحاتعامتومسارح

جوليانكوبا: (١٩٧٤-١٩٩٩م) مؤسسمجلةالفلسفةالفرنسيةTiqqun

البوداسف: فيالبوذيةالقبالذي يظلعلمأيشخصيشعربرغبةكبيرةلتحقيقالبوذيةلصالحجميعالكانات.

كلوديفيستروس: (١٩٠٨-٢٠٠٩م) عالماجتماعوأنثروبولوجيفرنسي.

مونثيرلان: (١٨٩٥-١٩٧٢م) روائيوكاتبمسرحيفرنسي.

الكوارتزيت: ينتجهذاالصخرمنتحوالاصخور الرسوبيةالتي تحتويغالبيتها علالكوارتز شمالأحجار الرمليةالصوان

لوثارينجيا: كانتمملكةفيالعصور الوسطىتتألفمنالبلدانالمنخفضة، وغربأيرلندا، وأراضيا ليو معلالحدودبينفرنساوألمانيا،  
وماهو الآنفرنسويسرا. سميتعلناسملوثر الثاني.

ألبيوستيبولوس: شاعررومانيلاتينيولديسنة٥٥قماشتهر بشعرهالروائي.

البيونيك: هندسةإلكترونياتحويةأو هوفر عمالهندسةيحاولفيهاالمهندسونتقليدالطبيعة.  
للدلالةعلأنهيمكنالاستفادةمنالطبيعيةوتصاميمهافيالمجالالتقنية

جيمتوماسهاريسون: (١٩٣٧-٢٠١٦م) روائي، وكاتبسيناريو، وكاتبمقالات، وكاتب، وشاعر، وكاتبالأطفالأمريكي.

دليلالبيونيك: كتابيلخصنظريةالفيلسوفالروايقيايبيونيكيت،  
لايضمايذكراسةعميقةلكنهيسعالبتعريفأمثلةعمليةمستخلصةمنالحياةالبوميتتوضيحيةفيالتطبيقمبادئالحكمةالرواقيةفيحياةكلشخص.

جيمس هادليتشيز : كاتب بريطاني وليسي مشهور ولد في لندن في ٢٤ ديسمبر عام ١٩٠٦م. تقو لالحكاية إنالوزير الروسيغريغور بيبو تمكيناً مبرنيا و اجها تيبو تر انة منعجينة الور قلاخفاء فقر القربا ثناء يار ةالإمبراطور ةكاترينالثانية إلنا لقر مفيالعام ١٧٨٧م، وصار تعبير «قرببو تمكين» يقال للدلالة علنخدا عل البصر.

فيستولا: أطول نهر فيبولندا طوله ١٠٤٧ كم. أليكسي توكفيل: (١٨٠٥-١٨٥٩م) فيلسو فسياسي، رائد في علم الاجتماع، كتبت كتاباً تحليلياً عنالديمقراطية عموماً متخذاً النموذجالأمير كينموذجاً (مزايهاومخاطرهاوديناميكيتها) نالرواجاً كبيراً. كومانشي:

هيامة أمر يكية أصلية لمنطقة السهولالكبر بامتدتأراضيهاالتاريخية منشرفقربو مكسيكو وجنوبشركولورادووجنوبغربكانساسو غربأوكلاهوما ومعظمشمالغربتكساسو منطقة تشيو او الشمالية.

أكاديمية كير وفا: المدرسة الملكية للبلابية فيسانتيرسبور غنأستعام ١٧٣٨م. فاست: الشخصية الرئيسية فيالحكاية الألمانية الشعبية عنالخبميا نيا لألمانيا الدكتور بيو هانفاوستالذي حقق نجاحاً كبيراً ولكن غير راض عنحياته فيغير معقداً معالشيطانيسلم اليه وحققه مقابل الحصول عل المعرفاة المطلقة وكافة الملذات الدنيوية.

بحيرة تنجانقا: بحيرة كبيرة فيوسط أفر يقيا. ومنالمقدر أنها تانيا أكبر بحيرة للمياه العذبة فيالعالم. تكلامكان: هيصحرا علمية مساحتها ٣٢٣,٧٥٠ كم<sup>2</sup> تقع في آسيا الوسطى، فيحوضتار يفيم منطقة شينجيانغ ذاتية الحكم في جمهورية الصين الشعبية. ماتو غروسو: واحدة منولايات البرازيل، تقع فيالغرب منالبلاد. «ماتو غروسو» يعني «الغابة الكثيفة».

غاستونابشارل: (١٨٨٤-١٩٦٢م) مناهم الفلاسفة الفرنسيين، وهناك منيقول إنها عظم فيلسو فظاهري، وربما أكثر همعصرية أيضاً، فقد ذكر سجناء كبيراً منحياتو عملها في فلسفة العلوم.

فرسانالتيون: طائفة عسكرية مسيحية ألمانية.

تأسست كمجموعة متمريضية لكنها تحولت إلى النمطفرسانالهيكلو شاركت فيالحر وبالصليبية مثلهمو كان لها مقر فيعكا. العدمية: نظرية أحد الأحزاب البروسية فيالقرن التاسع عشر تدور حول تحرير الفر منكسلطة. الشوي: مجموعة عرقية فيالصين الشعبية.

تانغزين: (١٦٣٠-١٧٠٤م) فيلسو فكونفوشيديتو كاتب صيني.

كونتيكي (KonTiki):

اسم الطوفان الذي استخدمه العالمو الرحالة المغامر والمؤرخالخبير هايردال لإبحار به فيرحلتها لاستكشافية عام ١٩٤٧م مسافة ٨,٠٠٠ كم، منسواحلأمريكا اللاتينية إلىجزر البولينيزيا. تمتصوير الكثير منالصور الفوتوغرافية أثناء الرحلة فيلما سينمائيًا كسباجزة الأوسكار لأفضل فيلم تسجيلي منإخر اجثور هايردال.

غيلوكس: (١٩١٩-٢٠٠٣م) منتج ومقدم برامج العابو تسلية تلفزيونية، ابتكر أكثر منخمسين برنامجاً إذاعياً وتلفزيونياً. معركة بوردينو: دارت رحاها بتاريخ ٧ سبتمبر ١٨١٢ ما بين جيش نابليون نابرتو الجيش الإمبراطوري البروسي بقيادة الجنرال الميخائيل كوتوزوف، وقد قتل فيها أكثر من ١٠٠ ألف جندي.

موبيديك: رواية من تأليف أروانيا لأمر يكيهبر مانمليفيل صدرت في ١٨ أكتوبر ١٨٥١، وتدور حول صراع اجيديبينحو تو إنسان اتخذ من هذا الصراع الحضاريوسيلة لتأملالو ضعال بشريو علاقته بالوجود.

سينيكا: فيلسو فخطيبو كاتب مسر حير ومانيو لدقبال ميلادبار بعسنو اكتبها عمالها اللغة اللاتينية، منبني تصوراتها الفلسفية وفقهاالرواقية فينفسية السياسة النفسية حيث يتحكم المرء في رغباته وأحاسيسها الجسمية ومطالبها العضوية، وهو ما يحقق للمرء قدر من الاستواء واللامبالاة تجاهها لأحاسيسو السكينة التي هيمنتها الحكمة والسعادة.

الكارما: يطلق لفظ كارما علنا لأفعال التي يقو بها الكائن الحي، وهيمفهوم أخلاقي فيالمعتقدات الهندوسية والبوذية واليانية والسيخية والطاوية.

توسكانا: إقليم فيالوسط الغرب بيلايطاليا، مشهور بتراتها الفنيا الغنيو طبيعتها الخلابة.

الشيواوية: صنفا منالديانة الهندوسية، متبعو هذا الصنف يعبدون شيفا كإله الأعلى.

كورغان: اسم يستخدم في مصطلحات علم الآثار للإشارة إلى الجثوة (تلجنازي). تنتشر تشكيلات كورغان خصوصاً فيمنطقة القوقاز وأوروبا الشرقية.

الساماتيون: هم مجموعة من القبائل الإيرانية عاشت فيالأجزاء الوسطى منالسهول فيالعصور الكلاسيكية القديمة من دهر تفيالقرن الثاني قبل الميلاد والرابع لميلادي.

المانترا: هي عبارة عن مقاطع صوتية ممدودة أو كلمات يتلوها المصلون منالديانة الهندوسية.

كالبسونداكس: حلونتشتهر بهامقاطعة أكسافر نسبية، عبارة عن قطع لوزية الشكل تغطيها عجينة السكر.

فلاديمير جانيكليفيتش: (١٩٠٣-١٩٨٥م) فيلسو فوموسيقي روسي.

النمليك:

حمض الفورميك نسبة إلى النمل كما هو معروف وأن النملة تفرز هذا الحمض لتتبعثرها في طريقها إلى الجحر ها كما أنها تفرز هذا الحمض بكثرة عند احساسها بالخ  
طر أو تعر ضها له.



## عن المترجمة



### المترجمة: لينا بدر

مترجمة من مواليد اللاذقية- سوريا ١٩٦١م. تحمل إجازة في الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة الفرنسية من جامعة تشرين في اللاذقية. عملت بتدريس اللغة الفرنسية في ثانويات ومعاهد المدينة من العام (١٩٨٣ - ٢٠١٢م) بالتوازي مع الترجمة، بداية المقالات والقصص القصيرة التي نشرت في العديد من الدوريات الثقافية في العالم العربي، ثم انتقلت إلى الرواية. معظم الأعمال التي ترجمتها كانت من اختيارها حرصاً منها على نقل ما يغني القارئ العربي بقيمته الأدبية والإنسانية. صدر لها حتى الآن ثمانية عشر عملاً في عدد من دور النشر العربية. «العودة إلى كازابلانكا» عن دار الساقى، «ليلة النار» عن دار مسكيلياني. «وطني الصغير»، دار الفارابي.

